السبيل

الكاتب: مصعب تواتي.

تدقيق لغوي: أحمد فؤاد.

الإخراج الفني: ضياء فريد.

تصميم غلاف: محمد محسن.

رقم الإيداع: 2020/14310

الترقيم الدولي: 978-977-6689-48-0

كاريزما للنشر والتوزيع

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

السيل

رواية

مصعب تواتي

تجمع سكان بلدة المأرب أمام منزل حاكم البلدة في انتظار خروجه إليهم، ليعلموا ما الذي انتهى إليه اجتماعه مع الوالي وبعض كبراء البلدة ومدينة الوالي. ولم يشك أحد في أن هذا الموعد لم يكُن إلا من أجل البحث في أمر النعوش التي سيقت ذلك الصباح إلى رحبة البلدة في عربة حكومية ثم وضعت في وسط الرحبة، وسط حراسة شديدة لم يُرَ لها مثيل. وما زاد في حدة الشكوك هو تتالي توافد السيارات الفخمة، بما فيها سيارة الوالي، وتجمعها أمام منزل الحاكم. شدت هذه المشاهد أنظار أصحاب المحلات وكل المارة من رجال ونساء في طريقهم للعمل، وآخرين في تجمعات ودية في الرحبة وفي حافات الطريق. ولم يتوقف تعالي الأصوات هنا وهناك أين احتشد الجمع، وبين الفينة والأخرى تنطلق الأبصار مصوبة نحو الباب الكبير بعد كل صوت يسمع من الداخل، وبدأت علامات نفاد الصبر تبدو على محيا كل من اهتم بالأمر وتربص بالباب ينتظر أن يفتح. ولم يطل الأمر حتى فتح الباب وخرج بعض من الأمن يسعون لإفساح الطريق لمن كان خارجًا في تلك اللحظة. واستطاع كل من كان واقفًا ضمن الحشد أن يلمح جميع كبراء البلدة ومعهم الحاكم

رابح عطية الذي كان يكلم الوالي باحتشام ممزوج بجدية بالغة. وبدل أن يتجه الجمع الجديد إلى السيارات، أخذوا في المشي نحو الرحبة محاطين ببعض الأمن، فلم يكُن من أعضاء الحشد سوى تتبعهم بخطى سريعة وقد أدركوا بغية العلية، وكلٌّ يهتف لصاحبه: «**إلى الرحبة**».

ولم يقصد الوالي والحاكم وباقي العلية أي مكان آخر سوى الرحبة، وفي الرحبة وسطها أين وضعت النعوش الثلاثة، وقفوا هناك وأخذوا في التحدث بينهم إلى أن أدركهم الحشد فامتزج الجمعان. ثم خفت الأصوات فجأة إلا صوت الوالي وهو يحدث الحاكم رابح عطية:

«**أظن يا رابح أنه كان يجدر بأحد أعوانك الذهاب إلى منزل مسعود بن نوح وجلبه إلى هنا، عله يقصد الآن منزلك ويضيع المزيد من الوقت**». نظر رابح عطية إلى ساعته بعد أن رفع كم قميصه العربي عن رسغه، ثم نظر إلى غرب الرحبة، إلى مدخل حي الساعين، ثم أجال ببصره حول الحشد أمامه وكأنه لمحهم لأول مرة، ثم صاح سائلًا:

«**ألا يوجد أي من أهل أو أقارب مسعود ليذهب إليه ويخبره بأننا ننتظره هنا؟**». لم يند أي صوت من أي أحد، ثم بعد لحظة بدأت الرؤوس في الاستدارة تريد لمح أي من آل ابن نوح لتسهيل الأمر على رابح، ولم يكُن سوى أن هتف أحدهم في الخلف: «**ها هو ابنه**». واتجهت الأبصار جميعها من جديد وكأنها جسم واحد باتجاه مكان إشارة صاحب الصوت. وهناك أفسح البعض واستداروا كذلك وبدؤوا في التحديق إلى شاب في السادسة والعشرين من عمره، مائل للسمرة، العينان بنيتان، والقامة طويلة ونحيفة، وهو ينظر باتجاه الوالي ورابح عطية. ولم يشعر زيد إلا وهو يمشي نحو

منزله يريد أن يصله بسرعة ليخبر والده عمَّا يجري في الرحبة. عبر المدخل أين تجمع بعض الشباب وبعض الكهول يتناقشون حول الآراء والتكهنات التي ما فتئت انطلقت مذ سماع خبر النعوش، تجاوزهم ثم انعطف يسارًا فيمينًا مارًّا على ساحة صغيرة وسط محلات خمسة كانت مغلقة. وفي المنزل ألفى والده يهم بالخروج، تبادلا النظرات وابتسم مسعود لابنه، ثم ولجا الباب خارجين. لم يكلم أحدهما الآخر، كان مسعود في قميص عربي وقد ظهر قميص تحت الجلابة وعلا رأسه طاقية طويلة تشبه القبعة التونسية ولكن أطول وبلون بني مثل القبعات الأفغانية. ولم يكادا يبلغان وسط الرحبة حتى بدأ الحشد بإفساح الطريق لهما. تهامس رابح عطية مع مسعود وهو يومئ له بين اللحظة والأخرى إلى النعوش ثم إلى الوالي، ثم قال بصوت سمعه أغلب الحشد:

«**انتظرناك زمنًا طويلًا يا السي مسعود، خلناك هنا، كان عليك أن ترسل أحدًا ليعلمنا أنك ما زلت في منزلك أو في طريقُك إلينا**». تبسم مسعود وخفض رأسه ثم رفعه وكأن ما سمعه لم يكُن سوى تقريع ودي بدل أن يكون تمهيدًا لكلام آخر، ثم قال:

«**والله يا السي رابح، أنت تعرف أنني إنسان عادي لديَّ نظام لا أكاد أخرج عنه، ويندر أن تأتي حادثة تخرجني عن هذا النظام، لذلك تراني بطيئًا جدًّا عندما يتعلق الأمر بمجاراة أمر طارئ وجديد**». أومأ رابح بسرعة وهو يختلس النظر إلى يمينه أين كان الوالي واقفًا، ثم قال بسرعة نمت عن محاولة لإرضاء سيد الولاية:

«**معليش، معليش، نذهب الآن إلى منزلي، لقد كنا هناك، وكان علينا أن نجر حضرة الوالي هكذا، ولولا صبره لا أعلم ما الذي**

كان سيحدث مع شخص آخر». ثم أشار بيده للأمام لمسعود بن نوح ثم للوالي الذي تحرك بسرعة محاولًا الفرار من ذلك الكم الغفير الذي ملأ الرحبة. ولم يفُته النساء والأطفال في الشرفات والنوافذ المطلة على الرحبة من الجهة الشرقية والغربية. ومع محاولة موكب العلية الابتعاد عن الرحبة وعن ذلك الجمع الهائل، بادر أحد الرجال مخاطبًا رابح عطية بتساؤل لم يُخفِ لهفة وحرصًا وكذلك خوفًا:

«**ماذا عن هذه النعوش يا السي رابح؟ ألن تخبرونا ما الذي أتى بها إلى هنا؟ ولماذا كل هذه الضجة حولها؟**».

«**ضجة؟ من يعمل الضجة هنا؟**» تساءل رابح وقد استدار فجأة معبرًا عن شعور بالاستفزاز من كلام الرجل، ثم تابع: «**يرحم والديك، اهتم بشؤونك. ومن أمرك أن تأتي إلى هنا؟ هيا يا عباد الله، كلٌّ إلى عمله أو إلى شغله، لا ينقصنا حشر الأنوف، هيا**». ثم تقدم رجل، وكان في بداية الأربعينيات من العمر بشعر مجعد وبشرة سمراء، وهو يلتفت يمنة ويسرة بينما هو يتحدث:

«**كيف هذا؟ هذا ليس من شأننا؟! هذه بلدتنا والأمر يخصنا، لو كان هذا قد حدث في المدينة كان يمكن أن نقول إن الأمر يتعلق بالحكومة أو بأشخاص أخر، ولكن هذه بلدة صغيرة، ونحن أهل، وقد يتعلق الأمر بأي واحد منا يا السي رابح**».

«**اسمع يا عبد الحفيظ، لا تختلق الأعذار من أجل حشر أنفك، اهتم بحالك ودع خلق الله**» رد رابح عطية بعصبية، ثم استدار وبدأ بالهرولة يريد أن يلتحق بالموكب الذي كان قد مشى بعيدًا وانعطف حتى اختفى.

لبس عبد الحفيظ تعابير الدهشة فجأة وهو ينظر حوله يقلب الأوجه المحدقة فيه، ثم قال متسائلًا ومُسمعًا الجميع:

«**أرأيتم؟ أصبح الرجل غريبًا في منزله، ويخبرونه أن يهتم بشأنه، إن لم يكُن منزل الرجل من شأنه فما الذي هو من شأنه؟ أريد أن أفهم، يقولون هذا وهم أول من يحشر أنفه في قضايا الغير. يعني حلال عليهم وحرام علينا**». راقب زيد منظر الرجل وهو يصيح وعيناه على وشك الخروج من مقلتيهما، وقد بدا له المنظر والكلام جد مضحكين. ابتسم وبدأ يتفحص في الوجوه المحيطة بعبد الحفيظ والمؤيدة لكلامه، إلى أن اصطدمت نظراته بنظرات كهل واقف غير بعيد من عبد الحفيظ وهو يتفرس فيه، ولم يدُم الأمر طويلًا حتى تكلم الرجل بعد أن خفتت الأصوات المؤيدة لعبد الحفيظ:

«**يا بن مسعود، أنت الذي جلبت والدك من المنزل، هل أخبرك عمَّ يدور الأمر؟**»، ولم تكُن إلا لحظات قلائل حتى استوعب الجمع كلام الرجل المفاجئ ومغزاه، فتكومت النظرات على شخص زيد الذي ارتبك قليلًا وأحس بوجهه قد احمر، ولم يتفوه بكلمة وأحس وكأن السؤال هو تجرؤ من الرجل الذي أتبع سؤاله بنظرات آمرة تريد الجواب العاجل.

بيد أنه لم يرُد إلى أن تلاقت عيناه بعيني عبد القادر بوريطة، فقال هازًّا كتفيه: «**لا أدري**». ارتفعت الرؤوس قليلًا بعد أن كانت منخفضة بترقب، ثم أفاق الجميع بفرقة من الدرك وقد اقتربت من مكان النعوش، ثم خاطب ضابط منهم الجمع:

«**هيا، ممنوع الاقتراب من هنا، ولا أسئلة أيضًا، هيا يرحم والديكم، لا نريد أي مشاكل**». أجال زيد ببصره حول الجمع يريد اتباع المبادر الأول للرحيل، ولكن الجمع لم يتحرك، وخاطب شيخ كان واقفًا بجانب عبد الحفيظ الضابط:

«**يا حضرات، هذه ليست طريقة للتعامل معنا؛ في الصباح العسكر، ثم رابح عطية، والآن أنتم. نريد معرفة ما الذي يجري بالتحديد، لعل الأمر يتعلق بأي منا، لا حول ولا قوة إلا بالله، اطردونا حال إخبارنا بالأمر وسنرحل، ولكن نريد أولًا معرفة بمن يتعلق الأمر**».

«**الأمر لا يتعلق بأي منكم، هيا يا الحاج، نحن مأمورون ولا نريد أي مشاكل مثلما سبق أن قلت. والوقوف هنا يُعد الآن تجاوزًا**» رد الضابط من تحت قبعته التي علت عينيه بقليل وأبانت عن تأثر مبكر بالصيف. تحرك الجمع فجأة بعد أن اقترب منهم بعض من عناصر الدرك، وبينما كان زيد يمشي مبتعدًا عن الحشد سمع بعض المتكلمين يربطون الأمر بوالد مسعود. تحير في بادئ الأمر ثم حمل حيرته بعيدًا وهو يبتعد عن الرحبة.

لم يكَد ينعطف في الشارع الذي يحوي منزله حتى أبصر رجلًا من بعيد عند عتبة المنزل وهو يقرع الباب. ميز رءوف بن الجامع وربط مباشرة بين وظيفة رءوف في البلدية ورابح عطية، وعرف أنه أتى من طرف الأخير. وبادر رءوف على الفور بالسؤال عن وجهته، ولما أخبره أنه سيدخل المنزل طلب منه رءوف مرافقته إلى منزل رابح عطية للتكلم مع والده. لم يقل الكثير، وفكر في طريقه أن أمر النعوش بدأت تكون له علاقة مباشرة مع والده وعائلته، فانتابه الحزن

فجأة وأحس بخوف ممَّا هو آتٍ. وكان لا يزال بعض من الجمع أمام منزل الحاكم، وعلى رأسهم عبد الحفيظ والشيخ. تجاوز برفقة رءوف بن الجامع الجميع ودخلا، وعلى يسار الردهة ولجا غرفة كبيرة حوت جميع الأعيان ولكنه لم يرَ الوالي ولا أيًّا ممن أتوا معه.

تقدم رابح عطية خطوة نحو زيد، ثم أشار إليه بالجلوس على يساره، على كرسي كان هناك. ولم يلتفت لا يمنة ولا يسرة، بل بقي يحدق في يديه المضمومتين وهو يقلبهما بعضهما ببعض. وترقب أن يوجه رابح عطية له الكلام من مكانه في كنبة قابلت الباب، إلا أنه لم يفعل ذلك وبقي يقلب وجهه بين النظر إلى ساعته ثم إلى الباب والتحدث مع من هو بجانبه. فبالإضافة إلى جمال الهلالي كان هناك في الغرفة عبد السميع الصافي، وكان على يسار زيد في جبة بيضاء وعمامة صفراء، كذلك رجب صاحب مصنع الحليب في البلدة كان جالسًا على يسار رابح عطية، وعلى يمينه سليمان دلول الأمين العام للبلدية، وإليه كان رابح عطية يوجه أكثر كلامه بين الفينة والأخرى. أما رءوف بن الجامع فكان جالسًا قبالة زيد على كنبة كذلك وحده، وبدا هادئًا ولكن دون أن تزيغ عيناه كثيرًا عن رابح عطية وسليمان دلول. شعر زيد بالحيرة وأحس بالعرق يتصبب من جبهته ورقبته وصدره، ونسي أمر النعوش ولزم عقله التفكير بكيفية مآل تلك الجلسة مع أولئك القوم. وتنبه فجأة على صوت رجب وهو يتكلم بصوت مرتفع انتبه له رابح عطية فحول جسمه من سليمان إلى رجب:

«**لم أرَ يومًا أغرب من هذا اليوم في هذه البلدة، المأرب اليوم غريبة فعلًا. والله يا السي رابح كنت أشعر البارحة أن شيئًا ما سيحدث اليوم، لا أدري ولكن شعرت بهذا فعلًا، وأرجو أن تكون العواقب سليمة؛ ذلك أننا قوم سلم ولا قبل لنا بالشر، ولكن كلما تفكرت في أمر تلك النعوش برز ترقب الشر من مكمنه في داخلي، فاسودَّ كل شيء في عيني**»، تنهد رابح عطية ثم نظر إلى الساعة من جديد فالباب، ثم قال مائلًا قليلًا إلى رجب: «**الله سيحفظ، وسينسى الجميع قريبًا كل هذا، وسننتهي من هذا الإزعاج واهتمام الجميع بما ليس من شأنه، واللهِ أصبح كل من في هذه البلدة يرى لنفسه الحق في أن يعلم كل شيء، ويأمر من أجل ذلك بتنمر وعصبية! اصبر، وسيعلمون من له الحق فعلًا**». أتبع هذا الوعيد تهكم مؤيد له من هنا وهناك على سكان البلدة، وتلا ذلك موجات من الضحك انتهت بعبد السميع وهو يقص عليهم قصة ذهابه مع بعض أفراد البلدة في التسعينيات إلى رئيس البلدية وتقريعه على بعض التجاوزات والنقائص في البلدة: «**إلا أنهم سرعان ما وقفوا أمام السي حريزي حتى سكتوا فجأة وكأنهم صم بكم. وخاطبت أنا لحسن الماضوي لأنه هو كان أحدهم لسانًا وأشدهم نقدًا للسي حريزي، وطالبته بالتكلم بصفته مفوضًا عن الجماعة للكلام عنهم عند السي حريزي، خرس هو الآخر ولم يتفوه بكلمة، وتكلمت أنا بلطف مع السي حريزي فتفهم الأمر ووعدنا مع أنه فهم القصة جيدًا**»، وانخرط بعدها في ضحك طويل وجهوري اهتز له كل جسده، وضحك معه رابح عطية الذي بدت القصة وكأنها سلته وهونت وقع ما كان فيه.

بيد أن زيدًا شعر وكأنه غريب هناك، ومع تلك الغربة ما يصاحبها بشعور بالضعف وانقياد لكل ما يعترضه من أمور بين أولئك القوم. وبينما هو يقاوم ضعفه إذ نمى إليه كلام رابح عطية موجهًا إليه، فميز سؤالًا فيه ثم أمرًا:

«**هاي، يا بن مسعود، اذهب إلى الغرفة المجاورة واجلب الصينية التي هناك، ستجدها على كرسي، اجلبها وضعها على هذه الطاولة**». قام زيد فورًا من مكانه دون أن يجادل، وحالة الضعف تزداد وقد أحزنه أن يؤمر هكذا. خرج ثم عاد حاملًا صينية، وكان رابح عطية يتبادل الحديث مع رجب وعبد السميع الذي كان ينقل نظره بين رابح ورءوف. وضع زيد الصينية وهو في حالة من الارتباك والشعور بالدونية –دونية كانت مرفوضة وغير مشروعة–. أراد الانصراف إلا أنه لم يجرؤ، وظل قابعًا في الكرسي لا تكاد تند منه أي حركة. غير أنه ندت من جسمه وسوسة بعد أن سمع قرعًا على الباب ثم ارتباك رابح عطية ثم اعتدال رءوف في مكانه، ثم نمى إلى مسمعه صوت فتح الباب، ثم بعد لحظات دخل فتى بدا أنه ابن رابح عطية معلنًا أن رجلًا يريد رؤية رابح. سأل رابح عن هوية الرجل إلا أن الفتى أبدى جهلًا ثم افتراضًا بأنه غريب، ومن حينه أمر رابح بأن يدعو الرجل للدخول. ولم يعلُ وجه زيد أي تعبير لدى رؤيته للرجل سوى محاولة لتصنيفه، إلا أنها باءت بالفشل أمام هالة الغرابة والغموض السلبي التي أحاطت بالرجل؛ وكأن كل ما يوحي به لا يجب أن يثير أي اهتمام. بالرغم من هذا راح زيد يتمعن في مظهر الرجل الذي بدا في ثياب جد عادية لا توصف لا بالبسيطة ولا بالرثة وقد لبس جاكتة خفيفة مع أن الحر كان قد بدأ. ولم يتجاوز ملاحظة

شعره المكوم إلى الأمام وبشرته السمراء حتى قدر عمره بالقريب من الأربعين، ثم بدأ يترقب ما سيأتي وما سيسمعه منه. أجال الغريب ببصره حول الجمع، وكان إبصاره لزيد سريعًا، والذي لم يميز أي شيء في نظرات الرجل سوى فراغ وتفقد غريزي. ولم يبدُ على الرجل أنه سيتكلم أبدًا لولا مخاطبة رابح عطية بأن سأله: «**من أنت يا أخي؟**»، تمعن الرجل في وجه رابح لبرهة ثم قال:

«**جئت البارحة لهذه البلدة، أنا أبحث عن أخي، وفي مركز الدرك أخبروني أن أذهب إليهم في الصباح، ذهبت إلى هناك ولكن دركيًّا كان يحرس هناك أخبرني أن الضابط يمكن أن يكون هنا أو في منزل الحاكم؛ من أجل هذا أنا هنا**». لم يلتفت رابح عطية إلى أحد بينما كان الرجل يتحدث، وبدا جد مشدود لقصة الرجل فسأله بسرعة: «**ومن أخوك هذا؟ هل يقطن في البلدة؟**».

«**لا أظن، اسمه السعيد اليونسي، هو ضابط صف في الجيش، ولكن آخر مرة سمعت منه كان في ثكنة قبل الحدود المغربية**».

«**لا يوجد هنا أي شخص بهذا الاسم، ولا أعرف أي عسكري من الثكنات التي في هاته الأنحاء بهذا الاسم**»، ثم توقف برهة ثم استأنف: «**قلت لي أخبروك أن تقصدهم في مركز الدرك هذا الصباح، الضابط كان هنا، وسيرجع بعد قليل. يمكنك الجلوس هنا وانتظاره معنا**». جلس الرجل بجانب رءوف الذي تفرس فيه لبرهة، ثم نظر إلى رابح ثم إلى سليمان دلول. وساد الصمت لزمن طويل لم يُنهِه سوى طرق على الباب ثم توافد وفد جديد.

قام زيد لدى رؤيته لوالده برفقة الضابط وبعض أعوان الدرك، وأبصر شقيقه وحيدًا بجانب الضابط فلاحظ أن أريحيته المعتادة

بقامته الطويلة والعريضة كان يشوبها ارتباك بدا على وجهه المكفهر. وتنحى عن مكانه أمام الكرسي وذهب باتجاه الباب وجلس بجانبه، أما الغريب فقد تقدم إلى الضابط وذكره بقدومه إلى مركز الدرك البارحة، وأن تواجده في منزل الحاكم كان من أجل رؤيته. نزع الضابط قبعته ثم تفرس في الرجل ثم سأله أن يُذكره باسمه من جديد، فكان من الآخر أن تفوه بـ «**موسى اليونسي**». تبادل النقيب نظرات مع رقيب كان معه، ثم طلب منه أوراقه الشخصية.

«**هي ليست معي، تركتها في الغرفة أين نمت الليلة**» أجاب موسى.

«**وأين هي الغرفة؟**».

« **كنت قد استأجرتها من هذا الرجل، عمي مسعود، كان هذا البارحة، يمكنك سؤاله**». استدار الدركي فجأة ونظر إلى مسعود بن نوح، ولكن دون أن يبدو عليه أي من علامات الشك تبادل مسعود النظرات معه بوجه هادئ، استدار بعدها الضابط إلى موسى وأخبره أنه بحاجة لأن يجلبها بسرعة.

«**الغرفة ليست بعيدة، هي جزء من منزل صغير في أطراف البلدة، يمكنني أن أذهب وأجلب متاعي بسرعة من هناك. ولكن ألا يمكنني أن أعرف أي شيء عن أخي؟** »، هز الضابط رأسه بالنفي وبشفتين مزمومتين تعبيرًا عن الأسف، ثم أخبر موسى أن عليه أن يسرع. وقبل أن يصل إلى الباب خاطب رابح عطية من جديد زيدًا بنبرة آمرة أن يرافق «**السيد**» إلى غرفته لكي يجلب أوراقه. لم يُلقِ زيد أي نظرة حول الغرفة، بل انسل بسرعة خارجًا حتى وجد نفسه يمشي في الخارج تحت لهيب أشعة الشمس والرجل يسرع الخطى بجانبه.

وكان الحشد أمام منزل الحاكم رابح قد ازداد، ومع ابتعاد كلٍّ من زيد وموسى عن المنزل كانا يلحظان مرور جماعات متوجهة نحو المنزل. أبدى موسى استغرابه وختمه: «**يبدو أن هناك خطبًا ما**».

«**لا يمكن أن يكون إلا حول النعوش التي جلبوها إلى الرحبة هذا الصباح**» علق زيد دون أن يُبدي أي اهتمام ومجاراةً فقط لنسق كلام موسى. لكن الأخير أبدى اهتمامًا بالغًا، استفسر عن هذه النعوش، وبعد أن أخبره زيد بما يعلم استغرق في صمت حتى بلغا المنزل أين الغرفة التي ينام فيها موسى. كان المنزل من طابق واحد، وبدا عريضًا يتوسطه باب من خشب، وعلى يمينه دوحة كبيرة أظلت جل المنزل. أخرج موسى مفتاحًا من جيبه وحزر زيد أن والده قد أعطاه إياه، ولكنه تساءل أيضًا عن سر هذه الثقة العمياء بغريب جاء لتوه في ليلة سبقت مثل ذلك الوضع الذي بدا أنه ينبئ عن كارثة في الأفق.

ولج موسى الدار، وأراد زيد أن ينتظره أمام الباب ولكنه دخل أيضًا وصعد السلم ثم انعطف يمينًا أين سمع صوتًا، فألفى موسى في داخل غرفة. وما إن عبرا الباب إلى خارج المنزل يريدان الرجوع حتى سمع زيد صوتًا يناديه، استدار وأبصر شقيقه بديعًا، كان يكبره بثلاث سنوات، رآه وحيدًا ولكن لم يتعجب لسكنه المنزل دون منزل والده. سلم موسى على بديع وظهر أنهما على معرفة حديثة، ثم سأل بديع زيدًا عمَّا كان يفعله هناك:

«**ألم تسمع بالنعوش؟**» سأل زيد متفاجئًا، ولكن بديعًا لم يرُد وآثر الانتظار، وهو ممَّا حدا بزيد أن يشرح سبب وجوده مع تجاوزه وتجاهله لموضوع النعوش. وأحس زيد بوجود علاقة بين موضوع النعوش وشقيقه من حيث دراية بديع بما كان يجري فعلًا

دون الجميع. علا وجه بديع تعبير غريب بالاستغراق في شيء ما لا يعلم به أحد غيره، وهو ممَّا أثار شك شقيقه الأصغر. وبينما هو يتفحصه إذ ببديع يدير وجهه إلى موسى ويبدأ في مخاطبته:

«**بعض المدن والبلدات استقبلت نعوشًا هي الأخرى دون علم أهلها، ليست بالكثيرة، ربما تسعة في المجموع، ولكن يبقى الأمر مثيرًا للاهتمام**». حدق موسى برهةً في بديع لكنه لم يرُد، ولدى رؤيته لهذا استأنف بديع الذي كان مائلًا للشقرة وبطول وحيد، مع نظرات عازمة لا تخفى على من يراه: «**شيء في الأفق سيحدث، ولن يكون إلا ما هو طبيعي**»، ولم يكد يتفوه بالكلمة الأولى حتى انضم إليه شابان في مثل عمره جانباه، «**هو التاريخ يعيد نفسه، ولا شيء باقٍ، ولا بد من التقدم وتطور إلى الأمام في العقلية، أي التغيير**».

«**أجل، تغيير كل شيء، لا يمكن للإنسان أن يعيش على نسق واحد للأبد، كل عصر وإنسانه، وكل إنسان لكل عصر. مضى الماضي والمستقبل له عقليته وناسه الذين يشتركون في بعض معالم التوجه العقلاني قبل التغيير**» قال الشاب الذي كان على يسار بديع، وكان أكثر طولًا وشديد النحافة، وهو ينظر إلى جانبه متجاوزًا بديعًا والشاب الآخر إلى شيء بعيد ربما رأى فيه شبهًا بكلامه.

لم يَدرِ زيد إن كان هناك المزيد ليقال، ربما من الشاب على يمين بديع، أم أنهم قالوا كل ذلك الكلام المبهم من أجل الكلام فقط، وللتخلص من أي جو يمكن أن ينشأ من الخجل الذي ينمو بين غرباء وقفوا في مكان واحد. ولوهلة تجاوز زيد كل هذه الأفكار وقفزت فكرة سيطرت على وعيه، وهي أن مثل هذا الكلام لا يبدر عن سوى مَن هو مقبل على عمل ما، فهو يمهد وكأنه يسخن وليطرد أي شعور بالفراغ أو التردد يؤدي إلى الابتعاد عمَّا تم العزم على فعله.

«**امضِ يا زيد إلى والدي، هو ينتظرك دون شك، ليس هو فقط، هم ينتظرونكما أنت وضيفنا**». قال هذا منتشلًا زيدًا من أفكاره وبابتسام لموسى، ثم تقدم إلى الباب وأعطاهما ظهره، وفتح الباب ليدخل بعدها ويدخل معه رفيقاه.

وفي الطريق إلى منزل الحاكم سأل موسى زيدًا عن بديع وعن سنه، ولما أخبره سأل زيد هو الآخر: «**مواليد أي سنة أنت؟**». ولما أخبره انخرط زيد في حساب عمر موسى فقدر سنه بخمس وثلاثين سنة، رغم أنه كان يبدو قريبًا من الأربعين ولكن في لياقة جيدة. انخرطا في محادثة جديدة عن البلدة ثم توقفا عن الكلام فجأة وساد الصمت بينهما، وفي أثناء مشيهما أبصر زيد شخصًا آخر من عائلته، وهي شقيقته منال، رآها مسرعة وقد بدت في شبه بديع ولكنه كان شبه أشقاء. تابعها بعينيه طول الممر المقابل إلى أن انعطفت في شارع أيمن وضيق يؤدي إلى مدرسة ثانوية وكأنها شعرت بأحد ما يراقبها. تعجب من حال عائلته في ذلك اليوم ثم بدأ بالتساؤل عمَّا كانت تفعله أمه إلى أن وجد نفسه في الحشد أمام منزل رابح عطية.

لم يشأ زيد الدخول، وأخبر موسى أن عليه أن يرحل من هناك. لم يستدر للخلف وهو يبتعد عن المكان، ولم يحس إلا بالجلبة ولكنها كانت تخفت كلما ابتعد أكثر. أما وجهته فكانت المنزل، بيد أنه توقف في الطريق الكبيرة لدى رؤيته لوالده وهو يقطع الطريق باتجاه المسجد. لحقه بسرعة، ثم لدى توقف والده لرؤيته انضم إليهما صديق والده زين العابدين وهو يلهث وأنفاسه تكاد تنقطع. وضع ذراعه بعد أن سلم تحت ذراع مسعود الأيسر، ومشيا وزين العابدين يهمس في أذن مسعود من بعيد، فهم زيد بعضًا منه. لم

يبصر زيد ملامح وجه والده جيدًا؛ ذلك أن زين العابدين كان يمشي بينهما وكان لا يزال يهمس وزيد يميز:

«**هذه مشيئة الله، ولا تحفل بكلام أحد، هي مجرد أقاويل، أنت تعلم السبب وما إلى ذلك. ثم إن الناس يحبون الكلام والتنظير ثم الخروج بنتائج لا تكون إلا فضائح في الذي تقال فيه. ثم إنه -تبارك الله- لديك من الحكمة التي تتيح لك التجلد أين لا يستطيع حتى أقوى الناس عزيمةً التجلد. كما أنك إنسان مؤمن، والمؤمن لا يخيب ظنه بخالقه وخصوصًا في النوائب. هي نائبة يا أخي مسعود، أي نعم، وكل شيء زائل**». انتصبت أذنا زيد لسماع كل هذا الكلام باهتمام بالغ، ثم ازداد هذا الاهتمام وبلغ الفضول والترقب دون أن ينظر إلى والده وهو في انتظار جوابه الذي لم يحد عن موافقة كلام زين العابدين وإيكال أمره إلى الله. توقف بعدها الرجلان ولم يشَأِ زيد أن يقف معهما لتفادي أي إحراج، فدخل إلى المسجد، ولم يكد يخرج من المائضة حتى أبصر والده من جديد متجهًا إلى مقدمة المسجد. وبعد أن خرج من المسجد وهو يشعر ببعض السكون، انتبه إلى جماعة كبيرة في دائرة في باحة المسجد وهم يتحدثون بأصوات عالية، ولم يغِب عنه بعد انضمامه لذلك الجمع الشيخ وعبد الحفيظ، وقد بدا له أنهما هجرا أخيرًا المكان المقابل لمنزل رابح عطية. وكان أحدهم يتكلم بصوت جهوري كاد يهز الباحة وجعل جميع المارين ينظرون إليه. أما حديثه فلم يكُن إلا عن النعوش ورابح عطية، إلا أن زيدًا تفاجأ لسماعه اسم والده وقبله اسم آخر لم يميزه لشروده، قدر أنه اسمه هو أو أحد إخوته. أما جميع من كان واقفًا فقد بدا وكأنه محرج ومرتبك ومتردد بين قبول أو رفض كلام مصطفى بن عدي الذي كان يصيح:

«الأمر يجب أن يتوقف عند هذا الحد، يمكننا سؤال أي إمام وسيخبركم أن هذا لا يجوز. يعني تعالوا نحسبها بالعقل فقط: الإنسان مثلًا عندما يريد أن يزكي؛ يزكي على المسلم أم على الكافر؟ وفي الجيرة؛ يجاور المسلم أم الكافر؟ كذلك هو الأمر في الموتى؛ المسلمون مع المسلمين، والكفار مع الكفار، اذهبوا بهم إلى أي جبانة يهود أو نصارى وادفنوهم هناك».

«ما هذا الكلام يا السي محمد؟ ومن أنت لتقول من هو مسلم ومن هو كافر؟ ومن خولك أمر الإفتاء؟».

«اسمع يا عمي الفاهم، أنت دائمًا تريد فرض آرائك، ويا لها من أراء! واليوم لا رأي ضد شرع الله، وإن كنت تريد يا حميد بصيري التفلسف فغادر بيت الله وألقِ سمومك في أي مكان آخر شئت، ولكن ليس هنا».

«آه، أراك أبديت حقيقتك يا مصطفى ولم تغادر طيشك، وتريد الفوضى من جديد. أنت لست في معسكر ولا في حالة طوارئ، ولست مفتي الديار. هؤلاء موتى، مهما كان الظرف الذي ماتوا فيه فسيُدفنون مع أجدادهم أو في أي مكان ارتأته عائلاتهم».

رد حميد بصري وقد بدأ زيد يفهم القصة، وكانت عيناه لا تفارقان حميدًا وهو يخاطب مصطفى بن عدي وهو يرُد عليه:

«لا تثر المتاعب يا مصطفى، أهل الميت لهم ما يكفي ليشغلهم، والآن تريد أن تثقل على كواهلهم بعبثك وكلامك المجنون؟».

«**أتسمي الكلام عن شرع الله جنونًا؟ إنك فعلًا قد أبقت من طاعة الله، ومثلك مثل الذي لا يحكم بما أنزل الله تمامًا، فأنتم الظالمون، والفاسقون، والكافرون**». تعالت صيحات الاستنكار من هنا وهناك، وراقب زيد ممن كانت تأتي. أما عبد الحفيظ والشيخ الذي جانبه فبقيا صامتين، وكذلك بعض الملتحين هنا وهناك، وجلهم كان ينظر إلى الأرض، أما البعض الآخر فكان يقلب النظر بين مصطفى بن عدي وحميد. الأخير رحل مهرولًا ومشت وراءه جماعة من أغلب من كانوا واقفين في باحة المسجد، وكان يتوعد، أما مصطفى فلم يبقَ معه سوى الفضوليين ممن لم يجذبهم في الأمر سوى معرفة ما يحدث وما يقع بين المتشاجرين. وكذلك زيد لم يُطل الوقوف في الباحة وخرج إلى أن وجد حميدًا ومن معه واقفين في الساحة أمام المسجد. استولى عليه الفضول بعد أن علم أن الأمر يتعلق بعائلته، فتقدم للجمع وخوف شديد يعتريه، وبعد أن تقدم ما يكفي لسماع كلام حميد، ميز كلام الأخير وهو يقول:

«**هذا نذير بما هو آتٍ، أنا أعرفه ولا يمكن أن يكون وحده في كل هذا، هو وأمثاله يتفقون على الشر دون حتى أن يتقدم تفاهم أو تخطيط بينهم، نفوسهم المريضة تنجذب بسهولة لكل ما هو شر. وتمعن فقط في هذا الذي استحدثوه، مقابر المسلمين، وهؤلاء ليسوا مسلمين. يعني كلام لا يندر إلا من أبالسة ليُغرقوا المساكين في مشاكل لا قبل لهم بها، ويجنوا هم فائدة لا يمكن أن يرضى بها سوى المرضى مثلهم**». وأقبل وافدون جدد وهم يتساءلون عن سبب كل ذلك الصراخ في باحة المسجد وفي الساحة في الخارج. واستغل زيد فرصة تساؤل أحد هؤلاء الوافدين داخل الحشد وهو يستفسر

عن الأمر من صديق له، فدرى زيد أن أحد إخوته كان صاحب أحد النعوش، ومباشرةً فكر في شقيقه الأكبر أسامة؛ ذلك أن شروح الرجال في الحشد للمستفسرين كانت تؤكد هذه الفكرة. انقبض قلبه وشعر بثقل في صدره اختزل كل الخوف والهلع وغدا منهل التحكم في باقي الجوارح، ثم أدرك أن الكثير من العيون كانت تحدق فيه، ورغم وقوف الحشد في مكان ظليل تحت أغصان شجر باسقة فإنه كان يتصبب عرقًا، وفكر في والدته وفي أنه سينتظرهم الكثير من محاولة للتعود على فراغ طارئ وأبدي. وحاول التركيز في ما كان يخوض فيه القوم من حديث، إلا أنه لم يستطع ولم يُثِر اهتمامه ويجذب تركيزه سوى أصوات جهورية جاءت من جانب مدخل المسجد. استدار الجميع وأبصر زيد مصطفى بن عدي وقد تجمع حوله الكثير من الملتحين بالإضافة إلى آخرين بدوا فضوليين، ولكن بدت على تقسيمات وجوههم أمارات الغضب والعزم على تطبيق ما قد أوغل في صدورهم من أفكار معينة. وكان مصطفى بن عدي لا يزال يتكلم بصوته الخشن والغاضب، وكان يحتج بحجج جديدة تحمس من طريق إثارة بعض العواطف واستجداء التأييد بالإشارة إلى الانتماء:

«**ومصلحة الشرع هي مصلحتنا، ربي أراد هذا، أنرفض إرادة الله؟ وأنا على يقين أن هؤلاء لن يُدفنوا بين أمواتنا أين سنلحقهم ونحاسب على مثل هذه الفعلة. لن يكون الأمر وهناك في هذه البلدة العريقة من له غيرة على دينه وأجداده**». وكان أن سكتت باقي الأصوات، وأدرك زيد أن حميدًا كان قد رحل مع جمع آخر جنوبًا، قدر أنه باتجاه منزل الحاكم رابح عِطية. وكذلك كان الأمر بالنسبة لجماعة مصطفى بن عدي، لم تكد تدرك رحيل جماعة

حميد حتى أيقنت بلزوم الذهاب إلى منزل الحاكم «**لمنع أي جرائم من أن تُرتكب في حق الله**»، صاح أحد الملتحين بجانب مصطفى ثم أسرع الجمع في الخطى متجاوزين زيدًا وقد عرفه البعض منهم، فكان أن ندت منهم نظرات تحدٍّ وعزم على المواجهة قد تتبلور في أي احتكاك مع شخص زيد. اكتفى بالنظر إليهم، ولم يَدرِ إن كان عليه أن يتبعهم أم لا، وبعد لأي آثر انتظار اختفائهم وابتعادهم عن المكان ثم ذهابه من شارع آخر. وذلك ما فعله، وكان قد تبعه بعض من الشباب كان منهم أحد أصدقائه عبد العزيز، إلا أنهما لم يتبادلا الكثير من الكلام، بل اكتفيا بالمشي سريعًا حتى بلغا مكانًا اكتظ أوله إلى غاية باب منزل رابح عطية. كان لغط الحشد جد عالٍ، ولم يستطع زيد أن يميز أي شيء ممَّا كان يحدث، ففضل الرجوع إلى الوراء قليلًا والاستكفاء من أشعة الشمس تحت حائط جانبي لشارع مقابل لمنزل رابح عطية تمامًا. وكانت مفاجأة كبيرة لزيد لما اقترب منه أحد جيرانه –خالد بلعامر– وبدأ بتعزيته معظمًا له أجره، حرك زيد شفتيه ثم جلس على ركبتيه متكئًا على الحائط وهو يفكر أن الأمر يتعلق بموت شقيقه أسامة، وأنه لم يكُن يجدر به الجلوس هناك، إلا أن فكرة الدفن والجبانة رجعت لتشغله، ثم انتبه على صوت خالد وهو يكلمه:

«**تعلم يا زيد أن أخاك أسامة كان قد هاتفني منذ شهر، أنا أعلم أنه لم يخرج في عطلة من الثكنة منذ ستة أشهر، ولكن صوته بدا مبتهجًا وتكلمنا حول أمور عديدة، ولكنني استشففت من كلامه رغبة في أن يخبرني بشيء أو أن يطلب شيئًا ما**». اكتفى زيد بالنظر إلى الأرض وهو يصغي لكلام خالد، وكانت ضجة الحشد قد علت

أكثر، وكان هناك صياح وهتاف، فقام من مكانه فجأة وأبصر رابح عطية مع بعض من جماعته وهم عند عتبة الباب، وأبصر كذلك شقيقه وحيدًا وقد خرج تمامًا ووقف بين كل من رابح عطية ومقدمة الجمع. جال ببصره حول الحشد فبدا له جد كبير وقد ملأ شارعين، وحدس أن حتى شمس الهجير لم تكُن لتثنيهم عمَّا قد عزموا عليه من تغليب الفئة التي احتوى عليها الصراع.

«**يا لهم من بغضاء، هذا المصطفى بن عدي ومن معه من أصحاب اللحى! يريدون الفوضى فقط وإيذاء الناس، هم منافقون، لو كان الأمر بيدي لاستأصلتهم واحدًا واحدًا. سمعوا جملة الخيانة العظمى ضد الوطن والدين فأولوها وهم الآن يذودون كما يزعمون عن الدين. ثم ما أدرانا أن هذا الكلام صحيح؟ فقط لأن البعض قال هذا الكلام أو أي جهة حتى لو كانت من الدولة فهو كلام صحيح؟! هذا النظام هو أكبر عدو للوطن**».

«**ولمَ قد يكذب من قال هذا الكلام أو تكذب أي جهة حكومية عن هذا الأمر؟**» تساءل أحد الواقفين بجانب خالد بلعامر ثانيًا ذراعيه عند صدره. بدت النبرة مستفزة وصاحبها غير مبالٍ بما قد يُحدِثه كلامه على شخص يعنيه الأمر مباشرة مثل زيد.

«**يعني هي شماتة، الآن الدولة جيدة لأنها نالت من أحد، وماذا فعل لكم أسامة أو غيره؟ عقيدتكم هي الحسد والشماتة والكره**» رد خالد بحنق، وبدا أن كلماته قد أصابت نقطة حساسة، فاعترض الرجل ثم خاطب رجلين أمامه، وانخرطوا في نقد وتبرير لم يعبأ له خالد الذي طلب من زيد أن يرحلا من المكان، فقام زيد ومشى بعيدًا برفقة خالد. وكان أن شعر زيد بالحيرة بعد أن تجمعت

شذرات ممَّا حدث إلى ذلك الوقت في عقله، لم يَدرِ ما مرد تلك العدوانية التي وجد نفسه وعائلته وعلى رأسهم أسامة هدفًا لها، ولا كيفية تفسيرها، وهَمَّ أن يكلم خالدًا عنها بأن يسأله عن كل ما يقال، إلا أنه أحجم وفضل الصمت وانتظار ما سيحدث بعد ذلك. أما ذلك الشعور الجاثم على صدره بالضيق والتوجس والهلع ممَّا هو آتٍ فلم يفارقه، ولم يجد ما يتحدث عنه مع خالد، وما هي إلا لحظاتٌ حتى كان يمشي وحيدًا متوجهًا نحو منزله دون أن ينتبه لذلك. وزاد الهلع بعد أن سمع صوت والدته وهي تكلم شقيقته الصغرى سهام، واستطاع أن يميز نبرة الاستعداد للخروج ممزوجة مع البكاء. أسرعت إليه كلتاهما بعد رؤيته وهو يدخل إلى المطبخ، شرب الماء ثم سألتاه عن والده وشقيقه وحيد، أجاب بأنه لا يدري أين هما، وهنا حدقتا فيه تنتظران منه أن يستأنف كلامه ويزيد على ما أخبرهما به. لم يفعل أيًّا من ذلك، بل ذهب إلى غرفة الضيوف واستلقى على سرير كان هناك. لحقتاه ثم سألت والدته عمَّا به، رد بـ «**لا شيء**»، وبعد أن وقفت بجانبه لمدة من الزمن لم تكُن بالقصيرة وهو يحس بتحديقها فيه، مضت هي وسهام خارج الغرفة وأغلقتا الباب وراءهما. وتناوبت سلسلة من الصور والأحداث تلعب في مخيلته، فلم يَدرِ أكان نائمًا أم أنه كان يفيق من غفوة في كل مرة يتساءل عن ذلك. وبدا له وكأنه كان قد توجس حدوث كل هذا في أحد أحلامه في الماضي، وفكر في أنه لم يفكر في شخص أسامة إلى حد تلك اللحظة، ففكر في ذلك وأدرك أن شقيقه لم يعد بينهم ولن يكون له أي وجود من الآن فصاعدًا، أعجزه تذكر ذلك ورأى أنه أمر لا بد منه، أما الذكرى فأثارت لوعة حارقة في صدره اندثر بعدها كل ما كان يشغله منذ

لحظات. ولسبب ما اعتقد أن هذا لم يكُن سوى تمهيد لما هو آتٍ، استغرب هذه الفكرة إلا أنه لم يستطع أن يرُدها بأي حجة معارضة، لكن منطقية الفكرة التي بدت أنها تحتوي على حجج دامغة جعلته يرضخ لها رغم إرادته. ثم فكر في الموت، فكان أن تخيل جثثًا هامدة وقبورًا علتها كومات التراب، وتخيل نفسه في مكان مشابه وكأن شخصًا يناديه، ويتبع ذلك طرق حاول معه اتباع أثره لاقتفاء الباب. فانتبه من نومه بوعي معتم تذكر بعده أين كان، ثم أدرك أن هناك من كان يقرع فعلًا على باب الدار. تردد في أول الأمر، لكنه قام بعد ذلك ومضى ليغتسل سريعًا ثم إلى فتح الباب، وعند العتبة كان موسى اليونسي واقفًا وقد استقبله بنظرات ترقب واتكال خفي.

«**آسف، يبدو أنك كنت نائمًا، جئت فقط لأسأل مساعدتك**»

حرك موسى شفتيه بسرعة جعلت زيدًا يركز ويستفسر عن ذلك الذي يريده موسى.

«**لا أدري إن كنت تعلم، ولكن أحد أصحاب النعوش هو شقيقي، اسمه سعيد، أريدك أن ترافقني لنحمل النعش؛ ذلك أن الدرك وافقوا على أن أتولى مسؤولية الجثة والدفن بعد أن أكملت كل الإجراءات اللازمة. لا أعرف هنا أحدًا غيرك، يعني من يمكن أن أطلب مساعدته. أعرف أنه لديك ما يشغلك، ولكن لن يأخذ الأمر وقتًا طويلًا**». وافق زيد مباشرة ثم انطلق مشيًا مع موسى يريد مساعدته. بدا له منظر موسى جد محزن؛ ذلك أنه غريب، فظهر كأنه قد لاقى رفضًا أو حتى رفضًا للسؤال نفسه عن المساعدة.

«**يبدو الأمر جد غريب، هل فعلًا منعوك من دفن الجثة في المقابر؟**».

«**ليس أنا فقط، بل جثة أخيك أيضًا، كان اقتراح والدك بأن ندرأ المشاكل ولا ندفنهم هناك، حدث هرج كبير، ورفض البعض أن ندفنهم في الجبانة عندكم هنا. هذا أغرب أمر سمعته في حياتي، لا يزالون أمام منزل الحاكم، والدك أيضًا معهم، أرونا صور الجثتين وتعرفت على أخي، وتعرف والدك على ابنه. أما الجثة الثالثة فلا يُعرف صاحبها إلى حد الآن، ظنوا أن الميت ينتمي إلى هذه البلدة. على العموم لا أدري أين سآخذ النعش، ولكن سأسأل والدك إن كان بالاستطاعة أن آخذه بالقرب من منزلكم في ضاحية البلدة إلى أن أجد جبانة أدفنه فيها**». وافق زيد مباشرة، ثم أسرع الخطى وهو يفكر في موضوع النعوش وكيف أن الأمر قد تطور سريعًا. وعند بلوغهما الساحة ألفوا حشدًا كان منغمسًا في الحديث مع مسعود بن نوح وابنه وحيد وهما على وشك حمل نعش توسط نعشين آخرين. كان بعض الدرك لا يزالون محيطين بالمكان، وما إن بلغ زيد مكان أبيه وهو يمسك بمقبض جانبي للنعش وظهره منحنٍ حتى أراد أن يأخذ المقبض، فاستدار له والده وابتسم ابتسامة سريعةً لم يجد معها زيد سوى إخباره بخبر موسى مع نعش أخيه.

«**اطلب منه أن يأتي به إلى الأرض وراء المنزل عندنا في العريبات. سندفنهما هناك معًا**»، سمع موسى كلام مسعود، فقال بامتنان شديد وتأثر: «**بارك الله فيك، الله يحفظك**». أثر هذا الكلام في زيد ورأى أن الرجل لم يكُن يعوزه بعض من العسر وحتى البؤس في جاكتته تلك ولحيته الكثيفة، إلا أنه استشف في مقابل ذلك قدرة على المواجهة والتجلد بدت له تعزية وحتى تشجيعًا له. ورُفع النعشان معًا، ورأى زيد أنه باستثناء والده ووحيد وموسى وأربعة

آخرين حملوا معهم النعشين، فإن الجميع في الساحة وفي الطريق إلى أرضهم اكتفوا بالتحديق وبمراقبة العائلة والغريب وأصحاب العون وهم ينقلون الميتين إلى المأوى الأخير. أغاظ هذا المنظر وحيدًا فأبدى تذمرًا ورمى الواقفين بأسماء مثل «**لئام**» و«كلاب»، إلا أن والده نهره فارعوى.

ولدى بلوغهم أرضهم في العريبات كان التعب قد بلغ منهم كل مبلغ، وخرج بديع من المنزل، راقب منظر النعشين فوق الأكتاف ثم انضم إلى والده وأخذ عنه مكانه، بينما وقف صديقاه يحدقان أيضًا. طلب مسعود من الحاملين أن يتجهوا إلى وراء المنزل عبر ممر جانبي حاذى المنزل، وعند نخلتين وضع الحاملون النعشين وجلس من جلس، واستلقى على الأرض وحيد لأخذ أنفاسه. لم يتكلموا كثيرًا، ولم يرحل أيٌّ من الأربعة أصحاب العون، واختفى بديع ثم رجع وهو يحمل مجرفتين وفأسين للحفر، وراحوا مباشرة في الحفر يتناوبون عليه إلى أن كتمت أشعة الشمس دون أن تغرب آذنةً بقرب المغرب. وبعد أن انتهوا وقبل دفنهم، توضؤوا ثم صلوا عليهما باستثناء بديع، وبعد أن راقبوا النعشين لزمن راوح ربع الساعة أنزلوا كل نعش إلى حفرة، ثم ردموهما بالتراب إيذانًا باستمرار أبدية غامضة بالنسبة لزيد.

رافق بديع زيدًا ووحيدًا ووالدهم الذي بدا مبتهجًا رغم تلك الظروف الغريبة، تكلم عن رحمة الله وأن الأمن والقوة هما في اتصال الإنسان بالكون من طريق خالقه، لم يتفوه وحيد بكلمة، وبدا متذمرًا. وبينما هم كذلك يمشون ومسعود يتكلم إذ أقبل شاب يجري نحوهم، فتعرف زيد على أيمن بن عبد الناصر الشاذلي جارهم وهو

يصرخ بأن زوجة مسعود ووالدة زيد ووحيد قد نقلوها إلى المستشفى وأنها جد مريضة. ركض وحيد من فوره وهلع زيد لكنه أكمل سيره مع والده وإن بسرعة بينما تابع مسعود:

«**هي مشيئة شاءت فأعطت وشاءت فأخذت، لا مبدل لتصريفها أبدًا**»، واستغرب زيد من تلك المشيئة وتساءل عن ذلك الذي أعطت وما أخذت، وتساءل كذلك عن كل ذلك الذي حدث في ذلك اليوم، إلا أنه انقاد لفكرة ما ينتظرهما، ومشيا حتى لفَّهما الظلام إذ ولجا شارعًا ضيقًا، وسمع مسعودًا وهو يتمتم دون توقف بدا إلى زمن آخر بعيد.

اكتظ الشارع الرئيسي للسوق الأسبوعي «**الأربعاء**» بالمأرب. وكان محاذيًا تمامًا لمحلات السوق المغطاة، إلا أنه كان أكبر ورواده أكثر. وكان على طوله الملتوي مرة يمنة ومرة يسرة إلى منعطف يؤدي إلى شارع آخر، منقسمًا إلى باعة مختلفين يجتمعون كل على حسب ما يبيع. وعند الجزء أين وضعت طاولات مكومة فوقها الألبسة، وعند إحدى هذه الطاولات، وقف منير مخلص وهو يتفقد قميصًا يقلبه ثم يضعه ويرفع آخر، ولم يستطع أن يحجم عن تفقد ذلك الذي رفع قميصًا من القمصان التي وضعها لتوه، فكان أن تعرف على خير الدين باسط، فداعبه حول القميص لكي يلفت انتباهه، فكان من الآخر أن تعرف عليه، ثم سلما على بعضهما البعض بعد أن وضعا ما كان في أيديهما. وقفا قليلًا عند نفس الطاولة ثم تحركا وبدآ بالمشي، وبعد أن سأل كلٌّ عن حال الآخر قال خير الدين باسط:

«**يبدو أن الوضع لا يعجب، لا أدري كيف هو بالنسبة لكم، ولكن هنا في البلدية أقول لك إن الأمور ساءت كثيرًا. يعني مع رابح عطية لا يمكن أن يكون هناك أي تحسن، بل الرجوع إلى الوراء فقط**».

«**ليس في البلدية فقط، وهل تظن أن الأمور في الولاية أحسن؟ بل هي أسوأ، والفوضى هناك لا يمكن أن تضاهيها أي فوضى يمكن أن تحدث هنا في البلدية. بصراحة المرء لولا خوفه من الله لكان انجر مع أصحاب الفساد**». كان الاثنان قد مشيا نحو جزء تجمعت فيه الأواني والآلات الكهرومنزلية، وتوغلا بعيدًا حتى ألفيا نفسيهما يتخطيان خردوات هنا وهناك بدا أنها جُمعت من قمامة ووُضعت هناك، فقفلا راجعين واستدارا ودخلا جزء المحلات. وكان منير مخلص لا يزال يحدث خير الدين بصوت حذر:

«**ولكن لأصدقك القول يا خير الدين، فالأمر آيل للزوال، نعم، لن يطول الأمر حتى ترى هذا الشعب وقد نهض يطالب بحقوقه، هذا حدث في أزمنة مختلفة وسيحدث مجددًا. ولكن أرجو أن تمر الأمور بسلام وتتحسن الأوضاع**». التفت خير الدين إلى منير وصب نحوه نظرة جعلت كليهما يتوقفان، وبعد أن أمعن خير الدين النظر في بعض معالم وجه منير التي استقرت على نظرة داخلية وهو ينظر من وراء نظارته وقد بدت لحيته المقلمة والكاملة، وقد بدا الشيب على الجزأين أسفل الخدين، بأنها مستوحاة من منظر نمطي لمن شاكله في التفكير، وتكلم بصوت شبه خافت:

«**إذًا أفهم من كلامك أنه يمكن أن يتغير هذا النظام ويأتي بدله نظام آخر؟**». لم يجب منير بأي كلمة وتابع مشيه.

وأمام محل بقالة علت من عند مدخله أصوات جدال، توقفا ثم اقتربا وقد بدا أن الفضول قد استحوذ عليهما كليًّا. لم يرُد عليهما أحد السلام، وكان هناك شابان وصاحب المحل عامر الماضوي وجمال الهلالي إضافة إلى إمام المسجد محمد الحملاوي الذي كان

يحمل كيسًا أمام صناديق خضر ولكنه بدا منغمسًا مع الشابين وقد احمر وجهه. أما موضوع الجدال فلم يكُن واضحًا وبدا معجمًا على الوافدين الجدد، بينما طرف الحديث كان لدى أحد هذين الشابين وكان طويلًا بقميص أبيض وسروال قصير نم عن عسر وليس سوء ذوق، وبدا متظاهرًا بالهدوء رغم أمارات الرغبة في الإقناع والتعبير عمَّا كان في خضم نقله إلى مستمعيه وخصوصًا محمد الحملاوي الذي ظهر تركيزه بوضوح. وكان من جملة ما استمع إليه الإمام والحاضرون من ذلك الشاب حديثه عن الصوم:

«**نعم لست ملزمًا بالصوم، هذه أمور عفا عليها الزمان، ثم هي من الناحية الطبية جد مضرة، يعني ما فائدة تجويع الجسم طول النهار ثم محاولة تعويض ذلك في الليل؟ وما هي الحكمة من كل ذلك؟ أهي نبذ النعيم والتركيز على حياة أخرى غير موجودة أصلًا؟ أم ماذا؟ لا أدري، حتى عند الوثنيين القدامى كانت هذه الاعتقادات منبوذة وغير موجودة، كما أنها تتناقض مع العقلانية السليمة**».

«**ما هذا الهراء؟ إذًا الله كان مخطئًا عندما فرض علينا الصوم؟! ثم إن الصوم أحد أركان الدين، إن تركته لم يبقَ لك الكثير من دينك**» قال الشيخ محمد، وكان عامر الماضوي قد قام ممَّا كان منشغلًا به، وتقدم وهو يحمل كيسًا إلى أين كان الشاب والشيخ محمد، أما منير مخلص وخير الدين فقابلا عامرًا وجانبا الشابين والشيخ محمدًا.

«**نحن في زمن لا سلطة فيه إلا للعقل، وإذا خالفت العقائد أيًّا من المسلمات العقلية فهي تُعد باطلة ولا يجب الأخذ بها. ودليل توافق أي شيء مع العقل هو مدى مساهمته أو إعاقته للتطور البشري في الطريق نحو اكتشاف العالم والتحسين من حياة الإنسان**».

«**الإنسان لا يمكن أن يكون سعيدًا إلا بالعقل، وحتى ديننا كان قد ساهم في التطور البشري على مر أزمنة مختلفة**» رد الشيخ محمد الذي بدا عليه الانغماس مع الشاب الذي لم يفارقه عزمه على محو كل ما ظنه سخافات في عقائد الناس كان أمثال الشيخ يرسخونها ويثبتونها في العقول: «**كان، والآن انتهت مهمته، كلٌّ لديه الحق في أن يؤمن بما شاء، ولكن في الحدود الشخصية، ولا يجب على أحد أن يفرض على الآخرين ما يريد أن يؤمن به؛ لأن موضوع الإيمان هذا هو نسبي، أما المسلمات العقلية فهي مطلقة ومنطبقة مع الطبيعة. هذا يعرفه الجميع، ولكن التركيز على هذه الأمور والاستناد على الخرافات له بواعث نفسية ومادية واجتماعية**». حدق الجميع فيه، وبدا الشيخ وكأنه يتفحصه جيدًا، ولم يبدُ على أحد أنه يعبأ بالحرارة التي علت لتوها مع قرب الظهيرة. ولما لم يُجب أحد قال الشاب الثاني الذي كان على عكس صديقه قصيرًا وبياضه يوحي بشيء جديد قد ينبئه تفكيره:

«**الأمر لا يجب أن يكون على حسب الأهواء، بل المنطق والعقل يجب أن يفرض على الجميع، انظر إلى كل الثورات التي حدثت في العالم والتي بسببها تغير التفكير البشري في نقطة معينة ثم تطور؛ كلها كانت من طريق عمل حركي ممنهج غيَّر العقليات مثلما حدث مع ثورة الإسلام وثورة العبيد في روما والثورة الفرنسية**».

«**الإسلام غيَّر ولا يزال يغيِّر، والتطور الذي تتحدث عنه هو غير أخلاقي، وكل ما هو ليس أخلاقيًّا فهو غير دائم ويؤدي إلى الفساد وينتهي بالزوال**».

«**الأخلاق ليست حكرًا على الدين**» رد الشاب الأول الذي بدا أن تفكيره مختلف عن تفكير الشاب الثاني وإن اتفقا على معارضة شيء واحد، ثم استأنف بعد أن تذوق أثر كلماته في مستمعيه وفيه قبلهم: «**ونحن نرى جيدًا أن اختلاف الأديان في البلد الواحد يؤدي إلى فوضى، حتى الدين الواحد له طوائف متناحرة فيما بينها، ونرى أن الكثير منهم لا يعبؤون بالالتزامات الأخلاقية، وما يمليه الدين ليس أخلاقًا بقدر ما هو تقييد من طريق الترهيب**».

«**الدين يسر وليس عسرًا، والله قد أباح الكثير من الطيبات، وللإنسان أن يعيش ويتمتع ما بدا له ما لم يتعارض هذا مع شرع الله؛ لأنه نعمة لهم، وبإمكان كل من يدرك ذلك الشعور بالسعادة والطمأنينة**» رد الشيخ بحنق دون أن يذهب عنه أيٌّ من الذهول الذي أصابه من سماعه للشابين، وكانت نظراته تعطي انطباعًا بهالة من الجو العكر وبشعور وكأن المحظور قد وقع وأن العاقبة ستكون وخيمة ليس فقط على المتكلمين بل على السامعين أيضًا. لمح منير مخلص أن خير الدين كان قد تراجع ودخل إلى أين علت صناديق من الفواكه، وكان جمال الهلالي جالسًا على كرسي بجانب المدخل، أما عامر فكان يحدق في الشاب الأول وقد علته الحيرة حول الكيفية التي يجب أن ينظر بها إلى ذلك الشاب أو كيف يصنف ويحكم على كلامه، فنظر إلى الشيخ الذي استبدل بذهوله غضبًا، ثم انتبه على صوت منير مخلص وهو يسأل الشاب: «**ابن من أنت؟**». التفت الشاب إليه وأمعن النظر فيه دون أن يمحص هيئته ثم أجاب: «**اسمي رضا القادري**».

«**أنت إذًا ابن لخضر القادري البناء؟**» سأل جمال الهلالي بسرعة، فأجاب رضا بالإيجاب وكان واضحًا شعوره بالاستفزاز من إلحاق جمال الهلالي لمهنة والده إلى اسمه. نظر إلى جمال الهلالي بغضب سلى الأخير، ثم سأل منير الشاب الثاني، «**أنا عبد القادر عمير ووالدي سمير، وهو حارس في البلدية**» أجاب عبد القادر بتحدٍّ لم يعجب جمال الهلالي على الإطلاق، ولكنه ابتسم باحتقار ثم تكلم قائلًا:

«**يعني في نظركم، يجب أن ننتهي من كل هذه الأمور والعادات التي تعدونها ترهات، والالتفات لما يفعله شعب آخر في مكان آخر من هذا العالم لهم تاريخهم الخاص وتقاليدهم، ثم الإذعان لكل ما يفعلون وما يملونه علينا، أي إنهم تطوروا ونحن تقليدنا لهم سيكون تطورنا؟**».

«**أي تطور تتحدث عنه؟ هؤلاء ينكرون وجود الله كليًّا وأنت ركزت مع هذه النقطة؟ هذا أمر جديد وجد خطير**». قاطع الشيخ محمد جمال الهلالي الذي خفض رأسه قليلًا ثم نظر بعيدًا ثم نظر إلى الشيخ من جديد وقد بدا عليه أنه أيقن من صحة كلام الشيخ.

«**أمر الدين منوط بكل شخص، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ثم إن هذه الأمور لا تأتي إلا في الظروف الاجتماعية الصعبة؛ يعني لما كانت بلادنا والبلدان التي مثلها في مشاكل والشعوب تتلوى تحت براثن الظلم كان الملاذ الوحيد والسلوى التي تساعد على مواصلة العيش وحفظ النوع هو الدين، أما الآن فالعلم والديمقراطية قد ضمنا لنا هذا، وكل تعدٍّ من دولة على دولة يُواجَه بالمرصاد. ولكن هذه الديمقراطية لا تزال ناقصة جدًّا عندنا، وهو ما يجب أن نحيط به**».

«هذا لا يجب أن يكون إلا من خلال ثورة يقودها الشباب، تنتهي بقلع جذور الفساد والتخلص من هذا النظام الفاسد. ومع كل هذا سنتخلص من الخرافات من طريق تعليم منظم ومعمم ينقذ الأجيال القادمة». تدخل عبد القادر بنبرة وترتيب بعد كلام رضا مخلفًا انطباعًا بأنه يعرض الجانب العملي من تفكير الشابين.

كان المكان قد وفد إليه بعض من المارين ممن أثار فضولهم الجدال والمنظر الغريب لذلك الجمع، وكذلك بعض المشترين الذي أُنسوا ما جاءوا من أجله وأصغوا بانتباه للحديث الذي كان يدور هناك. وكان من بين الوافدين رءوف بن الجامع، ورأى بعد أن سمع بعضًا من كلام الشابين أنهما قد بطرا بعد كل ما قالاه والمعارضة القليلة التي واجهاها والتي بدت لهما علامة على ضعف معارضيهما وقوة حججهما. تقدم بجانب منير مخلص لكي يسمع جيدًا ما كان يقوله الأخير بهدوء ورصانة لم يرَ فيها رءوف سوى مداهنة:

«يا بني لا تتكلم هكذا، أتدرك كيف تبدو وأنت تتحدث على هذا الوجه؟ جد سيئ، وهو كلام لا يناسبك ولا يناسب صديقك. نحن لدينا ديننا وعاداتنا وتقاليدنا، والله لماذا خلقنا؟ لنعبده، أليس كذلك؟ وهذا كلام لا يندر إلا ممن ليس لهم أصل وليس لديهم أهل ولا أصدقاء يخجلون منهم. ثم إن هذا الكلام سيضر بكما في المستقبل، سيأخذ الناس نظرة سيئة عنكما ولن يقبلوا أن تكون لهم أي علاقة بكما».

«سترى كيف ستكون ردة فعل الناس، سيتبعون ما هو عقلاني؛ ذلك أن الشعب إذا وجد إرادته من جديد فلن يعدم القدرة في أن يرى بوضوح ويميز بين من هو جزء من إرادته ومن هو عدو

لها وعائق في سبيل ما يريده. الشعب هو الحكم الوحيد، وليس لأحد أن يكون وصيًّا عليه؛ لا رجال الدين، ولا أصحاب المال، ولا أي أحد» رد رضا، وكان أن التقت عيناه بعيني رءوف وهو يلقي الجملة الأخيرة.

«**أنتم الأوصياء عليه إذًا، النخبة التي ترى ما لا يراه غيرها، ستحكمون وسيرضخ الشعب لما تُلقونه عليه وتفرضونه، حتى الديمقراطية، وسنتعرى ونهجر آباءنا وأبناءنا وكلٌّ يلتفت إلى حياته، ويجب أن نرضي دولًا معينة لكي نكون ديمقراطيين جيدين بأن نعطيهم أسواقنا ومالنا، ثم نخرج بدرجة إسهامنا في هذا التطور البشري من خلال هذا الرضوخ**».

«**أنا لم أقل هذا؛ ذلك أن الديمقراطيين يحترمون بعضهم البعض، ثم نعم، لَأن أكون تبعًا لدولة راقية ومتطورة تساعدني على التطور خير لي من أن أتمرغ في وحل الخرافات وهذا التقييد على الحريات وعلى حقوق الإنسان**». ابتسم رءوف وبدا الحنق على الشيخ محمد والحزن على منير مخلص، أما رضا فكان واضحًا ارتباكه ورغبته في قول المزيد وتبرير وشرح ما ترمي إليه أفكاره فعلًا، بيد أنه لم يلتفت إليه أحد، ودار الحديث بين رءوف وخير الدين باسط ومنير مخلص وجمال الهلالي حول أمر مختلف تمامًا عمَّا كانوا يخوضون فيه.

«**إني أجزم لك أن هذا الكلام صحيح، وهو منطقي جدًّا، وستسمع به قريبًا من كل وسائل الإعلام. بالنسبة لي هو ليس غريبًا إطلاقًا، بل الغريب هو ألا يحدث**». خاطب رءوف جمال الهلالي ومنير مخلص، بينما التحق خير الدين باسط بفضول شديد وقد

تغيرت ملامح وجهه فجأة إلى ترقب لما قد يمسه هو شخصيًّا: «**ثم إني موقن أن هذا القانون قد تم تمريره في البرلمان اليوم، وسيكون نفس الأمر في المجالس الأخرى. هذا بالنسبة للبعض خبر سار جدًّا، ولكنه للبعض الآخر نقمة، وبعض هذا البعض لن يسكت**».

«**أي قانون هذا يا السي رءوف؟**» سأل الشيخ محمد بعبوس وهو لا يزال يختلس النظر إلى رضا القادري.

«**هذا يا شيخ قانون يعطي بعض الامتيازات والأفضلية للحزب الذي يسيطر على كل مجلس على المستويات التشريعية. وهو بذلك يمدد العهدة الحالية للممثلين، ولكن إلى متى؟ فهذا ما لا أعلمه**».

«**ولكن تفاصيل هذا القانون تبدو أعمق من هذا؛ نظرًا لكل هذه الجلبة التي حدثت حوله، وهناك من يُظهر معرفة بخفايا هذا القانون، لا أدري كيف ولكن يبدو الأمر كذلك**» علق جمال الهلالي الذي طغى على علاقته مع رءوف التفاهم التام، وأردف الآخر موافقًا:

«**أجل، من لا يعجبهم القانون يُظهرون هذه الآراء ليبثوا الشكوك، ولكن تبقى هذه الشكوك مشروعة من زاوية أن هذا الإجراء التشريعي سيعطل الكثير من الأمور في حيواتنا. ولكن هناك بعض المبالغة من الطرفين، وهذا لن يُحدث شيئًا سوى الفوضى**».

«**لا أحد يثير الفوضى في هذا البلد أكثر من الحاكمين والمسيطرين على عقول الناس**» تدخل رضا قائلًا وهو يجانب عامر الذي كان يزن له كيسين على ميزانه: «**والقانون على هذا النحو**

ليس سوى أداة لاضطهاد الإرادة الشعبية ومعها الشعب الضعيف الذي سيثور يومًا ما».

«**لا حل إلا في استفاقة هذا الشعب من سباته، قد طال جهل الناس ورضوخهم وليس لهم إلا أن يُعبروا عن إرادتهم بأن يرفضوا كل ما هو مقيِّد لهم، والانتهاء منه إلى الأبد، بالقوة إن لزم الأمر**» صاح عبد القادر وأخذ في التحديق في عامر الذي لم يُعِره اهتمامًا وقال هو الآخر بهدوء: «**المجموع أربعون ألفًا**».

«**يبدو أنه ما دام هناك تعاطٍ للحشيش والغبار، فهراء اليسار لا يزال قائمًا وإن سقطت دولهم**» قال جمال الهلالي وهو ينظر إلى رءوف المبتسم.

«**لا شيء يسبب السكر أكثر من الخرافات السائدة الآن، وكل محاولة للتنوير تُعد جنونًا وأوهامًا، هذا دومًا ديدن أصحاب الظلام ومن ينتشون بصخب الليل وثرثرة الجهل**» أجاب رضا بعصبية، وزاد عليه عبد القادر بهدوء بدا أشبه بالبلادة:

«**حتى محمد نعتته قبيلته بالمجنون، ولكنه أبدى حنكة سياسية وعزيمة قيادية أخرجت أمة بدوية وجاهلة إلى نور جديد، ولكن ذلك النهار قد أفل ونحتاج إلى نهار جديد**».

«**والآن تُقرنون رسول الله صلى الله عليه وسلم بهرائكم، وهو المبعوث من فوق سبع سماوات ورسالته هدى للعالمين؟!**» صاح الشيخ محمد بامتعاض شديد، وكان ينظر إلى عبد القادر ثم يُجيل النظر بين رءوف ومنير مخلص مبديًا تعجبًا من سكوتهما دون أن يُوقفا ذينك الشابين عند حدودهما. وكان عامر قد أرجع لرضا الصرف الذي حمل كيسيه، ثم تقدم نحو الجماعة الواقفة وبدا أنه

لن يرحل وأن لديه المزيد ليقوله. ثم تلا هذا قدوم رجل في أواخر الثلاثينيات وقد بدا عليه التلهف لإخبار شيء ما، فارعوى رضا، ومضى الرجل فسلم على الجميع ثم انتهى عند رءوف الذي حياه: «**أهلًا يا قدور**»، فابتسم قدور ومضى يتحدث بسرعة وبطريقة كانت تقطع الكلمات ولا تقيم أي وزن لشروط الكلام المفهوم:

«**أما سمعتم با؟ لالخبر؟**» سأل فجأة، ثم استفسر رءوف عن الخبر وقد تبدلت ملامح وجهه وبدا عليه الترقب. فأجاب قدور بنفس الطريقة: «**رابح عطية متا بع في قض ية تتعلقبمن صبه**»، لم يفهم عنه أغلب الحاضرين، ولكن دهشة رءوف أبدت أنه كان بلغ مغزى كلام قدور: «**ومن أخبرك أنت؟**»، أجابه قدور بأن جميع من كانوا في مقهى السايس سمعوا بذلك. أصغى الجميع بانتباه شديد، ولم يكن ليخفى عن الناظر إلى كل واحد منهم تمحيصه للخبر ومحاولة تصنيفه والحكم عليه ثم تكييفه مع الواقع ممَّا يمكن التكهن به في المستقبل. أما قدور فمضى يتكلم ويخبرهم بأنه بعد التحقيق السري الذي تم أودعوه السجن، ولن يبرحه حتى تثبت براءته «**التي يش ك فيها جدًّا**».

«**هذه أكبر كذبة سمعتها اليوم، هو في منزله، وكان تحقيقًا، ومن ثم سيستدعونه للمحاكمة أو لتحقيقات أخرى، لكنه قد جُرد من جميع مهامه**» قال رءوف وهو ينظر إلى منير مخلص، ثم خاطبه جمال الهلالي متعجبًا: «**يعني أنك تعلم، وما ترى في كل هذا؟**».

«**إن ثبت الأمر ضده فسيكون هذا الصواب، وما سيلقاه سيكون جزاءه**»، حدق جمال في رءوف، وكان واضحًا أن كلام رءوف كان

مفاجئًا له. لم يتفوه بأي كلمة أخرى ومضى في تحديقه وتأمله إلى أن قطع شروده صوت الشيخ محمد وهو يستأذن بالرحيل مضيفًا: «**الجنازة ستقام بعد صلاة الظهر، أعلموا من لم يعلم، أعتقد أن هناك كثر من يجهلون بالأمر نظرًا للظروف التي تحيط بآل مسعود**».

«**أي جنازة؟ من مات؟**» سأل منير مخلص، وكان عامر قد رفع رأسه من أحد صناديق الخضر موجهًا نظره إلى الدائرة التي وقفت أمام حانوته، ثم قام واقترب من الدائرة حتى جانب عبد القادر.

«**زوجة مسعود بن نوح، توفيت هذا الصباح، الله يرحمها**»، ترحم عليها أغلب الحاضرين إلا رضا وعبد القادر، وبعد أن سدد إليهما نظرة مستنكرة استأنف الشيخ محمد قائلًا: «**لم تتألم طويلًا، يعني منذ أن وقعت طريحة الفراش أربعة أشهر، ذهبت هذا الصباح للسي مسعود وبحثنا حول أمر الدفن، لكن أولاده كانوا جد محتدين وأبوا أن يدفنوها في أي جبانة، وأصروا أنه لن يحضر جنازتها أحد وستُدفن مع ابنها. بالطبع كانوا جد حزنين، أخبرتهم أنه من الأفضل أن يتبع جنازتها الناس للدعاء لها، ولولا والدهم لكان الأمر ما أرادوا، ولكن السي مسعود شرط أنه بعد الصلاة عليها في الجبانة فإنهم سيأخذونها إلى أرضهم في العريبات لدفنها بجانب ابنها وراء منزلهم هناك**».

«**هذا أمر فعلًا غريب**» علق خير الدين باسط: «**موت أسامة شيء وموت والدتهم شيء آخر، لا أدري ما سبب كل هذا الغضب، كل ما يتعلق بهم غريب، اليوم مررت على أرضهم بالعريبات**

ووجدت أمتعة وأشياء موضوعة على الأرض وعائلة، والأطفال يجرون، أظنهم أقرباء المسعود».

«**نعم، أنا أي ضًارأيتهم، رأيت مسعو دأيضًا معهم**». قال قدور مؤكدًا كلام خير الدين وهو يختلس النظر إلى رءوف الذي بقي صامتًا وكان ينظر حينًا إلى أحد المتكلمين وحينًا بعيدًا إلى لا شيء بالتحديد.

«**أولئك عائلة بناء لا منزل لهم، جاء بهم هذا البناء من أجل العمل، هي عائلة فقيرة، وقد وافق المسعود على إيوائهم في إحدى غرف البناية المحاذية لمنزله في العريبات**». شرح الشيخ محمد وهو يهم بالرحيل، وكان قد حدس وكأن القوم سيخوضون في أمر مسعود، فألقى السلام ثم رحل.

«**والله هذا الشيخ محمد هو نية وطيب جدًّا بحيث لا يعرف كيف يتعامل مع بعض الأشخاص، يتحدث عن مسعود بن نوح وكأنه ملاك أو رجل شريف**». سأل الجميع جمال الهلالي عن معنى كلامه، فأضاف: «**أنا متأكد أنه هو السبب في موت زوجته لما سببه لها من متاعب وتخنيق عليها. وانظر إلى أولاده، كلهم كبروا ليشاكلوه في الخلق، وأي أخلاق، منعدمة ولا شيء سوى المشاكل وفعل ما لا يجرؤ أحد على فعله**». بقي الكلام مبهمًا، وباءت كل محاولات الاستفسار بالفشل؛ ذلك أن مغزى كلام جمال بدا عصيًّا على الفهم، وأن سابقة كانت لازمة للاهتداء لذلك الفهم. وترك لشأنه؛ ذلك أنه بدا على دراية بأمر لم يُرد الإفصاح عنه لسبق أوانه، واحتفظ بذلك الوجه الذي كسته معالم الأَعلم بالظرف، ومضى خير الدين باسط يستفسر من جديد عن مصير مجلسهم البلدي الذي كان عضوًا فيه وهو شاد بصره نحو رءوف الذي لم يُجبه ولم يبدُ

عليه الاهتمام بذلك الجمع، فهمس باتجاه منير مخلص بشيء، وما هي إلا لحظات حتى استأذن الاثنان ورحلا. تتبعهما جمال ببصره وبدا مغتاظًا من شيء ما، أما صوت عامر فعلا فجأة وهو ينهر قدورًا ويطلب منه إفساح الطريق، والآخر يعترض وينتقد مبالغة عامر في الاهتمام بمحله: «**الذي لا يمكن أن يعد محلًّا على الإطلاق، فمن يشتري منك غير المحتوم؟**»، ومن لحظتها كان رضا قد تحرك مغادرًا المكان يتبعه عبد القادر الذي هرول إليه بعد أن فاجأه رحيل صديقه، وبعدهما مباشرة كان الجمع قد انفض.

ومشى جمال خلف رضا وعبد القادر اللذين كانا صامتين، ولم يشده إليهما أي شيء، فمشى مطأطئ الرأس وهو يفكر إلى أن لفت انتباهه حركة مفاجئة من كلا الشابين وهما يستديران جانبًا ثم يتوقفان مرة واحدة. لم يتوقف عن المسير، لكنه ما إن مر بجانبهما حتى أبصر أين رمى ببصره متتبعًا ذلك الذي شغلهما؛ رجلًا وقد علا امرأة ساقطة على الأرض وهو ينهال عليها ضربًا، ولم تند من المرأة أي صرخة، بل كانت رافعةً يديها لتحمي بعضًا من جسمها. اقترب قليلًا إلى حافة الطريق، وكان الرجل لا يزال يحمل يديه الواحدة تلو الأخرى ثم يهبط بهما على المرأة التي كانت متلفعة في جلباب وقد بدا شعرها من خمارها الذي سقط من الاحتكاك العنيف الذي مارسه الرجل ضدها. جذب المنظر العديد من المتفرجين رغم الشمس الحارة التي آذنت بقرب الهجير، إلا أن أحدًا لم يتدخل بل ازداد الجمع، وكلما ازداد ذلك الجمع ازدادت حدة ضرب الرجل للمرأة. وجانبت الرجل دراجة هوائية، وكان هو ملتحيًا وبقميص تدلى لغاية الأرض، وبدا أن منظر الجمع قد استفزه حيث امتلأت

حافات الطريق وتوقفت السيارات وكانت الزوايا محتشدة. ولم يكُن ليتوقف لولا اقتراب رجلين ملتحيين أيضًا وقد أمسك أحدهما بذراعه وحاول تهدئته. انفعل الرجل وحاول العودة للمرأة ولكن الآخر منعه وهو لا يزال يريد تهدئته، وبعد أن تكلما لبرهة اقترب الرجل من دراجته ورحل، بينما كلم الرجل المرأة ثم اتجه من حيث جاء إلى باب منزل، وبعد لحظات خرجت امرأتان توجهتا نحو المرأة وحاولتا حملها وقد بدت منهارة، فلم تتمكنا من حملها إلا بعد أن رشت إحداهما بعضًا من الماء على وجهها ثم سايرتهما إلى أن دخلن المنزل وقد بدت في جهد جهيد.

وكان جمال قد اقترب من أحد الرجال الذين وقفوا يتفرجون وهو يستفسر عن الأمر، وقد أجابه الآخر: «**الرجل جُن، كان يرادف امرأته معه على الدراجة ويبدو أن الدراجة سقطت بهما، فوقف ونظر إلى الدراجة ثم إلى المرأة، ثم هجم على المرأة وأبرحها ضربًا، المسكينة**». ضحك جمال من الأمر وضحك الرجل أيضًا، ولم يكونا ليتوقفا لولا سماعهما لصوت نهر، فاستدار جمال ولمح رضا وعبد القادر الذي كان يبدو في جهاد للتوقف عن الضحك حتى نجح في ذلك بعد نهر رضا له، الذي بدا دهشًا وفي حالة ذهول قاربت الإغماء وهو يتكلم ويقطع كلامه بسبب ذلك وقد خالط كلامه سب وبذاء. صمت عبد القادر وقد بدا وكأنه قد شعر بالخزي، ثم استأنف المشي مع رضا الذي كان يقطر عرقًا وقد لمح جمالًا يحدق فيه بازدراء بالغ، توقف فجأة ورمى نظرة عدوانية باتجاه جمال الذي أشاح بوجهه، ولكن رضا لم يتوقف عن التحديق بتحدٍّ وعدوانية، وكان الواقف مع جمال ينظر إلى رضا وقد هاله منظره ثم

سأل جمالًا: «**ما خطبه؟**»، لم يَجب لا جمال ولا رضا الذي استدار ثم استأنف مشيه مع عبد القادر وقد جانبهما من الجانبين جمعان يتحدثان عن الرجل وامرأته. ولم تكُن سوى بضع خطوات حتى أغمي على رضا. وبعد دقائق، بعد أن تجمع جمع آخر حوله، اقتربت سيارة وحملته وعبد القادر ينظر، ثم مضى وحده بعد أن رفع كيسي رضا من الأرض، ثم استأنف مشيه وحيدًا.

مشى مسعود بن نوح بتؤدة في ذلك الظلام الذي غشي كل الطريق بعد أن تجاوز حدود البلدة متجهًا إلى العريبات. ورغم الظلام فإنه كان يمكن سماع همس وتمتمة مع كل خطوة كان يخطوها، والتي اتخذت الهوينى ولكنها كانت لتتغير ما إن يصعد نتوءًا في الطريق غير المعبدة أو حفرة صغيرة، فلم يكُن لأحد أن يتعرف عليه لولا هذه الأصوات التي كانت تند عنه كردود فعل ممَّا يعترضه في طريقه من عوارض صغيرة تبطئ من سرعة مشيه. وما إن تجاوز تلة صغيرة حتى بدت له الأضواء جلية من منزله ومنازِل أخرى في الأفق بدت متفرقة ومتباعدة في المسافة أيضًا. ولم تكد تستوي به الأرض بعد الرابية حتى سمع صوتًا يخاطبه من علوٍّ جانب الطريق بدت وكأنها كانت قد عُبِّدت شاقة رابية كبيرة. توقف ثم انتظر أن يتنامى إليه الصوت من جديد لكي يحاول تمييزه ومن ثم مخاطبته: «**يا مسعود، الآن لا أحد هنا وأستطيع أن أعيد عليك نفس الطلب ونفس النصيحة**»، **لم يتعرف مسعود على صاحب الصوت لكنه أصغى جيدًا بعد استفساره عن هذا الطلب وتلك النصيحة، «أرجع الحق إلى أهله، وكفاك ما أنت فيه من لعب، قد مضت السنون والله الآن يعاقبك بما جنت يداك**».

«**والله يا عبد الوهاب أنا استخرت الله ذلك العام، وأظن أنني لم أبخس حق أحد وأنا الذي لديَّ حق عند الناس**» رد مسعود وقد أيقن من أن جاره وابن عمه صاحب الأرض المحاذية لأرضه عبد الوهاب بن نوح هو الذي كان يكلمه. وكان قد ألقى رده بابتسامة كان يمكن الشعور بها من النبرة البشوشة التي صاحبت كلامه.

«**أنت لن تخدعني يا مسعود، أعرفك جيدًا قبل أن تسكن المأرب، وما يمكن أن ينطلي على جيرانك في المأرب لا يمكن أن ينطلي عليَّ أنا ابن عمك، تظن أنه بإمكانك إخافتي بجلبك لأناس أجانب ليسكنوا في أرضك ولكي يذودوا عنك، ما هو للناس سيعود إليهم وإن أعجبتك قوتك، وبإمكاني أن استعين بالقوة أنا أيضًا**».

«**القوة لله يا عبد الوهاب، وأنا لم أفعل أي شيء ممَّا قلته، كلٌّ من ضيوفي الذين آويتهم له قصته وحاجته، أما أن أستعين بهم فلا، أنت تعلم إلى من توكل الأمور**». قال هذا ثم مشى، وكان عبد الوهاب لا يزال يطلق اتهاماته وتهديداته المبررة بتلك الاتهامات، وبدا وكأن العالم قد توقف على ما رآه من خبث مسعود الذي أدرك ذلك، وهو ممَّا حدا به إلى التزام الصمت. وكانت جمل عبد الوهاب تخفت كلما ازدادت حدتها وتحولت إلى اتهامات: «**سأفضحك، وسأجرك إلى المحاكم، ولن أتركك أبدًا يا ...**». وغطتها تمتمة مسعود إلى أن اختفت بابتعاد مسعود أكثر وولوجه مدخل أرضه.

فتح موسى له الباب، فسلما على بعضهما البعض ثم صعدا ودخلا غرفة موسى، وبدا وكأنه كان في انتظاره؛ ذلك أنه توسط الغرفة طاولة قاربت سريرًا عند الجانب الأيسر من الغرفة، وألقى مسعود نظرة فاحصة للغرفة التي بدت له بحلة جديدة وقد أضيف

لها شيء ما ففكر بأنه كان شخص موسى، ورمى ببصره إلى زاوية الغرفة اليمنى أين وُضع فراش على الأرض وعلى رأسه مخدة بدت موضع نوم موسى، أما قبالة الفراش في الزاوية الأخرى فكان هناك صندوق وفوقه حقيبة. وانتهى مسعود بالنظر عبر النافذة فوق الفراش إلى السواد الذي عكس نظرته، فانتبه إلى موسى وهو يجلس على كرسي جانب السرير وهو يميل إلى الطاولة، فأبصر مسعود الإبريق في يد موسى وهو يسكب شايًا في كأسين وضع إحداهما أمام مسعود الذي جلس على السرير وبدأ باحتساء الشاي. أما موسى فكان قد قام من على الكرسي حاملًا كأس الشاي، ثم بدأ يهرع الغرفة جيئة وذهابًا بشرود دهش وانغماس حال بينه وبين المكان الذي كان فيه. راقبه مسعود باهتمام بالغ لكنه لم يتكلم، أحس وكأن شيئًا ما قد يحدث، فانتظر وعيناه لا تزيغان عن حركة جسم موسى تراقبان ملامح وجهه إذا مشى باتجاه الباب وقفاه إذا قابل النافذة، وكان بين الفينة والأخرى يحتسي الشاي بينما كان موسى قد نسي ما كان في يده اليمنى وقد كانت مرفوعة إلى غاية صدره. ثم توقف موسى فجأة وقد أعطى ظهره لمسعود الذي ترقب ما الذي سيصدر منه، وكانت بعض القطرات من الشاي قد سقطت على الأرض. ولما أحس مسعود أن موسى سينتبه وقد يدرك الوضع الذي كان فيه، تكلم فجأة وإن بدا صوته وكلامه وكأنه كان مستغرقًا في الحديث بإسهاب منذ زمن:

«كل هذا لم يجد، وما هو كلام قد لا يتجاوز مجرد الكلام، أما تطبيقه فهو جد صعب، لذلك ترى المنزل هكذا يبدو عتيقًا ومن زمن آخر، ومر زمن طويل منذ توقفت الرغبة عندي في تغييره أو

بناء دار محاذية له؛ ذلك أنه لم يبقَ لي المزيد من الطاقة للتفكير في هذه الأمور، أو بالأحرى تلك الطاقة التي شغلت بهذا تحولت الآن لما هو -حسب ما يظهر لي الآن- أكثر أهمية، والأولاد قد يريدون فعل ما يشاءون به، لهم ذلك». انتبه موسى مع الجملة الأولى ثم استدار وحدق في مسعود، وبدا وكأنه يحاول فهم كلام مسعود مع تدفق كلماته إلى أذني موسى الذي ركز مع الكلمات دون ربطها بعضها بالبعض الآخر، وعند انتهاء مسعود من الكلام بدا في حيرة من أمره، ثم ظهر تردده جليًّا، وكان مسعود ينظر إلى كأس الشاي في يده ثم رفع عينيه إلى موسى الذي قال: «**معذرة، ولكنني شردت منذ بدأت بالكلام، كنت أفكر في أمور**»، صمت لحظات ثم استأنف يحاول تبرير نفسه وحالته: «**مضت أشهر عليَّ هنا ولا أدري ماذا فعلت فيها، أعتقد لا شيء، نعم، لا أعلم ما ينتظرني. لست قلقًا من المستقبل أو من عدم توفيقي في إيجاد سبب للرزق، ولكن لا يمكن للمرء أن يقعد في سكون تام، هذا غير طبيعي وهو بوابة الموت أو حتى أشياء أخرى تثير السخط في الحياة**».

«**ولكن يبدو وكأنه لديك غاية، وأن قعودك هنا هو من أجلها. إذا كان الأمر كذلك فإنه ليس بذلك السوء الذي تظنه**»، علق مسعود وقد حدس بداية بعض من حالة الشرود التي انتابت محدثه آنفًا، إلا أن الآخر بدا في صراع وانتهى الأمر به بمخاطبة مسعود قائلًا: «**أحيانًا يبدو لي الأمر غريبًا وكأنني انسلخت من هذا العالم دفعة واحدة، ثم فجأة أنتبه لنفسي وأجدني قد عزمت على أمور غريبة أيضًا. لا أدري كيف أشرح الأمر، حتى تاريخي يبدو لي غريبًا. مضت مدة من الزمن وأنا أطوف أماكن عدة، إذا حالفني**

الحظ أعمل في مكان ما؛ قرية كانت أو بلدة أو مدينة، وأسكن هناك ثم أرحل فجأة. وقبل أن آتي إلى هنا كنت قد عدت إلى مسقط رأسي في مدينة في الجنوب الشرقي، ولم تشَأ الأقدار سوى أن تدفعني للحركة من جديد بسبب ما حدث لشقيقي. أعتقد أن الإنسان لم يُخلق ليحكي عن نفسه، ربما لتُحكى أفعاله فقط؛ ذلك هو الأهم. كل هذا السرد للسير الذاتية هو جد ممل، ولا يمكن أن تشعر بالاهتمام إلا عندما يكون الحديث عن الأفعال، أما ما خلا هذا من انطباعات في الطفولة ومشاعر مفصولة عن التجارب العملية فكلها هراء، تذهب بها الأيام مثل أوراق الأشجار، أما الإنسان الفارغ فهو مهتم بجمعها تاركًا مهمة الاعتناء بالأشجار التي سقطت منها لكي تزهر وتثمر له من جديد. بيد أن من هذه التجارب ما لا نعلم على وجه التحديد إن كان مساعدًا على النمو ومن ثم الإثمار أم لا، هذا الجهل وحالة عدم اليقين هي مضعفة وتثبط بدل أن تشجع، والمرء فيها بين الظفر والخذلان، وما أقرب الخذلان! ليس لأنه واقع، بل لأن الهاجس الأقوى هو الذي يقربه للأفئدة، ولكن في مرات تكون الرغبة في الخذلان أقوى، لا أدري لماذا. ولكن مثل هذا الكلام هو مبهم ولا بد من إيضاح، وهذا مثلما قلت لا يكون إلا بالتجربة العملية؛ ذلك أنها هي التي تصقل القيم وتجعل منها حقيقة وتردها مبادئ ونظمًا أخلاقية. كنت قد تعرضت في فترة من حياتي لحادثة هزت كياني وغيرت الكثير، فرحلت عن المكان الذي كنت أسكن فيه، وكان هذا بادئة طوافي في البلاد، وكان أن نزلت بقرية وقد هدني الدهر وخارت قواي، فكنت شديد التفكير لا أترك الشرود، حتى إنني لا أذكر الكثير عن

ذلك المكان الذي نزلت وأقمت فيه لأشهر سوى ما يتعلق بالقصة التي أنا بصدد إخبارك بها، وكل هذا طبعًا له باعث آني؛ أي بما يتعلق بحالتي الحالية. لا أدري كيف بدأ هذا ولكنني وجدت نفسي أعمل في نقل بضائع من تلك القرية إلى بلدات وقرى أخرى مجاورة، لم تكُن البضائع سوى مواد غذائية، وسيلة النقل كانت شاحنة، وكنا ثلاثة في كل شاحنة، فحدث مرة أن توقفنا عند محطة فذهبت لأغتسل، ويبدو أنني استغرقت وقتًا وأخذت راحتي في ذلك، ولكن هذا لا يشرح كيف أنني برجوعي إلى المكان الذي نزلت فيه من الشاحنة لم أجد لا الشاحنة ولا الرفيقين اللذين كانا معي. طبعًا بدأت فورًا بالتفكير في السبب الذي من أجله تركاني في ذلك المكان -ذلك أنني جزمت في قرارة نفسي أنهما فعلا ذلك عن عمد-، وخمنت أن رفقتي كانت مملة وأكثر من هذا مزعجة لهما أو حتى مستفزة؛ ذلك أنهما أظهرا لي بعض العدوانية والتجاهل وحتى التلميحات التي تنال من شخصي على وجه غير مباشر. شعرت بغضب شديد ممزوج بحيرة ورغبة في الاهتداء لمكان ما أو وسيلة ترجعني من حيث أتيت، لكن سرعان ما ملأتني اللا مبالاة، وبدا لي الأمر واحدًا إن رجعت لتلك القرية أو ذهبت لمكان آخر، كل هذا ممزوج بخوف مرتبط بذلك الذي كنت هاربًا منه. وهمت على وجهي أمشي في الطريق العام، أنتظر طارقة أن تطرق من جديد لشعور بأنني عرضة لكل سوء، وأن القادم أسوأ. ثم وأنا أمشي على حافة الطريق التي ندر فيها مرور السيارات، خطر على بالي أن أمشي جانبًا وأتوغل في الفلاة على يمين الطريق. لم يكُن هناك أي شيء ينبئ عن حياة في ذلك المكان المقفر، ولا أدري ما الذي

دعاني إلى أن أقرر المشي في تلك الفلاة، لكني مشيت وابتعدت إلى داخلها لا أروم شيئًا سوى إرضاء رغبة داخلية في الانتهاء من كل شيء، لم يكُن الموت، ولكن كان هروبًا على ما أعتقد، أو حتى اكتشاف معنى الهروب لتجاوزه والبدء في أمر جديد. ولكني كنت مطرق الرأس، أعرف هذا لأن مشيي كان قد بلغ -ممَّا كان يبدو من الطريق- قلب الفلاة ولم أبصر إلا لحظة بلوغي المكان رجلًا وهو يحمل رضيعًا تحت نخلة وكان يحدق فيَّ. كانت مفاجأة بالنسبة لي بالطبع، وكنت قد توقفت ورحت أحدق في الرجل أيضًا، أما تحديقه فكان تحديق من كان ينتظر أن أمضي في طريقي وتجاهل أي سبب غريب كان قد أدى بي إلى ذلك الخواء في الأرض، وأما تحديقي فكان تحديقًا مستفسرًا، وقد بدا أنه لم يعجب الرجل الذي بدا ممتعضًا بوجهه العابس وملامحه المتداخلة الرافضة لأن تبدي أي تعبير غير الاشمئزاز والرفض. ولدى لمحي للرضيع بين يديه أدركت الوضع، وهالني الأمر لكنني بقيت هادئًا ثم اقتربت من الرجل وطلبت منه جرعة ماء. بدا عليه الذهول ولم يُجبني، كررت عليه السؤال معللًا نفسي بأني مشيت مسافة كبيرة وأني بي ظمأ شديد، ولكنه تابع تحديقه وقد كان واضحًا أن نبرتي كانت نبرة من ألم بالوضع وأصبح كلامه تدخلًا في ما لا يعنيه حتى لو لم يتكلم في الموضوع. لكني لم أرحل وبقيت هناك متظاهرًا بأني منتظر رده الذي بدا أنه لن يأتي أبدًا. وندت عني حركة بعد أن أحسست أن الوقت يمر بسرعة وأن الرجل له كل الاستعداد لانتظار كل الوقت في العالم من أجل القيام بذلك الذي صمم على فعله، ولم تكُن حركة تقدمتها نية، بل مجرد رد فعل غريزي تقدمه إدراك

انغرس في العقل وزحف نحو الإرادة؛ فكان أن تقدمت إليه ثم هويت على الأرض وجلست بجانبه دون أن أفكر كثيرًا أو أستعرض العواقب التي يمكن أن تتبع هذا الفعل في مثل ذلك الوضع مع غريب يحمل رضيعًا في وسط الفلاة، والأمر العقلاني الوحيد الذي فعله هو الاستظلال تحت نخلة وعدم فعل أي شيء. ولم ينظر أحدنا للآخر بينما كان الرضيع نائمًا، أما الرجل فبعد أن نظر إليَّ لبرهة من الزمن راح ينظر أمامه إلى الأفق البعيد، وكان الأمر الوحيد الذي جمعنا في تلك اللحظة، ولم يبدُ أفقًا يبشر بأي قادم مبهج، بل كان قفارًا وإدراكًا لتتابع الأيام والسنين، فكان جد مشابه لتطلعاتنا؛ ذلك أنها كانت فارغة فراغ ذلك الأفق. وطوال ذلك الوقت خلت أن الرجل لن يتحدث أبدًا وأن حاجزًا كبيرًا كبر الحياة نفسها يحول بين ذلك الرجل وبين ليس محادثتي فقط بل أشياء كثيرة منها الحياة؛ ذلك أن وجوده هناك وسلوكه كانا ينمان عن ذلك، إلا أنه قطع كل تلك الظنون بأن قال مترددًا في الأول ثم في صراع لأن يخرج الكلمات وينتهي منها: ‹لكل شيء نهاية، وكل ما عدا ذلك هو وهم›. توقف بعد هذا وقد استحوذ عليَّ الترقب ونسيت كل شيء حتى حياتي، وزاد هذا الترقب بعد أن استأنف: ‹ما معنى كل بداية سوى أن تؤدي إلى تلك النهاية؟ والبشر لا هم لهم سوى دفع المرء إلى تلك النهاية، يبدو أن هذا هو سر وجودهم، وحوش أليفة تعض ولكنها خائفة من أن تقتل، ولذلك فهي تجر ضحاياها إلى هاوية وترميها من هناك، ثم تجري لأسفل الهاوية لكي تشاهد منظر الموت والنهاية. إذًا فليس أفضل من أن يختار المرء نهايته، ألا يتلوى من الألم؛ ذلك أن الرأي شجاعة، والإقدام

على النهاية يبقى المعنى الوحيد للحياة'. فاجأني بكلامه صراحة؛ ذلك أنه بدا على دراية بما يقول، وكلامه لم يكُن كلام الجاهل بل كلام المتعلم، تغيرت نظرتي له وخمنت أن الرجل كان ذا همة وخاب فاستسلم، أو أنه كان بحال جيدة ثم سقط. فلم أشأ أن أبقى صامتًا وقلت على سبيل النصح أو الإرشاد بأن ألفت نظره لما يمكن أن يكون قد غاب عنه من أفكار تقوي العزيمة: ‹هناك دومًا أمل في الحياة، حتى لو كان الألم فإن الإنسان خلق ليحيى حتى لو كانت هذه الحياة مشقة كلها، ومن ذا الذي لا يتعب في هذه الحياة؟! لعله كتاب الحياة قضى على البشر بذلك كما قضى بأن يدركوا ألمهم فيتضاعف ولكن تتضاعف الحياة معه، ويكون وراء كل هذا مغزى قد لا يدركه أمثالنا، ولكن هناك السعداء في هذه الحياة؛ لعل شقاءنا يؤدي إلى سعادتهم'. لم يقل شيئًا، وأدركت أن كلامي لم يكُن ليساعد بل ليقوي ممَّا كان ذلك الرجل قد عزم على فعله. وأحسست أن صمته لم يكُن سوى تعبير عن الانتشاء بصحة تقديره الذي أكده كلامي، فبدا منغمسًا في شرود عميق. ولما رأيت الرضيع تحرك قلت: ‹الوأد هنا ليس الحل'، ندت منه وسوسة هزت جسمه وبدا أنها أزعجت الرضيع، ثم نظر إليَّ فرُحت أستأنف كلامي: 'وهذا لا يعني سوى شيء واحد، أن الوائد لا تشغله معاني الحياة بقدر ما يشغله وضعه ووجوده وكل ما هو امتداد منه وانعكاس هذا على شخصه، الوأد يعني الاستسلام للبشر، الانكسار تحت الظروف والانضمام إلى الجلادين ضد النفس'. ثم أسرع يجيب وقد بدا وكأن الكلام قد بلغ صميمه: ‹هذا ليس وأدًا، بل هو تخليص نفس زكية ممَّا ينتظرها من عذاب، سنذهب إلى العدم؛ ذلك أنه أفضل

من هذا الوجود، كما أنني لن أشعر أبدًا بالعار ممن هو من صلبي، هي فقط الشفقة والعمل الذي يندر منها بإزالة الألم أو السبق دون أن ينزل بالأبرياء مثلهم›. ورحت بدوري أسرع لافتًا انتباهه لذلك الذي لم يكُن مرجعًا لي أنا نفسي: ‹بل هو خشية إملاق، كما قلت لك، لا يتعلق الأمر بالعار، بل بالهوان والضعف والانكسار، أصبحت جلاد نفسك بتخلصك من نفسك وممَّن هو امتداد لنفسك. شفقتك هي تعبير عن الضعف والاستسلام له. عذرًا، قد أبدو قاسيًا، ولكن يجب تجاوز هذه المشاعر من أجل ما ينتظرك وهذا الذي تعتمد حياته عليك›. سدد إليَّ نظرات خلتها نظرات عتاب؛ لأني كنت لا أزال مركزًا على كلامي ووقعه على الرجل، لكني أدركت أن الرجل لم يُبدِ سوى الكراهية بنظراته تلك، كراهية البشر اختزلت في شخصي وجعلتها في متناوله. ثم أدركت أن الكلام لن يجدي مع الرجل؛ ذلك أن أمرًا أكبر منه ومني كان مستحوذًا عليه وقابضًا على تلابيب مصيره، وهو السبب في خضوع وخوار الرجل، ففكرت والرجل لا يزال غاضبًا، ثم قلت: ‹قد يتغير كل شيء، ورغم ما يبدو من سوداوية في الحياة فالأمل يبقى متعلقًا بالسعي والإقدام نحو الأمام؛ ذلك أنه رأس مال المرء، وخصوصًا إذا صقله الخالق بمكرمات ونزعة عقلية تبحث فلا تيأس فتجد في الأخير بغيتها›. ندت منه ضحكة هستيرية طويلة، ثم قال وهو يقهقه بعصبية: ‹يا لها من سذاجة! وهذا الخالق لماذا لا يعطي جموع الكادحين التي تعمل فلا تجد جزاءً لعملها سوى المشقة وتثقيل الوجود والعيش؟! ثم إن شيئًا لن يتغير، وهذا السعي الذي تتكلم عنه ما هو سوى التحول إلى وحوش غابة والنفاق والكذب والطمع والجشع، قد

أفعل هذا أي نعم، ولكن حتى يحدث ذلك فسيأكلونني. المادة فقط هي السيف البتار الذي به يعلى المرء أو يذل، كذلك كان الإنسان منذ أول وجوده، فلا تغيير، وكل من يروم التغيير فعليه أن يروم ذلك السيف، وإلا فعليه أن ينسحب إذا كان يريد درء الذل والمهانة عن نفسه'. قال وكأنه حسم الأمر، وكنت قد تعبت من الكلام، ورحت أفكر وشردت مثلما كنت أفعل دائمًا، منذ ذلك الذي حدث في مسقط رأسي وأخرجني منها. وعلمت ذلك لأني أفقت من شرودي والشمس قد خف لهيبها وقرب المغرب، فانتبهت لذلك وأين كنت، ثم خاطبت الرجل بعد أن أخرجت كيسين من مكانين متفرقين من داخل ثيابي، وكانا مبللين من العرق، ثم أشرت إلى الرجل وقلت: 'ليس لي سوى حل واحد؛ هذا مبلغ من المال يكفي لأن تكتري منزلًا لسنتين ويكفيك مؤونة سنتين أيضًا، عيشة لا بأس بها، وما دامت هذه الرضيعة معك فعليَّ أن أبعث إليك ما يكفي كل سنتين حتى تبلغ؛ هذا إن اخترت أن تذهب يمينًا إلى قرية كنت قد مررت عليها هذا اليوم'، انتبه إليَّ وقد جحظت عيناه، وبدت عليه دهشة عميقة وهو يحاول فهم كلامي وبلوغ ذلك الذي أرمي إليه فعلًا، ولأول مرة بدأ بتفحصي وتفحص هيئتي، ثم نظر إلى الكيسين الممدودين إليه وأنا لا أزال أتكلم: ‹أو أن تذهب إلى مكان آخر في الشمال؛ ذلك أنني لن ابرح المكان ما دمتَ هنا؛ فعليك باليمين أو الشمال، سأترك الكيسين هنا، وأذهب للجلوس عند تلك التلة وأراقبك طوال الوقت'. وضعت الكيسين على الأرض ثم قمت واتجهت إلى الرابية شرقًا. جلست هناك وانتظرت وعيناي لا تزيغان عن الرجل وهو يحمل الرضيع على

حجره ويتأمل في الكيسين وبين الساعة والأخرى يرسل إليَّ نظرات غامضة. وأظلم المكان وساد الليل ولم أعد أبصره، ولم يبقَ لي سوى الاستماع لأي صوت ينمو إليَّ من ذلك المكان، وبقيت مترقبًا وأنا أفكر في كل الاحتمالات في ما إذا كان قد رحل ولم أعرف الوجهة التي اتخذها، ولم أفكر كثيرًا في الذي كنت أفعله، وفكرت أنه لم يكُن هناك من حل آخر سوى الذهاب للمكان، ولكني لم أشَأ فعل هذا والتنغيص على الرجل وتبديل رأيه أو الانتظار هناك. ومر الوقت بسرعة عليَّ؛ ذلك أنني غفوت ثم استفقت ولم أشعر بالجوع، لكني غفوت من جديد وطالت غفوتي لأن الفجر كان قد هجم وأنيرت الآفاق، وبعد أن بسق نور في المكان لمحت الرجل وهو يمشي، ولمفاجأتي كان متجهًا يمينًا، تأملت المنظر، وأحسست بأمل، وطال تأملي، وبعد أن غاب الرجل عن البصر استلقيت على الأرض ونمت نومًا عميقًا لم أنَم مثله منذ زمن. أما ما حدث بعد ذلك، فقد ذهبت إلى القرية أين توجه الرجل، واستفسرت عنه وعن عنوانه وراسلته، والآن كلما يغير عنوانه أتلقى عنوانًا جديدًا، اهتممت بالأمر جيدًا دون أن أعرف عنه الكثير. هذا غريب ولكنه وقع ولا يزال واقعًا». ساد الصمت من جديد، وقطعه مسعود مرة أخرى بأن أبدى تعجبه من هذه القصة، ولكن منظر موسى المرتبك والغائص في بحر أفكاره حال دون أن يسأل أسئلة، كما أن حاجة في داخله كانت تلح في معرفة ذلك الذي يربط بين حالة موسى وتلك القصة وما رافقها من خواطر وحالات نفسية عرضها موسى على مستمعه. والتقت عينا موسى فجأة بعيني مسعود وهو يراقبه، فراح الأول يقول وقد بدا أنه فهم مغزى نظرات مسعود:

«**لعلك تتساءل عن التناقض الذي أبديه من خلال قص مثل هذه القصة وما تنطوي عليه من أفعال نبيلة قمت بها، والحالة التي أنا فيها والتي تنفي أن يكون لي مثل ذلك التاريخ، حتى أنا أتساءل عن هذا، يبدو لي الأمر غريبًا جدًّا، كما أبدو لنفسي أكثر غرابة**».

«**الأمر يا ولدي موسى لا يتعلق بالغرابة أو التناقض، بل بالمنشأ ومصدر ما تحس به، قد يكون مرده أمانيك، وذلك الذي كنت ولا تزال تنتظره من الحياة**».

«**أنا لا أنتظر أي شيء من هذه الحياة**» رد موسى بعصبية، ثم استأنف بنبرة معتدلة تحاول التخفيف من حدة آرائه وكي يستبدل بأي انطباع سيئ آخر واقعيًّا: «**نحن البشر عرضة للكثير من الحوادث الغريبة، ولا يمكن تفسيرها كلها، الأمر الوحيد الذي نحسه هو حاجة لأن نتصرف على وجه ما. أكره أن أُرجع هذه الحاجة لقانون البقاء، لا أدري لماذا، أريد أن أكون واقعيًّا، وهذه الفكر هي واقعية والجميع يأخذ بها، ولكن الأمر يتعلق بالأولوية، وبأن أمرًا آخر أعلى من هذا القانون -هو قانون أيضًا- يتحكم في أفعالنا ومصائرنا**».

«**طبعًا هناك ما هو أعلى من هذا، نحن لم نُخلق من أجل العيش فقط والرزق والبقاء، حتى الجرذان والكلاب تفعل ذلك وهي تبلي حسنًا، تأمل تاريخ البشر فقط وسترى**».

«**ليس إلا ويلات وألم، في كل شيء تناقض حتى في ما أحس به داخلي وفي كلامي، لا أدري لماذا، لعلها الأقدار ومشيئة الحياة تتهكم علينا، ولكن منظر البشر تعيس جدًّا، وأتعس من ذلك**

حيواتهم، ولكن قد يبدو كل هذا مسليًا لهذه الأقدار القاسية، القسوة تتسلى. وما أسهل ذلك عليها!».

«**ذلك التناقض يا ولدي ما هو إلا الصراع، أنت في حرب مع نفسك، لا أقول هذا للوعظ بل هو حقيقة مثلما قلت آنفًا، ويبدو أنك تعرف إلى أي طرف تريد الانحياز، ولكنك متردد لأسباب عديدة**». هز موسى رأسه بالنفي بعصبية ثم قال:

«**لا، الأمر قد حُسم، ذلك الرجل كان معه حق، ولو لم تكُن معه الرضيعة لا أدري ما الذي كان يمكن أن أفعله، ربما لا شيء؛ ذلك أنني الآن لا ألومه**».

«**كنت لتهتم، والرجل كان يهذي وأنت تعلم ذلك، أعني أن تفكيره غير سليم ولا يمكن أن تجعل منه مرجعًا. قمت بالصواب ولا أدري لماذا أنت غير مقتنع الآن، كان عملًا جد شريف**».

«**حسنًا، اسمع يا عمي مسعود، هذه الحياة هي مثل الكأس المثقوبة، ويا له من ثقب كبير! فأنت كلما صببت قيمًا فيها فهي لا محالة ضائعة من خلال الثقب، فالكأس دائمًا فارغة، كذلك هي الحياة؛ فكل الذي نعمله ينتهي بالاختفاء والضياع. وهذا الذي يقض مضجعي، نسبية هذه القيم تبدو من خلال وضعها في الحياة التي تبدي عقم تلك القيم، وهنا أتساءل: هل بإمكاني فعل ما فعلته مع ذلك الرجل والرضيعة في تلك الفلاة، أعني تجربة أخرى تحمل قيمة؟**». حدق في الأرض، وتأمله مسعود، تبسم الأخير ثم قال بابتهاج:

«**والله إن الأمر جد سهل يا موسى، فإما أن تتقبل الحياة وإما أن ترفضها؛ أن ترى ما فيها من مباهج وتسعد بها ومنغصات فتصبر، الله خلقنا هكذا وخلق الحياة هكذا، فلأن تسعد بما أنعم**

عليك الخالق وتصبر على ما نزل عليك من نوازل لهو الأجدر بك والأرحب لحياتك. ولكن لن تعلم هذا إلا إن سعيت، تريد أن تنال ولكن الحياة في أن تعمل وتقوم بواجبك، أن تكون امتدادًا لمثل أعلى، هذا ما يجب أن تكون عليه الحياة وما يجب أن يكون فعلك مُشاكلًا له». نظر موسى إلى مسعود وقد شعر ببعض الهدوء والسكينة، وأعجبه ما سمع، انتشى بذلك الصمت الذي تلا كلام مسعود، وأراد أن يعيش وفقًا لتلك المشاعر طيلة حياته. بيد أن خاطرًا آخر اعترض هذا الانتشاء بقرن حالته بذلك الأمل السعيد في الاختيار، أطرق ثم تنهد ثم قال:

«**لا أدري إن كان بإمكاني أن أختار، البعض يولدون سعداء والبعض الآخر أشقياء. حتى لو تمنينا وأحطنا أنفسنا بأسمى الأماني، فإن كل هذا سينتهي بسوط الحياة. وموت شقيقي السعيد نبهني لمعانٍ كثيرة، ولكنها كلها تُعارض هذا القول في الاختيار وتقبل الحياة. لا يمكنك تقبل الجلاد، لا، هذا أمر مرفوض**». ثم بعد برهة استأنف وكأنه تذكر أمرًا آخر: «**ماذا عنك؟ كل هذه المصائب التي تقع عليك أليست كافية لأن تُظهر لك صحة كلامي؟ أم إن أوهام الحياة لا تزال تشغل بالك؟**».

«**هي ليست أوهامًا، ثم إن الله أعطاني، ومثلما أعطاني يستطيع أن يأخذ، فلا يجب أن أغتر إن أقبلت عليَّ الدنيا وأبطر، ولا أن أنزعج وأحزن ثم أيأس إن هي أدبرت عني، مشيئة الله كانت هكذا، ثم إني في سن قد جربت منها الحلو والمر، وما ينتظر سوى الموت والحياة الأخرى. معرفة هذا تزيح الكثير من الأوهام، كما أنها تبعث السكينة والرضا**». ابتسم موسى، وبدا عليه عدم الاقتناع

بكلام محدثه، وفي تلك اللحظة سُمعت حركة عند الباب ثم طرق، فتقدم موسى إلى الباب وفتحه، وتقدم بديع إلى داخل الغرفة مبتسمًا ومسلمًا على موسى ووالده، ثم قال مخاطبًا والده: «**كنت أبحث عنك، ولقد خمنت أنك يمكن أن تكون هنا**». أجابه مسعود بأنه كان هناك منذ ساعة، فابتسم بديع من جديد ثم قال:

«**الحواس جاء إليَّ هذا المساء وكلمني عن لقائه بوحيد وأن وحيدًا أغلظ له الكلام، يبدو حزينًا من الأمر، لم يشَأ إخبارك ولم يذكر الأمر لي إلا لمعرفة رأيي وإذا ما كنت أشارك وحيدًا الرأي حول إقامة الحواس في المنزل المقابل. شعرت بالشفقة عليه، كما أنه يلاقي الأمرَّين للجهد الذي يبذله في عمله ولغربته**».

«**يا له من مسكين! هذا عمل لا يمكن أن يندر من وحيد، سأكلمه، وسأكلم الحواس أيضًا، وحيد يمكن له أن يكون جد غليظ في بعض الأحيان، لا أدري كيف اكتسب هذه العادة**» علق مسعود، ثم نظر إلى كأسه وقد ساد الصمت.

«**لقد شرحت للحواس أن وحيدًا حزين بسبب وفاة الوالدة، وأن المكان يُذكره بها، ولا علاقة للموضوع بجدنا المدفون في الضريح بجانب المنزل هناك. أخبره وحيد أن المنزل لا يسكنه إلا أفراد العائلة أو من يخدم ضريح سيدنا، نفيت هذا الأمر وطمأنت الحواس الذي أخبرني أنهم دائمًا يتضرعون لسيدنا**». توقف بديع فجأة وبدأ بالضحك، ثم تابع كلامه مخاطبًا موسى هذه المرة: «**حتى إن زوجته فتيحة تترك بعضًا من الطعام وتضعه هناك لكي تأكله القطط، وفي بعض الأحيان تذبح ديكًا كقربان لسيدنا**». لم تغادر الابتسامة وجه بديع الذي بدا أنه يعيد كلام الحواس في ذهنه

ويتخيل كل ذلك. كان جالسًا بجانب والده على الكنبة، أما موسى فبقي واقفًا، وبعد أن تأمل الأخير بديعًا سأله:

«**ماذا عن كل هذه الجلبة بخصوص البلدية والبرلمان؟ وما يحدث فعلًا؟ هل كل هذا صحيح؟ أظن أن البعض يريد الفوضى**».

تأمله بديع وقد غابت الابتسامة واتخذ وجهه صفة الجدية، ثم أجاب:

«**أي فوضى؟ كلاب وقد رحلت، هذا كل ما في الأمر. ثم إن الأنسب هو الذي سيحكم، هذا قانون طبيعي، هي سنة الحياة؛ أنت ضعيف فلا شأن لك بالقيادة، رابح عطية كان كذلك، والجميع كان يعلم أنه لم يحكم إلا بسبب انعدام من توفرت فيه الحنكة والقوة والقدرة على مواجهة الظروف. والآن هناك صراع لن ينتهي إلا بأن يظهر الأنسب ويعليه ويظهر الأرذل ويقصيه**».

«**ماذا عن أصدقائك؟ أراهم يريدون الفوضى، وأنت تريد القوة، هذا مزيج جد متناقض**» قال موسى متسائلًا وقد علت وجهه ابتسامة أظهرت لونًا جديدًا من شخصيته. لم يخفَ على بديع ما كان يرمي إليه موسى، فأجاب:

«**ألا ترى أن هذه الفوضى هي نفسها قوة؟**»، سكت لبرهة وهو يتأمل موسى الذي بقي صامتًا ثم قال من جديد: «**هي قوة فارغة لكنها تبقى قوة، أعرف أنها فارغة لأنها لن تظفر، والعبرة بالظفر، هو المعيار الوحيد والدنيا لمن غلب. أنا لا أتحدث هكذا للجميع، ولن أتحدث هكذا، ذلك لأن القوة هي العقل أيضًا والكثيرون يفتقدون لهذا، كما أن القوة هي مصدر النظام، حتى القسوة وإن ساءت الكثيرين فقد تكون المفتاح الوحيد للنظام، وتأمل ما فعله الطغاة وقواد الجيوش على مر الزمان؛ أراقوا الدماء ولكنهم أبقوا على الكثيرين في حاضرهم وفي المستقبل**».

«ماذا عن القيم التي نؤمن بها ونشعر باليأس إن لاحظنا إعراض الناس عنها؟» سأل موسى بسرعة.

«تقصد الأخلاق؟ كل ما أدى إلى الغلبة فهو محمود، وكل ما أضعف المرء فهو مذموم، وأنا لا أؤمن بأن هؤلاء الناس يؤمنون بالخير للبشرية، هم يؤمنون بهذا إما لأن هذا يدر عليهم نفعًا على وجه غير مباشر وطويل، وإما لأنهم ضعفاء وأمنهم يتوقف على إيمان الجميع بهذه القيم، فالكل يؤمن بالقوة ولكن عليه أن يلبسها ملبسًا معينًا، وما أكثر هذه الملابس! بالنسبة لي هو نفاق يندر عن خوف من مواجهة ما يجب مواجهته لنيل المراد، الكل يريد الجاه والسطوة، ولكن هناك القليل من يعترف بذلك، ويقولون إن القيم إذا انتصرت هي التي تجلب لصاحبها كل هذا، فهي جاه في حد ذاتها، هذا بالنسبة لي كلام جد مضحك». قام مسعود بعد هذا الكلام واستأذن موسى، وأخبر بديعًا أنه سيكلم الحواس ثم خرج من الغرفة. كان بديع ينظر إلى الأرض وقد بدا أنه يفكر في ما كان يتكلم فيه وما هو مزيد منه، فكان أن دقق موسى في هذا السلوك من جانب بديع ثم خاطبه قائلًا:

«لم يكُن يجدر بك التحدث هكذا ووالدك جالس معنا، هذا أمر يحزنه فعلًا، هل تتحدث هكذا مع أصدقائك الفوضويين، أعني بعرض كل هذه الأفكار؟».

«أولًا، والدي هو من الناس وعليه أن يعرف الحقيقة، وكلامي هو يعرفه، رأيته حياتي كلها وهو يعيش حياة مغمور، لم أحب قط هذا فيه، ربما أزعجه كلامي ولكنه سيسعد إن أنا نجحت. ثانيًا، فأنا لست بتلك السذاجة والغباء لأعرض مثل هذه الأفكار على الناس،

سيجلب عليَّ عدوانيتهم ويغدون مثل الكلاب المسعورة، أنا لا أعبأ إن أظهروا لي العداء، ولكن من الحكمة أن يظل المرء في طريق، وإن كان وعرًا لا يجب أن يكون أوعر بسببي أنا. زد على ذلك، فهم سيفهمون هذا الكلام على وجه واحد فقط؛ أي في علاقة مباشرة مع اللذة؛ أي تشريع اللذة دون قيود، وأنا ما أتحدث عنه يتجاوز مجرد الاهتمام باللذة وجعلها الهم الوحيد للإنسان، هي مهمة ولكنها ليست الأهم. أنا أتحدث عن سر وجود الإنسان ومعناه، وكل هذا الكلام هو كلام عملي ولكن لمن أحاط به. كما أنك تبدو مستصغرًا لكلامي وترى فيه سذاجة ورعونة شباب، أنا قريب من الثلاثين، وأعي ماذا أفعل، وإن غدًا لناظره قريب». وكانت ردة فعل موسى الوحيدة لنظرة التحدي والجدية في عيني بديع هي الهدوء، ثم ردد قائلًا وبتحدٍّ عاقل: «**أجل، إن غدًا لناظره قريب**». ونمت أصوات من خارج الغرفة إلى كليهما وهي تنادي بديعًا، حدس بديع أنها أصوات أصدقائه في الطابق السفلي، ولم يجد في ملامح بديع أي شيء يدل على إخلاص أو حتى جدية بديع مع أولئك الشباب أو عدهم حتى أصدقاء، تعجب من ذلك ثم رد على بديع مودعًا إياه، وبقي في الغرفة وحيدًا. ثم قام وذهب إلى الدولاب بجانب النافذة، وأخرج كومة أوراق من داخل حقيبة مخبأة في الداخل. وكان بين الفينة والأخرى يحيد خيط أفكاره إلى مسعود وابنه بديع، وتعجب من ذلك الاختلاف الكبير في شخصيتي الولد وأبيه، ولكنه استشف وشعر في نفس الوقت بتشابه كبيرٍ وأن ذلك الاختلاف وخصوصًا في نمط الحياة والطموحات لم يكن إلا شذوذًا لا يجب أن يكون. أما عن ذلك التناقض الذي أبداه هو نفسه في إبداء حالة من الخوار

أمام مسعود، ثم الظهور بمظهر العاقل الحصيف أمام بديع، فقد ملأه بالابتهاج والسخط في نفس الوقت؛ ذلك أنه لم يكُن يريد أن تكون حياته نسبية ولا تحمل أي قيمة إلا باحتكاكه بالآخرين، هذا الاحتكاك على وجه واحد وهو ابتغاء الإرضاء؛ إرضاء الآخرين وما يندر عن هذا من اختفاء ومجاراة للسيل، وانتهى به التفكير بالشعور بامتنان عميق لمسعود لتجاهله حالة ضعفه ومعاملته على نفس الوجه الذي عامله دومًا به.

وجلس على الكنبة أين كان مسعود جالسًا، ووضع كومة الأوراق على الطاولة وراح يمعن النظر فيها، كان البعض منها مطويًّا والآخر مفتوحًا، كما كان هناك غلاف رسالة واحد غير مفتوح جانب هذه الكومة. ومن هذه الكومة فقط رسالة واحدة كانت رسالة مفتوحة، إضافة إلى الرسالة غير المفتوحة التي استولت على اهتمامه وجعلته شديد التفكير فيها. أما الأولى فكان على علم بمحتواها لإعادته قراءتها عدة مرات، لكنه كان لا يزال يريد قراءتها من جديد، لم يَدرِ لماذا، ولكن حاجة في داخله كانت تروم ذلك. لم يكُن ليفكر في تلك الرسالة في تلك الليلة لولا حديثه مع بديع، بدا وكأنه أجبر على الدخول في أمور لم يكُن يريد الدخول فيها، ولكنه فكر أن كل هذا كان مجرد مصادفة وأن الأمر بيده، ومثلما كان قد اختار من قبل في ظروف مشابهة فسيختار من جديد ويكون الأمر مثل ما تمليه عليه طبيعته وليس ما تمليه عليه نزوات الآخرين. حمل الرسالة المفتوحة وأخذ يتأملها؛ كانت في ثلاث صفحات ونصف الصفحة، وتجاهل صفحة التمهيد وكل هذا، وراح يقلب نظره في الصفحة التي أهمته، وكانت الكلمات تغوص في عقله لتتعرض للتمحيص والاستزادة من

إدراك المعاني التي تحملها. استغرقه هذا بعض الوقت، لم يَدرِ إن كان قد أحرز من كل هذا أي نفع، ثم بعد أن أدرك هذا أخذ في القراءة:

«**لقد علمت بمكانك الحالي بالمصادفة، ولكن هذا لا يهم، ما يهم هو أني أستطيع الآن أن أطلعك على ما يجري فعلًا وما الذي فاتك، ليس هنا في هذه الرسالة، ربما في رسائل قادمة، نعم بالتأكيد. أما هنا فأريد أن أقول إن ما كنت أخبرك به دومًا قد أظهره الواقع حقيقة ولم تكُن تخاريف مثلما نعتها، ومثلما كان كلامي على حقيقة فإن اختيارك للأمكنة هو حقيقة مثيرة للاهتمام؛ ذلك أننا نتشارك في الكثير من الأمور، ويبدو أن الأمكنة التي تشد انتباهك لها نفس التأثير عليَّ. كلانا لا يعيش لنفسه، هذه حقيقة أخرى، وجودك له نفع كبير على من حواليك، أما وجودي فيغير للأفضل، لا تفهم من كلامي أي شيء أكثر من ذلك الذي عزمت على التفاني من أجله. هو قدر قد جمعنا وجعلنا نتصرف على نحو وإن لم نشأ ذلك، هو أمر أكبر مني ومنك. ولقد سمعت بكل الذي حدث هناك، وموت شقيقك السعيد، أحزنني، ولكن لأصدقك القول فإنه مات موتًا لم نعرف به حقيقة موقفه من كل هذا الذي نحن فيه. قد تقول إنه لا شأن لك في هذا الذي نحن فيه، وإن موت السعيد هو إشارة وإنذار لك بالابتعاد عن كل هذا، ولكن هيهات، لا يمكن لأحد أن يفر من قدره يا موسى، ستقول غدًا إن الرازي معه حق. ومثلما قلت لك؛ فهو أمر أكبر مني ومنك؛ ذلك أن ما أراه هو ما يجب أن يكون، ليس لأن هذا هو أمنيتي أو رغبتي، بل لأنني ألمح فيه قانونًا طبيعيًّا يجب أن يطبق، وسيحدث رغمًا عني ورغمًا عن الجميع. من أجل هذا أحس بطاقة لا أجد لها مردًّا سوى هذا التكتل البشري من أجل -قد تقول التدمير- ولكني أقول**

التمهيد للبناء والاستبدال. الظلام يا موسى هو بشير للنور، وقد يولد البعض منا من أجل الظلام، نهدم ما يعوق الحياة الإنسانية من أجل بناء هذه الحياة واستمرارها. فكر في المستقبل يا موسى، إن هذه الحياة هي طريق طويل، ولسنا إلا في شق واحد فيه، وأقل ما يمكننا فعله هو تعبيد هذا الشق وجعله أيسر لمن هم قادمون. لم أعد وحدي مثلما تركتني، بل معي جماعة جد مخلصة وتؤمن بكل الذي أخبرتك به لتوي. لسنا حزبًا، بل نحن فرقة ونعمل خارج كل ما هو رسمي أو ما يحتاج إلى ترخيصات من هذا النظام، لا نحتاج لأي من هذا لأن ما حدث في الأشهر القليلة الماضية أثبت لنا حقنا في أن يكون لنا نصيب في هذه البلاد -والنصيب المادي هنا هو ثانوي وضئيل-، ولكن نصيبنا في الحكم، فهذا هو دورنا؛ أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، وما خلا هذا فهو مجرد إجراءات وعادات يمكن التشبث بها لاستمرار سلاسة النظام. أنا لا أعني الحكم كفرادى، أنت تعلم أن مثل هذا الطموح قد تركته خلفي، وما يسيطر عليَّ من مبادئ يحول دون أن ألهث وراء هذا الطموح المنحط، لكني أتحدث عن رؤية حلم يتجسد في الواقع بأن ننتهي من كل مسكرات العقل وميتافيزيقيات الروح وجشع طبقات من البشر، أن نعمل من أجل أن نزيح الطفيليات وكل ما يرمز لهم ويعينهم على استمرار نظامهم وعقلية حكمهم التي تسيطر على العقول، ستكون معنا، نعم يا موسى؛ ذلك أن في هذه البلدة أين أنت الكثيرين ممن هم في اتصال معنا، وهم عازمون على الكفاح وبذل كل ما يملكون من أجل انتصار هذه الأفكار وتغيير هذا الواقع، نبذ الفلسفة العقيمة وما يرافقها من خرافات متجاوزة لهذا العالم حول عوالم أخرى

والحياة من أجل الموت لذلك الذي بعد الموت، كل هذا يجب أن ينتهي. والطريقة المثلى لفعل ..».

وضع موسى الورقة على الطاولة وحك جبهته، ثم وضع يديه على وجهه وبقي يفكر، فهو لم يكمل قراءة الرسالة كلها لسأمه من الطريقة وذلك الحماس الذي وراءه بغية الإقناع، ولكن الأفكار كانت لا تزال عالقة في ذهنه ومعها التخمينات التي رافقتها والتي أطلقها عقله، إلا أنه كان يريد التريث للتثبت وتمحيصها جيدًا، وربط كل هذا بشخص الكاتب، الذي أدى التفكير فيه إلى إمساك الأوراق من جديد وتفقد الإمضاء الذي كان: الرازي رمضاني. بيد أن ما غلب على تفكيره في شخص صاحب الإمضاء لم يتجاوز الاستغراب والتعجب من الأفكار التي ذكرها في رسالته، فلم يَدرِ إن كانت مجرد حشو لإبهار قارئه ومنه إقناعه، أم أن الرجل فعلًا آمن بها دون أي طموح شخصي –مثل ما ذكره في الرسالة– وأن الأمر هو إيديولوجي رابض في عقله تكون لذته من خلال تحققه في الواقع. وفكر أنه كان في غنى عن هذا الهم الجديد، وأن عليه تجاهل الأمر فقط حتى ينجلي من عقله، غير أن هذه الفكرة كانت ترتد عليه ما إن يتذكر ما ذكره حول وجود اتصال بينه وبين جماعة هنا، فقفز تخمينه مباشرة إلى بديع ومن معه. توجس من الأمر خيفة، وحاول استبعاد أن يكون الأمر على هذه الحال، ولكن توجسه بقي فاستسلم له. وبينما هو مستسلم، علت ضجة وصياح في الطابق السفلي ذاب خوفه فيها وانتشى بها، ولوهلة استأنس برسالة الرازي وبكلامه. ثم نظر إلى النافذة، إلى الظلام، فابتسم وسبح عقله في تفكير عميق امتزج على نحو غريب بالفوضى في الطابق السفلي، حتى ارعوى وقد أدرك أن ليله يمضي وأنه لا يدري ما يجب أن يفكر فيه.

استقام زيد في جلسته وهو يراقب العمل الذي كان صوته يندر من داخل الضريح المقابل له. وكان يبلغ أذنيه في نسق واحد يجعل كل من يستمع إليه لا يشعر إلا بالاستسلام لصوت الفوضى لإدراك عقم إيقافها، وأن ذلك المكان المعزول خارج البلدة والذي لا يحاذيه سوى الطريق الكبيرة القادمة من البلدة، كان مرحبًا بتلك الفوضى ومشجعًا لها علامة على السبيل الوحيد إلى الإشارة إلى حياة من نوع ما يمكن لها اختلال المكان. ورمى زيد بنظره إلى داخل الضريح ولمح طرف قميص متدليًا لشخص كان يحجبه الحائط، وبدا أنه واقف في خضم عمل ما، ونظر إلى ساعته فألفى أنه قد مضت ساعة إلا ربعًا منذ قدومه، كان واقفًا في أولها ثم جلس إلى حين انتهاء العمل في داخل الضريح. وكان حول الضريح في البعيد منازل متباعدة فيما بينها، ومن أحدها لمح زيد شخصًا يقترب، وحسب عدة دقائق حتى بلغ الرجل باب الضريح، وكان يحدق في زيد وهو يمشي، ثم وقف وألقى عليه بصراخ لكي يبلغ سلامه زيدًا، فرفع الأخير يده تحية ورد السلام. دخل الرجل بعدها إلى الداخل وكان يحمل قفة، وبدا لزيد من بعيد جد طويل لانحنائه لدى تجاوزه

مدخل الضريح. توقفت الضجة بعد دخول الرجل بدقيقة، ثم سمع زيد أصواتًا تتحدث لم يَدرِ إن كانت شجارًا أم مجرد محادثة، وبعد أن أصغى جيدًا تحقق من أن هذا لم يكُن سوى محادثة. لم يشأ القيام وبقي قاعدًا، وبعد دقائق قليلة ظهر على الباب رجل كهل في قميص رث وشاش أبيض وجد خفيف غطى به رأسه بدل العمامة. كان لا يزال يتحدث ويرمي بكلامه إلى الخلف دون أن يستدير، لكنه توقف فجأة ما إن أبصر زيدًا، ثم رفع يده اليمنى وتقدم نحو زيد. قام الأخير من مكانه وتلقى الكهل الذي سلم عليه بحرارة، ثم تذكر زيد الكيس الكبير الذي كان إلى جانبه، فحمله وهو لا يزال مصافحًا الكهل الذي كان يقول:

«**والله يا ولدي زيد لم أدرِ أنك كنت هنا، لمَ لم تدخل؟ ومنذ متى أنت جالس هنا؟**»، لم يشأ زيد الإطالة في الحديث، فأخبر الرجل أنه وصل لتوه وأراد الانتظار حتى ينتهوا من عملهم.

«**أي عمل هذا يا زيد؟ أنت تعلم أنه أمر تافه جدًّا والتحضيرات لم تبدأ بعد. وأنت تعلم أن عمك الهاشمي يعمل وحده دائمًا، نعم أنا أعمل وحدي، اليوم فقط أتى أحمد بن رضوى ليساعدني، هو الذي كان يسبب كل تلك الفوضى، ليست عن عمد ولكننا أردنا أن نفتح فوهة صغيرة كمشكاة للتهوية، العام الماضي كدنا نختنق في اليوم الكبير**». ناوله زيد الكيس، ثم أخرج من جيبه ظرفًا وناوله أيضًا للهاشمي الذي أخذه بسرور شديد، ثم أصغى بانتباه إلى زيد وهو يكلمه: «**هذا ما أمرني والدي أن آتيك به، كما أنه يخبرك أن ما تنوي فعله كل عام من الأفضل ألا تفعله مثلما أخبرك سلفًا**». هز

الهاشمي رأسه تحسرًا، ثم خاطب زيدًا مستجديًا عطفه وشفقته التي يمكن أن تكون تمهيدًا لنيل عطف وشفقة مسعود، ثم قال:

«**هيهات يا زيد، عملي هنا هو كل شيء، ثم إنني جد مرتبط بسيدي بياض ولا أستطيع مفارقته، لا أعلم ما قد يحدث لي ولا ما كان سيحدث لو أن بركة سيدي لم تُحِطني بأن وهبتني شرف الاعتناء بهذا المكان المهيب. أنا أعلم ما يقصد السي مسعود، نيته سليمة ولكن ما يخبرونه به إفك وكذب، أنا لا أفعل هنا أي شيء سوى الحراسة والاعتناء بضريح سيدي بياض. ثم إن الأشخاص الذين يروجون الأكاذيب عني، هم أنفسهم كثيرو التردد على الضريح، إذًا لماذا أُحرم أنا؟ أنا أعلم؛ يريدون التخلص مني غيرةً وحسدًا منهم، ولكني لن أرحل وسأبقى هنا رغمًا عنهم**». لم يُجب زيد، بل ابتسم وأراد الانصراف، ولكن قدوم الرجل صاحب القفة، مع آخر قصير كان ممسكًا بمنشفة ويمسح يديه، نحوهما حال دون ذلك. وصاح الرجل صاحب المنشفة مخاطبًا الهاشمي:

«**والله يا عمي الهاشمي لو أننا فعلنا مثلما اقترحت عليك لكان أفضل، في الحائط المقابل كانت النافذة لتكون أجمل؛ ذلك أن هذه النافذة التي عملناها لتونا في الحائط الجانبي تبدو غير متناسقة ولن تعجب أحدًا**».

«**وهل عملناها لتعجب أحدًا يا أحمد؟ زد على ذلك أننا لو عملنا باقتراحك لكان الحر في الصيف والبرد في الشتاء قاتلينا لا محالة. ولكن الحائط الجانبي، الشمس لا تطل عليه إلا ساعات قلائل لوجود الشجرة خارج الضريح**». وتكلم الرجل صاحب القفة بأن يدخلوا ليشربوا القهوة التي جلبها، فاستحسن الهاشمي رأيه ودعا

زيدًا للدخول لكنه رفض، وبينما الهاشمي يلح إذ أقبلت مجموعة من الرجال كانوا ثلاثة، سلموا فرد الهاشمي عليهم السلام بفتور، وخاطبه أحدهم بعد أن تبادلوا الأسئلة عن الحال والآل مع أحمد وصاحب القفة:

«**ما بك يا الهاشمي؟ تبدو غاضبًا من شيء ما، ماذا فعلنا هذه المرة؟ الأولاد ومنعناهم من أن يلعبوا بمقربة من المكان، والنساء فأنا عن نفسي أمرتهن ألا يُطلن المكوث عند القبر كثيرًا، ماذا تريد أكثر من هذا؟ لقد أصبحت سيدًا فعلًا**». كان رجلًا أحمر في بدلة زرقاء مخططة، ولم يبدُ عليه أي شيء مميز، ورد عليه الهاشمي دون أن ينظر إليه ومخاطبًا أحمد وصاحب القفة:

«**الآن أنا ليس لديَّ كلام إلا معك يا أحمد وأنت يا بكر، يعني العمل هنا حتى الرأس والجميع يعلم ثم لا يتحمل المسؤولية سوى ثلاثة من الناس؟! هذا أمر عجيب. ومن ثم يأتونك ويسألون عن حالك، هذه صفاقة فعلًا. الجميع يريد الرقص والأكل فقط، أما المعاونة فلا أحد فالح فيها، والفلاح في الكلام فقط والأكل**».

«**وكيف نعاون يا الهاشمي؟ ألم نجمع ما يكفي من تبرعات ومال من أجل التحضيرات واليوم الكبير؟**» تساءل نفس الرجل ثم علق: «**أعتقد أني أعرف ما الذي يغضبك يا الهاشمي، ولكن صدقني أنا لم أغفل عن هذا، والزوجة في المنزل قد بدأت مع البنات في الطبخ من أجل الغداء، كل يوم على أحد منا إلى أن ينتهي موسم الاحتفال**». تهللت أسارير الهاشمي فجأة، وكان أسمر وبعينين كبيرتين، ثم استدار للرجل لأول مرة وخاطبه:

«**ومن كان يتكلم عنك يا عبد الحميد؟! لو كان جميع الناس مثلك لكنا الأفضل على الإطلاق، ولكن أنت تعرف يا السي عبد الحميد مع من أتعامل أنا في هذا الحي، لا أحد يريد المساعدة، وفقط القلة أمثالك مَن لديهم قلوب ويعرفون الواجب ممن يتولون المسؤولية دائمًا، ففي كل عام نفس الأشخاص، بارك الله فيك**». ابتسم زيد وود لو أنه يرحل في تلك اللحظة ليضحك وحده في الطريق، واستمر الكلام ثم ذهب الرجل معللًا بأنه سيِتفقد أمر الطعام ويوصي أولاده بأن يجلبوه ما إن ينتهي، ولكنه لم يكد يخطو خطوات حتى رجع بعد أن سمع أحدهم يلقي سلامًا على الجماعة، فاستدار ورجع.

ووقف أمام الجمع أين كانوا أمام مدخل الضريح رجل في بداية الثلاثينيات ملتح وبقميص أبيض مقصر وطاقية بيضاء أيضًا، وكانت ملامحه جادةً وبدا من عينيه المكحلتين مصممًا على أمر ما. أجال بصره على الجمع، ولكنه بدا وكأنه لم يلحظ زيدًا الذي راقبه جيدًا، وبعد أن رحب الهاشمي بهذا الوافد –وإن بخوف وترقب وجل– قال الرجل مقاطعًا الهاشمي:

«**ما كل هذه الجلبة التي تحدث في المكان؟ أكل عام هكذا؛ كفر وشرك بالله؟ ولا أحد يتحدث ولا أحد تأخذه الغيرة بأن يضع حدًّا لهذا الضلال والتعدي على حدود الله. أريد أن أعرف ما الذي يحدث فعلًا؟**». نكس بكر رأسه وحدق أحمد في الرجل، أما عبد الحميد فنظر بعيدًا وكأنه يقيس طريق عودته، فيما أجاب الهاشمي بنبرة أظهرت ذعره من الرجل ورغبته في إرضائه والتخفيف من غضبه:

«يا عبد الرحيم نحن لا نفعل أي حرام هنا، هذا مكان طاهر ومقدس ولديه حرمة علينا، وما سمعته لا يعدو التحضير لاحتفال نقوم به كل عام، وكان أجدادنا دومًا يقومون به، يعني هذا ليس جديدًا. كما أن هذا ولي من أولياء الله، والله نفسه سيفرح لأننا نحتفل بحبيبه، ونحن لا نسيء ولا نضر أحدًا يا السي عبد الرحيم، فعلًا. وأحباب الله يأتون من كل مكان من أجل الاحتفال، فهو يجمع الجميع ويُذكرهم بالله».

«الشرك لا يُذكر بالله، بل هو يُبعد عن الله وهو ضلال، والأطفال يراقبون كل هذا ويرون فيه الفعل السوي، ولكنه لا يجلب سوى غضب الله. هذا الأمر لا يجب أن يتم، وكل الإخوة يشاركونني رأيي، يعني إن تم الأمر بعد شهر -مثلما بلغنا الأمر- أو حتى قبل هذا إن رأينا عزيمة على المضي في هذه المعصية فسيكون كلام آخر، وقد أعذر من أنذر. لا أحب الكلام كثيرًا، حتى هذا المكان لا يجب أن يكون، ويجب أن يندثر بأن يمحى، ولكن هذا ليس وقته، وسيأتي الوقت المناسب لفعل هذا، لا تقلقوا». قال هذا بنبرة تحدٍّ، وكان زيد قد مشى بعيدًا بعد أن سمع أغلب الكلام وفهم مغزاه، ولم يُرِد أن يكون في وسط هذه المشكلة، وبعد أن دار بعض الحديث بين عبد الرحيم والهاشمي لم يكن زيد قد ابتعد كثيرًا عن المكان حتى سمع صوت عبد الرحيم وهو يناديه، فاستدار وألفى الآخر قد مشى مبتعدًا هو أيضًا والهاشمي يصرخ بصوت مهيض: **«يا السي عبد الرحيم، دعني أشرح لك الأمر فقط، أو انتظر حتى تسمع من الشيخ الطاهر خليفي، يا السي عبد الرحيم»**. ولكن الأخير لم يتوقف، واستأنف زيد المشي لدى لحاق عبد الرحيم به، فمشيا جنبًا لجنب.

واستكمل عبد الرحيم إبداء حنقه من موضوع الضريح والحفل الذي يقام كل عام لصاحب الضريح الولي الميت، ووصفه بالشرك أيضًا، وزاد على ذلك: «**هؤلاء الصوفية هم من أكبر أعداء الدين، يجتمع لديهم كل الضالين؛ من مرجئة وقدرية وأشاعرة وحتى الروافض والزنادقة المثنويون. ويقولون إن هذا هو الدين الصحيح، ويصفون أنفسهم بالتسامح، ولكن ما هو إلا ضلال، والساكت عن الحق شيطان أخرس». وبعد أن سكت هنيهة حدس من خلالها زيد أنه سيحول الكلام إليه، قال: «لا أدري ما الذي كنت تفعله هناك أنت، ولكن أيًّا كان فعليك أن تدرك أن زيارتك لذلك المكان هي جرم وذنب، حتى الطريق لا يجب أن تمر من هناك وعليك أن تتفاداه وإن تسبب هذا في تضييع وقتك وشغلك؛ لأن الله أولى. أنا أعلم ما يجري، وخالي مسعود لا يجب أن يساعد مثل هؤلاء الضالين، لأنه يشجع على الضلال، كنت قد أخبرته بهذا مرارًا، ولكن أطلب من الله أن يهديه؛ ذلك أنه في طريقٍ تحيد عن الطريق الصحيحة. دعني أسألك فقط، أنت مؤمن ومصلٍّ؛ لنفترض أن أحدًا لا يتكلم معهم ويبقون وحدهم بعقيدتهم تلك، ثم يصبح كل الناس يقصدون مثل هذه الأضرحة حتى يصبح أصحاب الأضرحة لهم قدسية في ذاتهم ومن أجل ذاتهم ويشركون مع الله، هل ترى في هذا أمرًا يصلح أم أنه كفر؟**».

«**أنا لا علم لديَّ بهذا، ولكن كلًّا مسؤول عن أفعاله، ولا أرى أن لي الحق في أن آمُر أي أحد حتى ولو ظننت أن ما يفعله هو عكس الصواب أو حتى خاطئ؛ ذلك أن هناك مرجعية وسلطة أعلى هي التي تفصل في هذه الأمور، وهي الضمير. وإن مضى كل**

شخص في البلاد في تطبيق ما يظنه صوابًا، أو استئصال فعل ما أو أصحاب فعل ما، فستكون فوضى». توقف زيد عن الكلام بعد أن رأى أن ما قاله يكفي، ولوهلة بينما هو يترقب رد عبد الرحيم اجتاحه أمل في أن يوافق عبد الرحيم على كلامه وألا يعترض، وكان رد الآخر سريعًا بأن قال:

«**هذا كلام ينم عن عدم مبالاة، التوحيد ليس أن تقول لا إله إلا الله فقط، أن تشرك مع الله في عملك هواك وحتى أشخاصًا آخرين فهذا شرك أيضًا، والإيمان ليس قولًا فقط، بل هو قول وعمل. وكل هذا إذا تخلله شرك وتغافل عن العمل الذي يجب أن يكون نتيجة الإيمان، فهذا هو الكفر بعينه والتطاول على حدود الله. وكل هؤلاء المبتدعة ماذا يفعلون؟ أليس هذا عدوانًا على الدين؟ اسمع، أنا أؤكد لك أن هذا لن يتم أبدًا، لا أقول هذا وحدي فقط؛ بل هناك من لهم غيرة على الدين والحمد لله، ومستعدون أن يبذلوا كل شيء. وما يحدث في البلاد هو دليل على أن الدائرة تدور على المنافقين والمبتدعة، وأننا سننتصر إن شاء الله**». حدق زيد في عبد الرحيم الذي كان يسرع في المشي، ثم سأله: «**ومن هؤلاء الذين معك يا عبد الرحيم؟**»، لم يُجب عبد الرحيم مباشرة، بل بدا يفكر في أمر ما وإن كانت الرغبة في الكلام لا تزال تعتريه، وخمن زيد أن سؤاله لم يعجبه، وزاد شكه لدى تجنبه الإجابة عن السؤال بالحديث عن أمر آخر:

«**بديع أيضًا لا يعجبني حاله البتة، لا أدري لماذا لا يتكلم معه خالي مسعود، وفوق هذا يعطيه منزله ليأوي فيه مجموعة مارقة لديها طموحات في أن تنشر الفساد والإلحاد**». لفتت الكلمة

الأخيرة انتباه زيد فسأله عنها: «**يعني أنت لا تعلم أنهم ينكرون حتى وجود الله ويسخرون من الصيام والصلاة؟ لو كنا في دولة تقيم الشرع لشنق هؤلاء جميعًا**».

«**هل أخبرك بديع بأي شيء يدعو إلى الإلحاد أو يدل عليه؟**».

«**لا، ولكن بعض الإخوة سمعوا أصدقاءه الذين يسكنون معه في منزلكم في العريبات يعلنون كفرهم وعداءهم للدين، نحن لم نتكلم لأننا ننتظر الفرصة فقط لننقض عليهم ثم الانتهاء منهم للأبد**». وكانوا قد ولجوا أول شارع لأول حي في البلدة، وكان زيد قد سئم من الكلام ولم يعجبه كلامه مع عبد الرحيم، وكانت النبرة التي استعملها عبد الرحيم -بالنسبة لزيد- أسوأ من الأفكار التي اكتست بتلك النبرة. وفجأة وجد نفسه يمشي وحيدًا بمحاذاة الطريق الكبيرة، فتوقف ونظر خلفه فأبصر عبد الرحيم وهو ينظر إليه ويناديه من الطرف الآخر من الطريق، مشى نحوه زيد، ووراء عبد الرحيم كان هناك جمع حول فتاة شابة، وإلى الجمع اتجه عبد الرحيم.

كانت الريح تشتد بين الفينة والأخرى، ولم يبصر زيد لدى اقترابه من الجمع سوى تعالي الجاكتات والقشابيات في الهواء، أما الفتاة فكانت واضعة ذراعًا على ذراع ويدها اليسرى تغطي عينيها وبدا أنها تبكي. تكلم عبد الرحيم بنبرة آمرة مع الواقفين هناك وأمرهم بالرحيل والاهتمام بشؤونهم. ولدى اعتراض البعض منهم نهرهم عبد الرحيم قائلًا: «**هي بنت خالي أيها الطفيلي، وهذا شقيقها**». **بلغ زيد المكان بسرعة بعد أن أدرك أن إحدى أختيه كانت تبكي في الشارع وفي ظروف غامضة، ولم يعبأ بالنظرات التي**

رميت عليه بل عدها مجرد علامات سكون وضعف. وضع يده على كتفها وناداها باسمها، فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينين مبلولتين بالدموع وقد توغلت في داخل الخمار الذي كانت تلبسه في أسفل ذقنها. وكان عبد الرحيم لا يزال ينهر المتفرجين ولكنهم وإن تحركوا للرحيل كانت حركتهم جد بطيئة ونظراتهم لم تغادر الفتاة وشقيقها. فأمسك زيد ذراع شقيقته بلطف ومشى معها مبتعدين عن المكان وعبد الرحيم خلفهما. كان منظرها لافتًا للانتباه لكل من رآها، وكان زيد قد بدأ يشعر بالهلع، وحاول تذكر أول نهاره كيف كان، ففكر أنه كان هادئًا جدًّا وأن فقط التطلع للسعادة وما هو مرغوب فيه هو الذي حاز على النصيب الأكبر من تفكيره، وقارن بين تلك الساعات الأولى من النهار وهدوئها وبين تلك اللحظة وما سيتلوها. ولم يكُن ذلك التوجس وقوته سوى نتيجة معرفته جيدًا بشقيقته سهام وأنها قلما تبكي، وإن هي فعلت فلأمر جلل. ومع مرورهم على ساحة البلدة كان الكثير من أصحاب المحلات قد خرجوا مع من كانوا معهم وأخذوا يراقبون زيدًا وشقيقته وعبد الرحيم، حتى إن الدراجي النجار خرج من ورشته وهو مغبر وصاح باتجاه زيد: «خير إن شاء الله؟». لم يُجبه أحد واستكملوا سيرهم. ولكن كل هذا لم يعجب زيدًا، وشعر بحنق لم يعرف تجاه من، ولكنه كان تجاه كل من كان سببًا في ذلك، وتفكيره خلال كل ذلك الوقت لم يغادر شقيقته وإذا ما كانت بخير أم لا. بلغوا المنزل، وكان عبد الرحيم قد دخل معهما، واستأنس زيد بوجود عبد الرحيم؛ ذلك أنه كان متأكدًا من أمانة الشاب وتعلقه بأسرة خاله. ولجوا غرفة الجلوس، وما إن جلست شقيقته حتى راح زيد يسألها عمَّا يجري:

«**قولي يا سهام، ماذا حدث؟ تريدينني أن أنادي منال؟**»، وهنا زاد بكاؤها وتحول إلى نشيج، وكانت قد تعلقت بحجابها واضعة رأسها على ركبتيها، ثم خفت نشجيها إلى أن توقفت، وكان كل من زيد وعبد الرحيم يترقبان وقد أسرع الأخير إلى المطبخ وجلب كوب ماء. وبعد عدة أسئلة واستفسارات من جانب زيد وحث من جانبه لسهام من أجل الكلام، بدأت الأخيرة بصوت متقطع:

«**شككت في الأمر هذا الصباح عندما وجدت حقيبة مملوءة بالملابس وأخرى مفروشة على السرير، سألتها فقالت إنها ستأخذ الملابس للصدقة وضحكت. ثم بعد خلو المنزل أرادت الخروج حاملة الحقيبة فأبديت رغبة في مرافقتها، رفضت رفضًا تامًّا، ثم أشرت بأن نخرج معًا لأنني فكرت في زيارة صديقتي إيمان فأخبرتني أن طريقها مختلف. كان يجب أن أعرف لأنني منذ أشهر ألاحظ تصرفات غريبة من جانبها**». ثم بكت من جديد، إلا أن بكاءها لم يكُن مستفزًّا بل ناخرًا لأعصاب الشابين وخصوصًا زيد الذي ألح عليها في استكمال حديثها: «**ليس هناك الكثير، فقط كانت سيارة قد توقفت فذهبت إليها، وفتحت الباب الخلفي، وبينما هي تريد إدخال الحقيبة هرعت إليها وقد فهمت الأمر، فصرخت في وجهي وطلبت مني أن أتركها، بقيت متشبثة بذراعها وهي تحاول فك نفسها وفي نفس الوقت فتح الباب الأمامي، وكنت قد أبصرت شابًّا عند المقود وهو منحنٍ وينظر إلينا، استطاعت الانسلال إلى السيارة رغم إمساكي بذراعها والكلب الذي في السيارة كان يقول لي: ‹اتركيها وشأنها›، ولكني استسلمت بعد إدراكي إصرارها وتركتها تغلق الباب، ثم انطلقت السيارة مبتعدة. بقيت وحدي في الشارع**

وكان الناس قد توقفوا وبدؤوا يحدقون فيَّ، وبعد زمن أقبل إليَّ بعض المارين ممن لم يدروا لماذا كنت أبكي وبدؤوا في الاستفسار إلى أن أتيتما». ولم يذر لها زيد ولا عبد الرحيم وقتًا للتفكير في ما قالته، أو الفرصة لزيادة أمر كانت قد نسيته، ومن لحظة توقفها أخذا في طرح سيل من الأسئلة عليها، لم تجد من بد سوى أن تجيب عن بعض من الذي كانت موقنة به، وكان أغلب إجاباتها النفي.

«**يعني كيف لا تعرفين من الرجل الذي كان يقود؟ تذكري، أظن أنك تعرفينه، أو على الأقل اذكري لنا مواصفاته عل أحدًا منا يعرفه، هيا يجب أن نتحرك الآن يا سهام، هذا ليس وقت البكاء، يا ربي**». زاد هذا الكلام والإلحاح من طرف زيد من حدة بكاء سهام التي لم تُجب بأي كلمة واستمرت في البكاء، ثم خفت قليلًا بعد أن تدخل عبد الرحيم أيضًا:

«**هيا يا سهام، لا ندري، قد يكون هذا الرجل قد هدد شقيقتك؛ لذا يجب علينا أن نفعل أي شيء قبل أن ينزل بها أي مكروه، وخالي مسعود يجب أن يعلم أيضًا لكي نتحرك في أنحاء متفرقة**». لم ينَل عبد الرحيم كذلك من استفساره أي شيء، ولم تتكلم سهام إلا بعد بضع دقائق بعد أن كان الشابان مستغرقين في التفكير حول ما يجب فعله: «**منذ أشهر عدة وهي تتحدث عن ضيقها بالعيش في هذا المكان، وأنه باستطاعتها نيل ما تريد إن هي أرادت ذلك، وأنها تريد أن ترحل لكي تهتم بحياتها وتعيش عيشة أفضل، بدت غريبة جدًّا، والآن كل هذا يشرح كل ذلك الكلام، يا لها من أنانية!**». بقي عبد الرحيم محدقًا فيها بنظرات مستعطفة ومستفسرة عن معنى كلام سهام، وفي نفس الوقت متعجبة من

الكائن الذي كان يبكي ويتحدث بتلك النبرة. أما زيد فلم يشعر إلا بالضعف وبحنق شديد تجاه شقيقته سهام لتكلمها على ذلك النحو، ولكنه حاول إيجاد عذر لها من ذلك الذي وصفت به شقيقتها آمال بالأنانية. وافق سهام في تلك الملاحظة ولكن لم يبُح بذلك وفكر فقط في القادم وكيف سيكون، وبينما الصمت يخيم على المكان إذ سمعوا طرقًا على الباب، انتبهوا ثلاثتهم ثم مضى زيد نحو الباب وقد تبعه عبد الرحيم، أما سهام فقامت من مكانها وذهبت إلى غرفة أخرى. وعند الباب وجدا عجوزًا في حجاب بدت قندورة صفراء من تحته علامة على الانشغال بأمر ما، حيت العجوز زيدًا ثم قالت:

«**ما هذه الجلبة يا ولدي زيد؟ وأين والدك؟**».

«**لا أدري يا خالتي زهية، ولم نحدث أي جلبة، عن ماذا تتحدثين؟**»، ولم يكمل كلامه واستفساراته؛ ذلك أن البعض من نساء الحي كن قد أخرجن رؤوسهن وبعض الرجال توقفوا والأطفال ازدحموا خلف زهية التي قالت مباشرة: «**أين هي منال؟ كنت أريد أن أسألها في أمر ما**».

«**أي أمر هذا؟ هيا قولي**»، تدخل عبد الرحيم مباشرة وقد تجاوز زيدًا وخرج عند العتبة، وكان سؤاله وإلحاحه قد أربكا زهية التي قالت: «**هو شيء بيني وبينها**».

«**بينكِ وبينها، هاه؟ هيا انتهوا من هذه العادة البدوية، تتدخلون في شؤون الغير وتشمتون، سينزل الله بكم مصائب إن لم ترعووا. ولماذا نذهب بعيدًا؟ لو فتشنا في حيواتكم لوجدنا أقذر الأمور والعار هو الوصمة التي تتزينون بها**». ثم دخل وقد رجع زيد إلى الوراء ثم أغلق الباب. أعجب هذا الفعل زيدًا جدًّا، ورجع إلى

الداخل مع عبد الرحيم الذي كان كلامه موجهًا لجميع من كان واقفًا ينتظر ماذا ستأتي به زهية من أخبار. دخلا غرفة الجلوس، ولما لم يجدا سهام بحثا عنها حتى وجداها في غرفتها وقد استلقت على سرير على جنبها متوسدة ذراعها الأيسر وبدت نائمة.

خرجا من المنزل ولم يتعجبا عندما وجدا جموع ساكني الحي لا تزال متجمعة في جماعات متفرقة على طول الشارع، تجاهل زيد نظرات وكل ترقب من جيرانه لاستفساره، وبعد أن ابتعدا قليلًا أبصر زهية وهي تحدث ثلاثة رجال من الحي وبدا أن موضوع حديثهم لم يكُن إلا عن آل نوح. كان زيد قد طلب من عبد الرحيم الخروج بعد أن تحققا من سلامة سهام، وبمجرد ابتعادهما عن الشارع المؤدي لمنزل زيد قال عبد الرحيم مستفسرًا وبنبرة أبدت امتلاكه لاقتراح كان يريد أن يعرضه على زيد:

«**أين تنوي الذهاب الآن يا زيد؟ لا تقل الشرطة، أرى أنه يجب الانتظار لتفادي أي شيء يمكن أن يسيء إلى العائلة**». لم ينظر إليه زيد، بل بقي صامتًا لدقيقة ثم سأل عبد الرحيم عن ذلك الذي يراه صائبًا، لإيقانه من صعوبة التفكير الصائب من طرفه وأنه قمينٌ به أن يلجأ إلى رأي شخص يعنيه الأمر، ولكن دون أن يكون مثقلًا بالضغط تمامًا مثل عبد الرحيم الذي قال: «**نخبر خالي مسعودًا أولًا، هو الذي سيعرف ما الذي يجدر بنا فعله. لنذهب إليه في المحل، هو هناك لا محالة». لم يعرف زيد إن كان عليه الاعتراض والاستفسار أكثر أم استبعاد الفكرة والمضي في ما كان قد عزم على فعله، لكنه وجد نفسه منساقًا فجأة إلى المشي باتجاه الساحة ثم عبورها إلى الجهة الأخرى أين كانت مجموعة من**

المحلات. وعند بلوغ المكان وقفا عند محل للأقمشة، وأعمدة أقمشة ملفوفة كانت معروضة في الخارج إضافة إلى سجادات وزرابي. ولما أبصر زيد بعض الناس في الداخل لم يميزهم، آثر الانتظار في الخارج قبالة المدخل، ثم استدار وألقى نظرة خلفه ثم إلى السماء بعد أن لاحظ تغير الجو وتلبدت السماء بالغيوم حتى أضحت رمادية. دخل عبد الرحيم، وبعد أن سمع زيد ابن عمته يسلم على أحدهم دخل وتلقاه رجل في سن والده بابتسامة فسلم عليه مناديًا إياه: «عمي ساعد»، وبعد أن وقف هناك لبرهة منتظرًا والده، أخذ عبد الرحيم يتحدث مع ساعد، والأخير يخبره أن مسعودًا كان قد غادر مع أحد معارفه من أجل أمر ما: «**ولم يقل إن كان سيعود أم لا، انتظراه، هو يعود دومًا قبل الغداء بقليل. وأنت يا زيد، كيف الحال؟**». رد زيد بكلمات مقتضبة ثم سكت من جديد. ولم يطل انتظارهما حتى دخل مسعود مع رجل آخر في برنوس، وبمجرد رؤيته لزيد تهللت أسارير مسعود وبدا فرحًا لرؤية عبد الرحيم كثيرًا، الذي سأله مطولًا عن أخته وصهره. استأذن زيد في التكلم مع والده للحظة فخرجا، وحاول زيد الابتعاد عن المحل قدر الإمكان، وكان قد عجز أول الأمر بعد انفراده بوالده، وبدا له الأمر جد مرهق ومكلف. وبعد أن استجمع قواه أخبر والده عن خبر هروب ابنته مع رجل غريب، حاول الاختصار قدر الإمكان وإفهام والده جيدًا الذي اكتفى بالنظر بعيدًا ثم رمي نظرات اهتمام باتجاه زيد، وبعد أن انتهى الأخير قال مسعود: «**بلاء نزل علينا وعليها أيضًا، كلٌّ على نفسه بصير، قد نجدها قريبًا وقد لا نفلح في ذلك، سأذهب أنا، وأنت ابقَ مع سهام، سنرى ماذا سنفعل**». لم يقل

مسعود أكثر من ذلك، وأراد زيد الاستفسار ولكنه لم يجترئ، وبدا له كلام والده مبهمًا وحتى ينقصه بعض من الاهتمام الكافي. ولدى تحرك مسعود باتجاه المحل كان عبد الرحيم واقفًا عند المدخل، وفي تلك اللحظة أقبل الهاشمي قاصدًا مسعودًا، وناداه ثم سلم عليه بحرارة بالغة على مرأى من عبد الرحيم. كان واضحًا أن عبد الرحيم مغتاظ من وجود الهاشمي في ذلك المكان، وأن وجود الهاشمي لم يكُن من أجل سوى ما حدث أمام ضريح الولي بياض، وذلك ليشكو عبد الرحيم إلى خاله مسعود. أمعن مسعود النظر في الهاشمي ثم راقب عبد الرحيم، أرجعه صوت الهاشمي إليه بعد أن خاطبه سائلًا عن حاله وحال آله، فأجابه ثم التفت إلى زيد وعبد الرحيم وطلب منهما أن يسبقاه إلى المنزل. رحل الشابان، وكان عبد الرحيم يلقي نظرات لا تنتهي خلفه بأن يتوقف بينما هو يمشي مع زيد ثم يستدير فجأة، ولم يكُن ليتوقف عن فعل هذا لو لم يدخل مسعود والهاشمي إلى داخل المحل وغيابهما عن نظر عبد الرحيم.

لم يريا مسعودًا بقية اليوم، كما أنهما كانا قد عادا إلى المحل في أكثر من مرة، وفي كل مرة يخبرهما ساعد بأنه «**لم يعُد، ولم يقل إلى أين هو ذاهب». حير هذا الأمر زيدًا وعبد الرحيم ووحيدًا أيضًا، الذي سمع بالخبر من الخارج وانخرط في شجارين بسبب الأمر، وكان يستشيط غضبًا ولا أحد يجرؤ على محادثته. ولم تسلم من نوبة غضبه شقيقته سهام التي لم تستطع الإجابة عن كل أسئلته وأجابته بما أجابت به زيدًا وعبد الرحيم قبله بالبكاء والنشيج. أغضب هذا وحيدًا أكثر، وسبها وسب منال ووصف العائلة بالخرق والغباء وأنها مجلبة للعار: «في البدء كان أسامة، ذلك الذي لا**

أدري ماذا كان يظن نفسه: عنترة أو الشنفرى، والآخر مع مجموعة من المجانين يريدون الفوضى، والآن هذه المومس التي لم تُبقِ شيئًا لنا، يا الرب العالي، أنا لست مجبرًا على العيش هكذا. كلٌّ يتحمل مسؤولية نفسه. ولماذا يجب أن أشعر بالعار أنا؟ إذا هي لم تستحي فلِمَ أستحيي أنا ممَّا يقوله الآخرون؟ والآن من هب ودب أصبح يجترئ عليَّ ويقول لي: ‹ربوا أولادكم وأخواتكم›، إلى هذا وصل بي الحال. ومن أجل ماذا؟»، ولم يكمل كلامه ومضى مسرعًا متجاوزًا عبد الرحيم، وخرج من المنزل. وما حدث قبل المغرب بقليل كان هجوم الكثير من نساء العائلة وعلى رأسهن الخالات والعمات على المنزل، واقترين من سهام وحاولن أن يخففن عنها وهن لا يتوقفن عن السؤال عن مسعود ووحيد. وكان زيد يراقب كل شيء وما يند عن كل من خالاته وعماته من ملاحظات ونظرات، أثر هذا فيه وتذكر أمه وشعر بالحزن، ولكنه شكر الله أنها لم تكُن على قيد الحياة لتعيش مثل تلك التجربة. غمره الحزن والشوق، واختزلت الحياة بكليتها في تلك المعاني التي سيطرت على تفكيره في تلك اللحظة، وهي العار والمهانة والشعور بالضعف والاتكال على رضا وسخط الآخرين. وتساءل وهو في تلك الجلبة العائلية عمَّا تعنيه فعلًا كل تلك الآراء الاجتماعية وسطوة المجتمع ورفعه دومًا لفأس العار والإقصاء، ثم تمنى لو أنه يهجر البلاد ويذهب إلى بلد أفضل مثل بلاد الشمال، وترقب الإقصاء بإسراع خالاته وعماته في الرحيل، وخمن أنهن لن يعاودن المجيء؛ ذلك أن تصرفاتهن أظهرت نوعًا من الخوف من ذلك الجو السائد في منزلهم وكأن الأمر مُعدٍ، وأنهن قد اقترفن خطأ جسيمًا بقدومهن في ذلك الوقت. واستأذن

عبد الرحيم أيضًا، وكان قد استأذن مرارًا خلال النهار لكن من أجل الذهاب إلى المسجد، وبدا أنه هذه المرة كان سيرحل، ولكن بدت عليه علامات العزيمة على المساعدة دون أن يرجح زيد إن كانت هذه العزيمة ستتواصل أم أنها ستنقطع ثم تستأنف فسؤال عابر عن حال العائلة في المستقبل. وبينما هو على وشك الرحيل سأل زيدًا: «**لاحظت يا زيد أنك لم تصل اليوم كله، يجب ألا تتهاون**».

«**في الحقيقة أنا لا أصلي**». رد زيد، وبدت علامات الدهشة على وجه عبد الرحيم الذي قال:

«**كيف هذا؟ لا تصلي؟! هذا كلام غريب، أظن أن تصرفات بديع وآراءه بدأت تؤثر فيك، لا يجب أن تتخذ قدوة من أشخاص تركوا مبادئ مثل مبادئنا لاتباع أخرى غريبة لا ندري من جلبها، توافق الهوى وتتضاد مع الأخلاق ولا تقيم قيمة للشخص من حيث إنه شخص ولكن مجرد من حيث إنه وسيلة ومطية من أجل تحقيق غرض ما أو شهوة عابرة**».

«**أنا لا أتحدث مع بديع في هذه المواضيع، وما أفعله الآن هو بمحض إرادتي، كما أنني أرى أن مثل هذه المواضيع لا تجدي ولا تنفع، فالأجدر بنا إذًا أن نتركها عند هذا الحد**». شعر زيد بعد قوله هذه الكلمات بضيق، وأراد ألا يسخط عبد الرحيم ولكن أن يرضيه بأن يوضح له أن ما يعتقده هو صائب تمامًا مثل اعتقاده؛ ذلك أنه يتلاءم معه.

«**هذه الأمور لا يجب أن تترك، أترضى أن تبقى في الضلالة؟ كما أن فعلك ما تمليه عليك إرادتك ليس عذرًا لتركك الصلاة، الجميع يصلي حتى السكارى واللصوص يصلون الصلاة جماعة وفي**

المسجد وأنت لا تصلي؟! أنا فعلًا لا أفهمك، منذ وقت قريب كنت تصلي، ماذا حدث؟».

«**هناك فرق بين أن تفعل شيئًا بحكم العادة ولأنك جبلت على فعله من خلال التقليد والتوارث، وبين أن تفعل ما تراه صائبًا لكي يرتاح ضميرك. أنا الآن أفعل ما يرتاح له ضميري، وكما أنك ترى نفسك صائبًا في فعل ذلك الذي تريده وتراه صوابًا، فأنا أيضًا صائب في أفعالي إذا لم تلحق الأذى بأحد**».

«**هذا كلام -وإن لم يشبه كلام بديع- يشترك معه في التفلسف واستعمال نبرة غرور ترى أفكار الآخرين من فوق، أنت عاقل يا زيد، ولا يجب أن تنظر إلى هذه الأمور من هذه الزاوية، وإلا هلكت**». وما كان يبدو من قرب رحيل عبد الرحيم بدا أنه تحول إلى استمرارية مكوثه بعد أن تسلطت عليه فكرة إقناع زيد أو إظهار خطئه له وما هو فيه من أوهام. «**هي أوهام، نعم يا زيد، تلك التي تجعل منك تفكر على هذا النحو وترى أن طريقة عيشنا قد عفا عليها الزمن، وماذا عن كل تلك القصص التي تحكي لنا عن عقاب الله وما أنزله الله من خيبة وهلاك على تلك الأمم؟**».

«**لا أدري، الناس تكتب، وبعد مرور الكثير من الزمن يتحول ما قد كتبوه بدافع الوعظ وتحبيب الإيمان إلى حقائق**».

«**لا يا زيد، أنت ذهبت مذهبًا آخر، وما تقوله جد خطير، خطير عليك؛ ذلك أنه لا يمكن لعاقل أن يتخذ من ظنون سوء -مثل التي تظنها- عقائد ثم يتبناها كطريقة عيش، ويا لها من طريقة عيش لا أرى فيها أي لمعان أو إشراق! مجرد نقد هذا وذلك، ومجموع هذا النقد يصبح أسلوب حياة، هذه ليست حياة، هي**

مجرد ....، لا أدري كيف أسميها، مجرد ... مجرد تهافت وطيش فكري وكذلك ركود، لا أدري ولكن يبدو لي وكأنك لا تريد أن تعمل، وكأنك في حالة خمول».

«**أنا لست في حالة خمول**»، رد زيد بعد أن شعر وكأنه قد جُر إلى هذه المناقشة جرًّا، ثم أضاف: «**وكلامي هو العقلاني، أنت لا تسمع نفسك، أنا لم أطلب شيئًا سوى أن تتقبل أفكاري وقراراتي في الحياة، ما دمت لا أؤذيك ولا أتسبب لك بأي شيء قد يعوقك عن عيش حياتك على النحو الذي تريده، فما يضيرك؟ عش حياتك ودع الآخرين يعيشون حيواتهم، الأمر بسيط**».

«**وما حدث اليوم، هل يبدو لك عقلانيًّا؟**»، لم يتكلم زيد، وخمن أن عبد الرحيم يظن أنه أفحمه فقال:

«**في الحقيقة ما يزعجني هو غياب المسؤولية عن تصرفات منال، وأيضًا..**».

«**ولكن بغض النظر عن الكلام عن كونها من العائلة، لنفترض أنها تعيش وحدها، هل كان لها الحق في أن تفعل هذا الفعل؟**» قاطع عبد الرحيم بسرعة زيدًا وكانت ملامحه قد تبدلت، وشعر زيد أن روح الحميمية والقرابة والإغضاء عن أخطاء الآخر التي كانت تجمعهما قد اختفت.

«**الأمر لا يمكن أن يُحكم عليه من الخلفية التي تستند عليها أنت، كما أن هذا لا يحتاج إلى أن أجنح إلى حجج قديمة أو متجاوزة لهذا العالم، البعد الأخلاقي للطبيعة البشرية يكفي لأن أحسم في هذا الأمر**».

«الدين أخلاق يا زيد، أنت تحاول جاهدًا محو كل الحجج العقلانية التي تعطي ديننا الكلمة العليا، لا أدري لماذا تفعل ذلك، وقد سألتك سؤالًا بسيطًا فرحت تحوم حوله وتلجأ إلى هذه الأفكار العقيمة، لن تنال أيًّا من الراحة والطمأنينة النفسية إن واصلت على هذه الحال. أنا فعلًا عليك مشفق، ستروم كل السبل لتتخلص من الضيق والشعور بالعسر، ولكن لن تجد أيًّا من هذا». ضايق هذا الكلام زيدًا، وبدا أنه محيط بمغزى كلامه، وقال مجيبًا قريبه:

«هذا تعميم، وإن كانت حادثة أو حالة قد حدثت لشخص ما فهذا لا يعني أنها ستحدث للناس جميعًا، هناك من له القدرة على المواجهة بأسباب ووسائل أخرى، إن لجأت أنت إلى هذا فهذا شأنك، أما أنا فلديَّ ما ألجأ إليه».

«وما هو ذاك؟».

«نفسي، أناي، لا أعني هنا الأنانية، بل أعني أن أمضي في الحياة معتمدًا على نفسي؛ ذلك أنني أعيش من أجل ذاتي وإن بدت أفعالي تريد غير هذا. كلٌّ لديه مصير وطريق، وطريقي غير الطريق التي تراها أنت، هذا لا يعني أن أحدنا أفضل من الآخر، كل ما في الأمر أن كلينا يكون سعيدًا في طريقه التي ارتأتها له الحياة إن لم يحد عنها. هذا اعتقادي؛ بألا أكون امتدادًا إلا لنفسي، لا لشخص آخر ولا لكائن جبار لا أدري كنهه ولا حتى لفكرة». ظهرت سهام عند مدخل غرفة الجلوس، وبدا أنها كانت تستمع لذلك الانفجار الكلامي في شكل ذلك الخطاب الصغير من شقيقها. حدقت فيه وكان خافضًا رأسه وبدا أنه يلهث، والتفت عبد الرحيم ونظر إلى سهام، ثم تقدم إلى زيد وسأله:

«**إلى أين سيؤدي بك هذا؟ أنا لا فهمك يا زيد، وأظن أن لا أحد من عائلتك يفهمك، ما الذي جعلك تفكر بهذه الطريقة؟ لا أدري ولكني ألمح فيها سوداوية ويأس، أنانية بهذا النوع لا أفهمها أبدًا**».

«**حتى أنا لا أفهمها**» رد زيد بصوت خافت، «**كل ما أشعر به هو حالة من التعب، ليس التعب الجسدي ولكن التعب من هذه الحياة، يحدث هذا معي منذ أشهر قليلة**». لم يُرِد عبد الرحيم الاستماع أكثر من زيد، وبدا له شخصًا قد ناله الفساد والتعفن الروحي، فاستأذن واستأذنت معه سهام التي بدت بإعراضها عن النظر إلى زيد وكأنها شاركت عبد الرحيم الرأي.

في طريقه إلى منزله كان عبد الرحيم قد مر على الساحة، ولم يستغرب عندما وجد جمعًا هناك أمام المحلات التجارية أين محل مسعود بن نوح، اقترب بدافع الفضول فقط وتساءل إن كان سيجد خاله مسعودًا هناك. وفي حلقة دائرية شكلت الجمع الذي رآه من بعيد كان هناك بعض رجال البلدة ومعهم الهاشمي وهو يحدثهم بشيء ما، اقترب عبد الرحيم ولكن بقي مختبئًا بين الحشد رغبة منه في أن يبقى متخفيًا وألا يعرفه أحد. ولم يستغرق وقتًا طويلًا حتى فهم ما الذي كانوا يخوضون فيه. أغضبه الأمر جدًّا ولكنه آل على نفسه أن يكبح نفسه ويستمع إلى كل ما سيقولونه أو ما يكفي ليخرج بنتيجة حول المتورط في ذلك الحديث. فإضافة إلى الهاشمي كان كل من عبد القادر بوريطة وعبد السميع الصافي والولهي بن زنيتة وكذلك رجب البغدادي الذي كان رفقة عبد السميع الصافي يلقيان الأسئلة على الهاشمي وهو يجيب، وبين الفينة والأخرى كان عبد

القادر يطلق ملاحظة أو استفسارًا كمن أتيح له لم الفهم والغوص إلى معاني الكلام وألغازه. أما باقي الحاضرين فلم يكونوا إلا من الفضوليين أو ممَّن كانوا معتادين الجلوس في الساحة في الليل وقد شدهم هذا الحوار بين الهاشمي وعبد السميع والآخرين، فلم يتدخل أحدهم في الكلام منذ قدوم عبد الرحيم للمكان. وكان الأخير يديم النظر للحظات في كل الواقفين في وسط الحلقة حتى انتهى إلى الهاشمي الذي كان يلوح بكيس في الهواء ثم وضعه وأخذ في مخاطبة عبد السميع الصافي:

«**عيناي هاتان لا تخطئان أبدًا، ولكم حباني الله في مناسبات عدة في أن أكشف خبث ونفاق الكثيرين وكشف ما يسرونه! وما أخبرتكم به هو الحقيقة، وما دفعني إليه الله وعناية سيدي بياض من قصد أمكنة دون أخرى في الأيام السابقة قد جعلني أتأكد من الأمر، واليوم بالتحديد رأيت كل ما حدث بعينيَّ هاتين اللتين سيأكلهما الدود. مسعود بن نوح هو أكبر منافق، وما يجري في عائلته هو أكبر دليل على انتقام الله منه على ظلمه للآخرين وعصيانه لله ولأوليائه وعلى رأسهم سيدي بياض**».

«**أجل، إن ما يحدث في عائلته هو أمر محير، ويدعو إلى التعجب والتساؤل عن سبب كل هذا، ولا جواب يمكن أن يخطر على البال سوى أنه عقاب من الله أنزله عليه، بالطبع نحن لا نعلم أي شيء ولا يمكننا اتهامه بأي شيء أيضًا**» علق عبد السميع الصافي، وبدت النبرة التي استعملها وكأنه يحث بها الهاشمي على الكلام والإفصاح، فقال الأخير بعد محاولات عدة لمقاطعة عبد السميع:

«**أنا أعلم كل خفاياه وأسراره يا السي عبد السميع، السي جمال الهلالي يعلم أيضًا، هو يشتغل في تهريب الأقمشة وأمور أخرى، ويشتغل أيضًا في الكثير من الأمور المشبوهة التي لم أقف عندها بعد، السي جمال يعلم عن هذا واسألوا التجار الذين كان يعمل معهم في الماضي، سيروون لكم كل تاريخه وكيف اكتسب أمواله وأراضيه. لا تظن أنه كان غنيًّا في الماضي، والده -أعرفه جيدًا- كان فقيرًا ومعدمًا، لم يكُن يملك حتى ما ينفقه على تعليمه، وما يعرفه معارفه هو أنه غاب لسنوات في شبابه كان قد ذهب فيها إلى إحدى المدن ثم رجع ميسورًا ثم فتح دكانًا وبدأ أو بالأحرى استكمل ما كان فيه من أعمال مشبوهة. وحتى هذا الكيس الذي ترونه، يدَّعي أمام الناس أنه ينعم عليَّ ولكنه في الحقيقة يجلب هذه الملابس والمال القليل**»، ثم أخرج من جيبه الأيسر ظرفًا ولوح به في الهواء مع الكيس الذي في يده اليمنى، «**هذه يتلقاها من تجار آخرين يطلبون منه تفريقها بين الفقراء، فيأخذ أغلب المال ويوزع النزر القليل، وعندما يسألونه يشير إلى الفقراء أمثالي فيتحرون الأمر فيجدون أنه بالفعل قد أعطى، ولكنه لم يعطِ كل شيء**».

«**ولكن يا الهاشمي من أخبرك أن من رأيتها هي منال بنت السي مسعود فعلا؟**» سأل رجب البغدادي فجأة معبرًا عن شك في كل كلام الهاشمي الذي لم يعجبه السؤال وراح يبرئ نفسه بعرض تبريرات، منها: «**أنا أعرف كل أهل المنطقة وخصوصًا آل ابن نوح ولو وُضعوا بين الآلاف من الناس ومرت السنون دون أن أراهم**».

وافق البعض على كلام الهاشمي، ولكنها بدت موافقة كمجاراة له لا

غير، أما بقية الحاضرين فاكتفوا بالتحديق مخافة أن تندر منهم كلمة تفسد جو الوقار الذي كان يظهر عليهم.

وبعد أن انسل عبد الرحيم من ذلك الجمع وقد ضايقه ما سمعه وكبح نفسه في أكثر من مرة من أن ينزو على الهاشمي ويصرعه أرضًا، أخذ في استحضار ما يمكن أن ينال خاله وآله من هذه الهجمة الجماعية من طرف بعض أهل البلدة على شخصه وعلى عائلته، ثم أخذ في ربط كل شيء مع بعضه، ابتداءً ممَّا أصاب خاله من فجائع في أهله إلى ذلك الذي عده نتائج قد تند من آراء الناس من تصرفات عملية تجاه مسعود. شعر بالحيرة ولكنه قدر أنه أحسن الصنع برحيله عن زيد ثم سرعة تركه لذلك الجمع الذي كان يتبادر منه إليه بعض من صياح الهاشمي. داخله بعض القلق على خاله ورأى أنه عرضة لنائبة وبلاء عظيم، فكر في ذلك وأخذت تلك الفكرة ترسخ لديه بينما هو يمشي في الظلمة وقد ميز كلمات من صياح الهاشمي: «**الله يلعنه، هذا حقي الذي أعطاه لي، نعم حقي أنا**»، وتذكر زيدًا.

«**هذا حقي، حقي**» صاح أحد المحتشدين أمام مقر البلدية وقد انفرد صوته للحظات ثم اختفى بين الأصوات الأخرى التي كانت تنادي بخروج الأمين العام للبلدية، الذي كان يتولى مهام الحاكم، وأخرى تهدد وتتوعد وكانت تأتي من نفس مكان صاحب الصرخة الأولى. ومن ضمنهم كان بديع بن نوح الذي كان يبدو متحمسًا ولكن دون أن تند عنه أي من الشعارات أو التهديدات التي كان يطلقها رفاقه، جارى التدافع الذي كان في وسطه، وكان قادمًا من الخلف ومن الأمام، ورفع رأسه للنظر إلى مدخل البلدية الذي كان يسده الكثير من عناصر الشرطة، ولكن دون أن يردع هذا الحشد المقابل، بل بدا هدفًا آخر لهم، ومنه كان وابل الشتائم الذي ينزل على الشرطة بين الفينة والأخرى مصدر تنويع لإفراغ الغضب أو مجرد التعبير عنه.

دفعت الشرطة سيل الحشد إلى الخلف بعد مقاومة شديدة من المحتشدين، ولكن استعمال الهراوات والدروع البلاستيكية أتى بنتيجة، وارعوى كل أفراد الحشد إلا فئة قليلة من أصحاب بديع، قابلوا أفراد الشرطة ثم أخذ البعض منهم في سب الشرطة: «**يا**

طغاة، تستعملون القوة ضد شعبكم، سينتهي هذا، الغضب بدأ ولن تطفئوه». كانت هذه الكلمات مصدر إضرام لنار مخيلاتهم وكأن طائفًا من شيطان المعاداة والعنف قد ألم بهم؛ ذلك أن كلمات مؤيدة من هنا وهناك شجعت المتكلم وكان نفس صديق بديع الطويل والنحيف: «**أترون الشعب أين هو الآن؟ هو خلفنا، لن تأخذوه منا من جديد، النصر لن يأتي إلا من هذا الشعب، لا يعنينا لا رؤساؤكم ولا تاريخكم، الشعب هو البطل الوحيد**». نظر إلى الخلف ثم لوح بقبضة يده اليسرى، حدق فيه الجميع بمن فيهم بديع، وتكلم آخر وآخر، وكلهم هددوا وتوعدوا وتملقوا الحشد من الخلف الذي بدا أنه يستشيط غضبًا. مضى وقت من الزمن وأصحاب بديع يتكلمون على نفس النسق، وبدأ هذا بإزعاج الكثير ممن احتشد في الخلف ممن ولوا هاربين من ضربات الشرطة، وتقدم أحدهم وتكلم بنبرة أظهرت نفاد صبره:

«**ما الذي تتكلمون عنه أنتم هناك وأنتم في الداخل؟ إن كان يسمعني أحد؛ نريد أن يخرج إلينا الأمين العام للبلدية هذا، هذا أمر لا يصبر عنه، سبحان الله وبحمده، يا سليمان، اخرج لنا يرحم والديك، أو ليدخل منا بعض الممثلين عن الجميع ليتكلموا معك**». لاقت كلماته تأييدًا من الحشد، وتراجع بعض من أصحاب بديع للتكلم مع الرجل وبدوا دهشين. وفتح باب المدخل ووقف عنده أين عناصر الشرطة كهل في منظر غريب، وبدا متعبًا وهو ينظر إلى الساحة قبالة مدخل البلدية. ولما رآه الجميع التف أصحاب بديع حول رجل الحشد الذي حاول التقدم، وكلمه صاحب القبضة وكان أكثرهم حماسًا:

«ما معنى هذا يا الميلود؟ بدل أن تكون في صفنا تريد أن تبيع وتذهب للحوار مع هؤلاء الطغاة. لا حوار معهم، هل تسمعني؟ أنت ذكي وواعٍ وتعلم ما الذي يجب القيام به، الجماعة هنا يمكنها أن تمثل الشعبَ ونحن نعرف ما يريده الشعب».

«أنت ابن البارحة تعطيني أوامر؟ هيا ابتعد عن طريقي. ومن أنتم لتكونوا أوصياء علينا؟! حفنة من المراق والملاحدة، لا مكان لكم معنا» أجاب الميلود بعصبية، وكان أن تقدم من الحشد والجماعات التي كانت تشكل ذلك الحشد بعض الرجال، وصاح أحدهم مخاطبًا الميلود: «**ماذا هناك يا الميلود؟**».

«تعالَ لترى، الآن ظهر من يرى لنا ما لا نرى ويريد أن يسوقنا. هذا لن يحدث أبدًا لا منك ولا من غيرك، جئنا إلى هنا من أجل مطالب محددة، وما يحدث في البلاد هو من أجل التقدم نحو الأحسن، وليس من أجل الفوضى والعمالة للخارج مثلما تفعلون الآن».

«بل أنت الذي ستبيع، وهذا واضح؛ ذلك أن الكل يراك والشعب لا تخفى عليه خافية، سينتهي الشعب بكشفك وكشف أمثالك». بدا الاثنان وكأنهما سيتناوشان بالأيدي أو حتى يتعاركان، ولكن تدخل الكثيرون بينهما حتى أضحوا حشدًا بين المتناقشين. ولم يتوقف الميلود عن سب الآخر ومن معه، واضطر بعض من كان معه إلى أن يذهب إلى المدخل، ثم عاد مع الرجل الذي كان عند المدخل. وخاطب الرجل سريعًا الميلود: «**ها هو يا الميلود السي عبد القهار، يريد أن يخبركم بشيء**». تقدم عبد القهار وقد صوبت جميع الأعين إليه، ثم قال مخاطبًا الميلود:

«**السي سليمان يقول لكم اختاروا ستة منكم لكي يصعدوا إليه ويتكلموا في ما قد جئتم من أجله**». هدأ الميلود فجأة وبدت عليه علامات الظفر، أما الشاب فقد أخذ يصرخ في وجه عبد القهار بأن أحدًا لن يذهب إلى أي مكان والاعتصام سيستمر. ولكنه توقف فجأة بعد أن سمع بديعًا ينهره: «**اسكت يا الصالح**». صمت الصالح، ثم تكلم أحد المحتشدين مخاطبًا عبد القهار:

«**أول هؤلاء الستة هو الميلود، وأنت يا الميلود عليك أن تقترح الأسماء**».

«**حسنًا، سأذهب أنا وبلقاسم بن سعداوي والأستاذ حميد جاري، ولخضر الداودي، وخليفة اليعقوبي**». ندت منه وسوسة اهتز لها جسده كمن هو مقبل على المشي ثم توقف بعد أن لاحظ أن الجميع كان يحدق فيه، تساءل بأن نظر إلى من اقترح اسمه أول الأمر، فقال الأخير: «**بقي واحد يا الميلود**». **أجال الميلود ببصره حول الجمع وهو يعدل من نظارته، ثم وقع بصره على بديع، ثم قال: «أنت يا بديع». استمر الجميع واقفين وهم ينظرون إلى الميلود وبديع، وكان الأخير يترقب أن يختار الميلود اسمه، ولما فعل اقترب من عبد القهار ثم نظر إلى الميلود وقال: «هيا نذهب». اقترب منه أحد رفاقه وأمسك ذراعه ثم قال بصوت خافت: «ما هذا الذي تفعله؟**»، سحب ذراعه وهو ينظر إلى الشاب والصالح من ورائه يصوب نحوه نظرات شزراء، لكن بديعًا تجاهلهما ثم ابتعد ماشيًا برفقة الميلود والآخرين إلى أن بلغوا المدخل، فتوقفوا وتكلم عبد القهار مع قائد فرقة الشرطة الذي أمر عناصره بالإفساح، ودخل الستة مع عبد القهار.

مشوا في فناء فسيح بدت فيه الحياة طبيعية من خلال تجول ومرور الكثير من موظفي الإدارة هناك وكأن الفوضى في الخارج لم يكن لها صدى هناك، وبلغوا بناية من عدة طوابق وولجوها يسبقهم عبد القهار. نظر بديع إلى الميلود الذي كان ينظر يمنة ويسرة ثم إلى الخلف نحوهم، ولما تلاقت عيناه بعيني بديع قال مخاطبًا الجميع: «**اسمعوا أيها الإخوة، ليكُن كلامنا متفاهمًا ولتجمعنا كلمة واحدة. الأمور يجب أن تكون واضحة، من الأفضل أن أتحدث أنا أولًا ثم السي بديع. وبديع، أرجوك لا يجب أن يخرج من فيك أي من الكلام الذي يندر عن أصدقائك المجانين». أومأ بديع موافقًا، ثم استكمل الميلود وهم يصعدون السلالم، وكانوا يتوقفون عند مدخل كل ردهة يتكلم فيها الميلود ثم يصعدون السلالم من جديد: «لا نريد أن نتكلم عن أي فوضى أو تصعيد، فقط النقاط المهمة، ولكن يجب أن تكون أدوات ضغط أيضًا، وإن لم يعجبنا ما سيتكلم به سليمان أو أي من الذين سنتكلم معهم يجب أن نغادر مباشرة، فهمتم؟**»، أومأ الجميع من جديد ثم توقفوا عند باب مكتب في ردهة طويلة بسقف جد عالٍ. دخلوا مكتب مساعد الأمين العام الذي دخل إلى مكتب جانبي ثم خرج وأومأ لهم بالدخول. وفي الداخل كان المكتب مقابلًا للباب مباشرة، وكان يتوسطه سليمان وهو يترقبهم ولكن دون أن يبدي اهتمامًا كبيرًا بهم. رحب بهم بحرارة وطلب منهم الجلوس على كراسي متقابلة أمام المكتب، وكان أن تقابل كل من بديع والميلود عند المكتب وانتظرا الفرصة للخوض في ما جاءا من أجله.

فتح الميلود باب الحديث بأن بدأ بالكلام عن الحشد في الخارج وبأن هذا لم يكُن سوى امتداد لحملة عمت جميع أقطار البلاد: «**فهل يعقل أن يجري جميع أبناء هذا الوطن من أجل قطع دابر الفساد والتغيير من أجل الأفضل للبلاد ولأبناء البلاد ونقعد نحن مكتوفي الأيدي؟ بالطبع هذا أمر لا يمكن أن يكون، وما جئنا من أجله -باقتضاب- هو البحث معك عن حل لهذه البلدية، والتحقيق في ما كان يجري قبل سقوط الحكم السابق من فساد وتجاوزات طالت هذه المؤسسة. ومنه؛ فإن الأمر أكبر منا ومنك يا السي سليمان، ولا خيار لك سوى مجاراة هذه الحملة أو حتى الانضمام إليها؛ ذلك أنه في الأخير لا يفلح سوى الحق وأصحاب الحق**».

«**وما هو الحق هنا يا السي الميلود؟**» سأل سليمان موجهًا رأسه إلى الميلود، بينما قفزت عيناه من الميلود إلى بديع ثم إلى الميلود مرة أخرى.

«**الحق واضح يا السي سليمان، حقوقنا مهضومة في هذه البلاد، أليس العيش الكريم حقًّا من حقوقنا نتمتع به طيلة حياتنا؟ أم إن هذا يجب أن ينحصر على طائفة قليلة من أصحاب الحظ والحيل والفساد؟ نحن ليس لنا أي علاقة بالفساد، إذًا لا حق لنا في أن نعيش عيشًا كريمًا؟**».

«**ولكن يا السي الميلود بالنسبة لك أنت، كيف تتخيل أو بالأحرى ما هو في رأيك أن يعيش الإنسان عيشًا كريمًا؟**».

«**أولًا بيت يأويه، وهذا يكون دائمًا مقترنًا بعمل شريف يتيح العيش جيدًا ويتيح كذلك القدرة على الزواج في البيت الذي يجب أن توفره له الدولة. وكذلك أن يفعل هذا الإنسان كل ما يخطر على**

باله من ترويح عن النفس له ولعائلته، فيعيش بذلك حياة لا تنغيص فيها، يستطيع فيها تربية أولاده والاستمتاع بحياته».

«**هذه الجنة يا السي الميلود**» علق سليمان وهو يضحك، «**والدولة هي التي ستفعل كل هذا؟ ستوفر كل هذا ثم يصبح الناس جميعهم سعداء فجأة؟ أعتقد أن هذا الكلام جد خيالي يا السي الميلود، أن تقول لي مثلًا أن نفتح سبل ومصادر تشغيل الناس فهذا عقلاني، أو ننقص من مشكلة السكن التي يتعرض لها الناس، أو توفير المرافق في كل مكان فهذا أيضًا أمر عقلاني، أما أن تقول لي إنه يجب أن نجعل الجميع سعداء بأن نوفر لهم كل شيء، فماذا يبقى لهم فعله إذًا؟ الاستمتاع فقط، ومن سيعمل؟! حتى العمل الذي يوافق مثل نمط العيش هذا يكون دومًا سهلًا؛ فإذًا لن يكون هناك إنتاج بقدر ما يكون هناك أماكن للفسحة فقط على شكل مكاتب ومصانع يقصدها الناس كل صباح لإعطاء وهم العمل ثم الرجوع إلى ما كانوا فيه من استمتاع بالحياة على الوجه الذي ذكرته. فهذه بالنسبة لي يا السي ميلود أحلام وكلام بعيد عن الواقع جدًّا**».

اعترض الميلود على كلام سليمان، وأخبره أنه لم يقصد هذا وأنه أساء فهم كلامه، بينما أبدى سليمان وجهًا باسمًا ومتفهمًا كان يهدئ من أي علامات لاستشاطة الميلود غضبًا. وكان لخضر الداودي قد تدخل في مرتين علق فيهما على أن كلام الميلود هو عين العقل: «**وإن الناس خرجت من أجل هذا، وإلا فلماذا شعوب الأمم الأخرى تنعم بكل هذا ونحن لا؟**». لم يرُد عليه أحد، واكتفى سليمان بالابتسام له ثم تكلم، ولما أحس بديع أنه سيسهب من جديد تدخل قائلًا:

«ليس من أجل هذا جئنا يا السي سليمان، ولا أحد يتحدث عن أحلام في الخارج، ما جئنا من أجله هو ما نراه تعطيلًا للحياة الإدارية وما يقترن بها من أداء اقتصادي وسياسي، البعد السياسي هنا وما يجري في البلاد من شغور فيمن يمثل الدولة، وتوفر مجرد أشخاص سيرحلون بعد أن تعود الأمور إلى مجاريها هو المشكلة هنا. الناس تحس بهذا العائق والمشكلة، وهو ينعكس سلبًا على الحياة اليومية، فقد أعلن تشكل لجان في كل أنحاء الوطن؛ لجنة في كل بلدية تحقق في كل ما ينقص سكان البلدية والبلدية نفسها، ولكن هذا لم يحدث إلى الآن هنا، نحن لا نريد معرفة السبب فقط، بل نطالب أن تشكل هذه اللجنة في أقرب وقت». اختفت الابتسامة من محيا سليمان، وتهللت أسارير الميلود وأومأ موافقًا برأسه وهو مغتبط، بينما ترقب الآخرون رد سليمان الذي سأل بديعًا إن كان ابن مسعود بن نوح، ولما أكد بديع المعلومة طلب منه ذكر اسمه.

«حسنًا يا بديع، ما شاء الله! أنت على اطلاع بما يجري في البلاد ولك فهم وفصاحة يخولانك بلوغ قعر ما يجري فعلًا هنا عندنا في البلدية. الأمر بصراحة لا يتعلق بإرادتنا؛ أي إن الأمر لا يتعلق بأننا لا نريد، بل بأننا لا نستطيع. لو كان باستطاعتنا لفعلنا هذا وانتهينا من الأمر ولكان الجميع سعداء. ولكن ليس باستطاعتنا فعل أي شيء؛ ذلك أنه لا يمكنك تخيل الفوضى التي في البلاد الآن. ولو لم يكُن هناك رجال يعملون في الخفاء، لكانت البلاد في هاوية أو انتهت كليًّا. إذًا كل ما أطلبه هو الصبر، والأمور تُنال بالعقلانية والتفهم وليس بالفوضى مثلما سمعت بعضًا من رفاقك وهم يهددون ويطلبون من الشعب الانجرار وراء هذه التهديدات وتطبيقها. لا يا السي بديع، الأمر هنا أصبح جد خطير».

«**لم يهدد أحد أحدًا يا السي سليمان، وأنت تعلم أن هذا كلام مخبولين ولا يمكنهم فعل أي شيء، والأمر في أيديكم..**».

«**كيف كلام مخبولين؟**» قاطعه سليمان، وكان بديع قد فهم الحيلة التي كان يستعملها في حديثه وتأكد عندما أضاف: «**أنت تؤويهم في منزلك، يعني أن الأمر أصبح جد خطير، ومع كل ما يتحدث به الناس والمعلومات التي وصلتنا فإن الأمر قد بلغ مرحلة تهديد أمن البلاد، هذا أمر لا يمكن السكوت عليه**». أثار هذا الكلام، وما كشف عنه من شخصية سليمان الحقيقية ومكانه في ذلك الصراع، غضب بديع. ولكنه حاول التحكم في نفسه، وانتهى به الأمر بأن قال محاولًا إقناع الجماعة التي أتت معه دون سليمان الذي كان يفعل نفس الشيء:

«**هذا الكلام ونبرة التهديد نراها الآن تأتي من جانبك، وهي تُظهر أيضًا حقيقة موقعك من هذه الأزمة**»، ثم أضاف وهو يخاطب الميلود: «**أن نطلب العون ممن هو عنصر من مشكلتنا لهو الجنون نفسه، ولكن هذا جيد لنا؛ ذلك أننا عرفنا المسؤول عن إعاقة تشكيل اللجنة لأنها ستفضحه وتفضح أمثاله**». ثم قام وطلب من الجميع القيام، وهو ما فعلوه. وبينما هم يغادرون لم يخلُ الوضع من تبادل للاتهامات بين سليمان وبديع، وتجاوزه بعد أن خاطب سليمان الميلود معممًا شخصه ليشمل الآخرين أيضًا: «**أنتم أيضًا متواطئون إن مشيتم معه ومع من معه، وبدل أن تحاولوا حل مشاكلكم والتحسين من معيشتكم تريدون تخريب بلادكم، أحسنتم فعلًا، وها قد أنذرتكم وأنتم كبار، والقانون سيفصل في الأمر**». اعترض الميلود من جديد قائلًا بأنهم أساؤوا اختيار الجهة

التي كان لزامًا عليهم أن يلجؤوا إليها: «**وبدل ذلك جئنا إلى لص من لصوص البلاد**». وخرجوا والغضب يعلو وجوههم، وكل واحد منهم يسب سليمان، وبديع ساكت وهو يستمع لكل من يوجه إليه الكلام.

تلقفهم الحشد في الخارج بلهفة للاستماع لما حدث معهم، وخاطبهم الميلود مباشرة وأخبرهم بكل شيء، وكان لخضر الداودي يتدخل بين الفينة والأخرى لتذكيره بتفصيل قد غاب عنه. أبدى الجميع دهشتهم، وعلق الصالح بأن «**هذا جزاء من يبيع؛ أن يلقى الهوان والذل**». لم يرُد عليه أحد، وانخرط الجميع في مناقشة ما قد يمكن فعله للتوصل إلى حل ووضع حد لسليمان ولأي أحد يدعمه. اقترح أحدهم أن يذهبوا إلى الولاية ليشكوا الأمر إلى الوالي نفسه، «**من؟ إلى ذلك الوالي الذي لم يستطع حتى أن يحل مشكل النعوش منذ عام؟!**» علق عبد الحفيظ الذي كان وجهه هو الأبرز في ذلك الحشد: «**ألم ينسل هاربًا مع موكبه وترك رابح بن عطية وحده؟ لا خير يأتي من هؤلاء، ولكن إن أردتم أن تجربوا فلا بأس، ولكن بالنسبة لي فهذا مضيعة للوقت وحسب**». أطرق الجميع صمتًا، وبدا الحزن وقد خيم على محيا الكثيرين منهم، أما عبد الحفيظ فكان يراقب الميلود فيما راح الصالح يحدق في بديع. وعاد آخر لكي يقترح بأن يرحلوا؛ ذلك أنه «**لا ينفع أي شيء مع هؤلاء الطغاة سوى القوة**». انتفض الصالح واثنان معه ووافقوا الرجل، وقال الصالح: «**هذا هو عين العقل، لن نفلح، وهذه الحوارات معهم تشجعهم فقط وتنقص منا. لا يجب المداهنة معهم، القوة الأولى والوحيدة هي في أيدينا نحن الشعب**». اختلس النظر حوله وكان الجمع يقترب أكثر وتضيق الدائرة أين كان واقفًا الميلود وبديع ولخضر

الداودي، وتكلم أحدهم من داخل الجمع بنبرة شاكية: «**إذًا ماذا نفعل الآن؟ نرحل إلى منازلنا؟ ولماذا جئنا وتجمعنا إذًا؟! هذا ما لم يكُن في الحسبان**». وتكلم آخر: «**الكثرة والخيبة، يعني ما نفع تجمعنا إذا لم نخرج بأي نتيجة؟!**». كان بعض عناصر الشرطة قد دخلوا إلى الداخل وبقي القليل منهم، أما منظر الجمع أمامهم فكان يوحي بقرب الرحيل أيضًا والتفكك. سُمعت أصوات هنا وهناك من أصدقاء يطلبون من أصدقائهم الرحيل أو من أهل لأقاربهم، ونظر الميلود إلى بديع الذي تكلم بجرأة مقاومة لكل ارتباك قد يند منه:

«**اسمعوا يا إخوة، الحل الوحيد هو أن ننفذ إرادتنا**»، سكت وتفحص الوجوه حواليه، والتي لم يُرِد أصحابها إبداء أي تعبيرات قد تخون جو الوقار الذي كان يلفهم، تعجب من حالة الاصطناع والخمول هذه، وبدا له الأمر سوء فهم لكيفية التصرف، تجاهل ذلك ثم استأنف بعد أن تأكد أن رغم ذلك الجو الكئيب الذي أبدوه، فإن دواخلهم كانت تتوق إلى حل يمكن أن يُشعرهم بالأمان والثقة بالنفس: «**أعني أنه يجب أن نتجاهل كل من يقف في طريقنا ونتفق نحن، ماذا سيحدث إن اتفقنا على خطة ومضينا فيها؟ ألن يرضخ لها أمثال سليمان؟ بل قد تطيح بهم وننتهي منهم ويصبح الأمر لنا**».

«**ماذا تقترح يا بن مسعود؟**» سأل كهل قارب الشيخوخة وهو يحدق فيه بثبات.

«**أن نمضي ونشكل اللجنة، ولتعمل على وجه طبيعي وفعال بحيث نرسل تقارير وعرائض ليس إلى الولاية فقط بل إلى وزارة الداخلية أيضًا، والركيزة الأساسية لنا ولهذه اللجنة التي ستطيح بكل**

من يعادينا ستكون اتفاقنا واجتماعنا على كلمة واحدة». وتلا هذا الكلام مجموعة من الكلمات المؤيدة والمغتبطة بهذا الرأي والجرأة والإقدام الذي كان الجميع يبحث عنه ووجدوه: «**هذا هو الرأي**»، «**والله هكذا لن يقف أحد في وجهنا**»، «**لنمضِ على بركة الله**»، «**سيعرف سليمان الكلب مع من يتعامل، واللهِ سيشعر بالمرارة وسيرحل كالكلب**». ختم الميلود هذه السلسلة بشتم سليمان، ثم اتفقوا على مكان للاجتماع بعدما أدركوا أنه لا فائدة من تجمعهم هناك. انفض الجمع ومشى أغلبهم خلف بديع والميلود، بينما تخلف الصالح ومن معه وهم يشتمون بديعًا ويصفونه بالمنافق والخطير.

فتح السايس مقهاه لجمع البلدة، وهناك اتفقوا على توكيل بديع والميلود في مهمة تشكيل اللجنة، واقترح بديع أن يتقدم كل من يريد الانضمام إلى اللجنة، وإن فاق العدد ما هو معمول به في لجان باقي أنحاء الوطن فسيلجؤون للاقتراع. أطرب هذا الاقتراح الجميع، ورحلوا وهم يُثنون على بديع ويصفونه بالذكي وبـ «**نعم الرجل**».

وانقسم أهل البلدة إلى فريقين؛ فريق يذم بديعًا وآخر يحمده، ابتعد عن الفريق الأول وعزم على طردهم من منزل والده في العريبات، ومال للفريق الثاني ورأى مستقبله يتوقف على هذه الطائفة. وفي ذلك المساء، ومع رجوعه إلى المنزل، وجد الصالح ومن معه ينتظرونه في غرفة كبيرة أشبه بغرفة الجلوس في الطابق السفلي للمنزل. كان قد تنبأ بحدوث هذا وأعد نفسه لكل الكلام والاتهامات التي يمكن أن ينالها منهم، وقدر أنهم سيطيلون الحديث؛ ذلك أنهم قوم مقال وجدال، وقد يكون هذا الموضوع -موضوع الحديث عنه- محور حديثهم لسنوات ومصدر تذكر واستحضار لذكريات عندما يغدو

كل هذا ماضيًا. حدق فيهم وكانوا ستة، وشابه الصالح أربعة ممن شاركوه نظرات الكره والعدوانية تجاه بديع، بينما كان السادس أكثرهم هدوءًا واتزانًا، كان جالسًا على كرسي بجانب النافذة، وبدا مستغرقًا في التفكير وكأن كل ذلك لم يكن يهمه لا من قريب ولا من بعيد. وعليه ركز بديع نظراته لبرهة من الزمن، ثم نظر من جديد إلى الصالح وقد أبدى استعدادًا كاملًا للانتهاء من الأمر. تقدم الصالح خطوة ناحية بديع ثم قال:

«**يا لك من جريء! وتأتي إلينا بعد الذي فعلته؟! لا مكان لك معنا، أتفهم؟ نحن أيضًا سننظم أنفسنا وسيكون لنا حزب من الناس يساندوننا، لا يغرنك ما فعلته؛ ذلك أن استعمال الحيل ونبذ التعامل بشرف يمكن للجميع فعله، وإن كان هذا ما تريده فسنريك كيف سيكون الأمر، ستُكشف وسيكون مصيرك مريعًا. سأعمل على أن يتحقق هذا**».

«**حسنًا، افعلوا ما شاء لكم فعله، أما أنا فسأبقى هنا، الوالد ترككم تبيتون هنا لأنه لم يكُن لكم مأوى آخر، سيسمح لكم بأن تبيتوا هنا إذا ابتعدتم عن المشاكل، أما غير الهدوء فلن يكون مسموحًا به هنا**» رد بديع بهدوء متجاهلًا تهديدات الصالح.

«**ومن قال لك إننا سنبقى هنا؟ لم يعُد يليق بنا وكر الغدر هذا، كان يجب أن نعرف، أن نعرف هذا من خلال معرفة طبائع أهل المنزل، الغدر والطغيان ديدن أهله، والدليل: ابنتهم هربت من ويلات هذا النفاق والاضطهاد**». لم يُجِب بديع على كلام الآخر وأسرَّها في نفسه، وقدر أن وحيدًا كان ليفعل عكس ما فعل هو إن كان هنا، وفكر أنه كان ليلجأ إلى العنف معهم، ولكنه كان ليلومه على

اختلاطه بأناس مثلهم، وكانا ليتشاجرا لفظيًّا بسبب ذلك. آثر الهدوء وتبني نفس الأسلوب الذي استعمله معهم منذ أول الحوار، واستمروا في التحديق فيه ثم تحركوا بعد أن تقدم الصالح جانبًا مغادرين الغرفة. بقي بديع واقفًا وانتظر هكذا وهو يستمع إلى وقع الأقدام في الغرف المجاورة، وبحث وقدر أنهم كانوا يحزمون أمتعتهم، وبعد دقائق عدة سمعهم وهم يمرون على الردهة ومن ثم يغادرون. شعر بالراحة والامتنان لأن الأمر انتهى على هذا الوجه، ولكن هذا الشعور مازجه آخر بالندم لصحبته لمثل أولئك الناس. جلس على كرسي ثم انتبه للرجل الذي كان جالسًا قبالة النافذة، خمن أنه سمع كل الحوار ولم يعرف رأيه في ذلك كله، أراد أن يعرف ذلك بسؤاله فخاطبه:

«**ألن تذهب مع الآخرين يا زهير؟**»، انتبه زهير وحدق في بديع ثم حرك رأسه بالسلب. خيم الصمت على المكان وأراد بديع أن يتكلم لولا أنه سمع طرقًا على الباب. تحرك من مكانه وذهب وفتح الباب، وعند الباب وجد جمال الهلالي مع شاب آخر، رحب بهما وانتظر أن يتكلما. ولما أخبره جمال الهلالي أنه أتى من أجل موضوع مهم، أفسح له المكان وطلب منه الدخول.

دخلوا إلى الغرفة أين كان زهير جالسًا، ولما جلسوا راقبهما بديع جيدًا وكان قد استغرب قدوم جمال الهلالي من دون كل الناس، وكان قد حدس سبب مجيئه رغم أنه لم يتعرف على الشاب الذي كان معه، وقد بدا هذا الأخير شاحبًا ونظراته تنم عن عدم اتزان داخلي وإرجاف من أمر ما. لم يطُل جو الصمت هناك؛ ذلك أن جمال الهلالي ابتدر الكلام وعلق مخاطبًا زهيرًا:

«أرى يا زهير أنك سمنت بعض الشيء؛ هل هي السياسة أم ماذا؟ يجب أن تخبرنا بسرك». ضحك جمال الهلالي وابتسم زهير بخجل ولكنه لم يرُد. ولم يَبدُ أن انعدام التفاعل مع محاولته لإضفاء جو من المرح على المكان كان ليثبط عزيمته أو يعيقه عن الكلام الذي جاء من أجله، فاستدار ناحية بديع وقال والابتسامة لم تفارق محياه:

«كل هذا هو من بركة هذا المكان. ما شاء الله! وكأن كل من يأتي إلى هنا وينال رضا أهله يغدو محظوظًا وتُفتح له الأبواب. على الرغم من خلافاتي مع والدك، السي مسعود -فأنا صريح وأقول الحقيقة فقط-، فإنني أحب وأعجب بعائلتكم يا أخي بديع. وأظن أنني لست أنا فقط، بل أكثر أهل هذه البلدة يشاركونني الشعور والرأي». ثم أطرق رأسه وكأنه يفكر منتشيًا بذكرى أو فكرة ملأت كل كيانه وهو يتنهد ويقول مُسمعًا من معه: **«هو فعلًا أمر جميل، إيه، عمي مسعود، يا له من رجل!»**. ثم انتصب في جلسته من جديد وقال وقد تحولت نبرة كلامه إلى أخرى جدية:

«لأدخل في مخ الموضوع، ما فعلته اليوم يا بديع كان جد شجاع، وقد حررت الكثير من الطاقات التي كانت مقيدة وتحت أغلال أشخاص فاسدين مثل سليمان دلول، إن كنت تريد معرفة حقيقته كاملة فما عليك سوى الذهاب إلى رابح عطية -هو قابع في منزله منذ أن عزلوه ورفعوا ضده الدعاوى في المحاكم-، وهو سيخبرك بالتاريخ المفصل لهذا الإنسان. بيني وبينك يا بديع، أنا على يقين من أنه متورط في أعمال فساد كبيرة لذلك عاملكم على الوجه الذي عاملكم به اليوم؛ خشي أن تكشفوه أو أن تكونوا سببًا في فعل ذلك. لا يمكنك تصور مدى تورطه وفساده، هذا الكلام

أعلمه من ثقات أسروا لي بكل تفاصيله، وليس هو فقط، بل إن قطيعًا كبيرًا معه يفعلون فعله، وبعضهم مسؤول عن أقذر الأعمال التي تحصل في تلك الإدارة. وأعتقد أن هذا له تاريخ طويل، والدك عمي مسعود يعلمه جيدًا». توقف جمال عن الكلام وكان كلامه قد أثار فضول بديع منذ بدأ الكلام عن شبهات سليمان، ولما كانت تصرفات الأخير قد جعلته يوغر صدره بالحقد عليه، فإن معرفة هذه الأمور عنه شدت انتباهه، واشتد هذا الانتباه والفضول عند ذكر جمال لوالده وإقحامه في الموضوع. شعر بديع بالحيرة وطرأت على ذهنه فكرة سذاجة كل ما كان يتفوه به جمال واستبعاده على أنه كلام نميمة وأكاذيب، ولكن تاريخ والده في البلدية محا كل هذه المحاولات، وفتح عينيه مترقبًا المزيد من كلام جمال الذي استأنف قائلًا:

«**والدك قبل أن ينعم الله عليه من أبواب متفرقة ويرزقه كل هذا الخير الذي هو فيه الآن وكان فيه، كان يعمل في البلدية ولكنه كان ذكيًّا؛ ذلك أنه وفق بين عمله في الإدارة وبين الخارج. أذكر أنه كان هناك كلام عن ترقيته إلى أمين عام، ولكن قبل اقترابه من بلوغ هذا كان قد استقال ومضى في تجارته وانتهى كل ما كان يجمعه بتلك الإدارة وكأنه لم يكُن. وأنا أظن أن السبب الأول الذي جعله يغادر تلك الإدارة هو ما أحسه أو رآه وتأكد منه من تلاعبات ونهب للمال العام ولكل ما يمكن أن يُجنى منه الربح ويمكن السطو عليه. وهذا لا يمكن أن يأتي إلا من سليمان دلول لأنه رأس كل الفساد الذي يحدث في البلدية، ومع تفشي تأثيره وتماديه بأن توسعت دائرة من ينتمي إليه صار بقاء الناس الصالحين أمثال السي**

مسعود مستحيلًا هناك. ولكن جاءت النازلة الأولى من عند الله وانتهينا من رابح عطية وبقي كبيرهم سليمان، فأرجو أن نتخلص منه قريبًا. وكما قلت أنت أمام الملأ اليوم؛ فالحل الوحيد هو أن تجتمع كلمتنا على لجنة تُوقف هذه الظاهرة وتستأصل هذا الفساد من منبته». وتوقف جمال بعد أن قام الشاب الذي أتى معه ووقف أمام النافذة، تحولت أنظار بديع وجمال وزهير إليه، ثم سأله جمال: «**ماذا هناك يا رضا؟**»، تذكر بديع هذا الشاب وتذكر معه قصة قد حدثت بين جمال الهلالي ورضا، واختلافًا بلغ حد العداوة، ولكنه شعر بالحيرة لرؤيتهما وهما على وفاق وود تام على الرغم من برودة تعامل رضا مع جمال، ولكنه فكر أكثر ورأى أنه يعامل الجميع هكذا، وليس جمالًا فقط. ولم يستطع جمال استئناف كلامه بعد أن سمع طرقًا على الباب، فأسرع بديع وبعد لحظات كان قد رجع برفقة رجلين أحدهما خير الدين باسط والآخر رءوف بن الجامع. تبدلت ملامح جمال فجأة، وبدا وكأن المنظر قد فاجأه، وتلبد لونه وحدق في خير الدين ثم أطال التحديق في رءوف بن الجامع الذي تبسم له ثم تجنب النظر إليه طوال جلسته على كرسي بجانب بديع، وكان زهير لا يزال صامتًا وبديع يرحب بالوافدين الجديدين، وبدا معهما أكثر أريحية ممَّا كان عليه مع الآخرين بمن فيهم زهير. ولم ينتظر جمال كثيرًا وراح يسأل مباشرة مخاطبًا خير الدين وهو يختلس النظر إلى رءوف:

«**ما الذي أتى بك إلى بديع يا خير الدين؟ على ما أعلم فإنه لا تجمعك ببديع أي قرابة أو صحبة أو حتى معرفة سالفة، البعض لا يظهر إلا في مناسبات محددة ومن أجل اقتناص فرص لا يخطر**

على الآخرين اقتناصها في تلك المناسبات على وجه التحديد. لم أكن أظن أنك هكذا يا خير الدين».

«**ما الذي دهاك يا جمال؟**» سأل خير الدين وقد بدا عليه الارتباك والضيق من كلام جمال، «**أنا لا أعرف عمَّ تتكلم، أنا لم آتِ إلى هنا من أجل أي فرصة أو مناسبة، جئنا أنا والسي رءوف فقط للتشاور مع بديع في ما يخص أمر البلدية، وأنا عضو في مجلس البلدية؛ ومن أجل ذلك فإنني ملزم بتقديم تقرير للولاية، أو التوسط بين مطالب السكان هنا والولاية للتوصل إلى حل. ذلك كل ما في الأمر**».

«**التوسط؟ هذا واضح**» علق جمال بتعجب وهو يحك ذقنه ثم شفته السفلى بيده اليمنى.

خيم الصمت بعد كلام جمال، وشعر بديع بأن منِ واجبه أن يكسر هذا الصمت بأن يوجه الكلام للطرفين، فسأل رءوفًا عن حاله وعن معارف لهما، فأجابه رءوف بجدية ممزوجة ببعض البشاشة التي كان يحاول أن يُدخلها إلى كلامه:

«**رمزي كان اليوم معكم في الاعتصام، وهو الذي رافق الميلود إلى الولاية ولكنه عاد بسرعة، في الحقيقة لقد شعر بالسأم سريعًا ولا أعتقد أنه يحفل بهذه الأمور، أما في ما عدا هذا فهو مهتم أكثر بالطيور وصيد السمك، شغف كبير، ولا يفوت أسبوعًا واحدًا لا يفعل فيه هذا**». وسكت من جديد، وفكر بديع في أن كل هذا لم يكُن سوى مظهر من مظاهر الصراع على القوة، وفكر أيضًا أنه على الرغم ممَّا يزعمه كل واحد منهم من انتماء إلى دين وفكر فإن الحافز والدافع الأول هو البحث عن القوة والاستقواء. فلم يُرِعه ما كان

يحدث هناك من صراعات خفية لم يَدرِ أغلبها، ولكنه شعر بالضيق وبأن الأمر قد يصبح قيدًا في عنقه، وخمن أن الوسيلة الوحيدة هي في التصرف بحنكة وذكاء مع هؤلاء لبلوغ بغيته، وهي الجاه والنفوذ. فكر في ذلك فهان عليه ما كان فيه، وذهب عنه بعض ما كان يشعر به من اختناق داخلي وحتى بعض من الضعف والهوان، وحاول إقناع نفسه أن طريقة تفكيره هي المثلى، وأن ما يدفع الآخرين من أفكار لم يكُن سوى إحاطة بلب ذلك الهدف الذي يسعون من أجله بينما يبدو له جليًّا وماثلًا للعيان وهو الاستعلاء، وأنه بذلك سيبلغ هذا الهدف قبلهم بأن يبزهم وتصبح له الكلمة العليا في المستقبل. بيد أن الحال التي كان فيها كانت حقيقية، وأنه كان لزامًا عليه أن يتعامل معها، ومع هذا انتابته الرغبة في معرفة ما الذي كان يدور فعلًا في تلك الغرفة وإن كان من الممكن أن يجني من ذلك الوضع أي فائدة. فتكلم بديع وقد اختفت عنه تلك الحالة السالفة وبدا أكثر أريحية وواثقًا من نفسه، تكلم في صلب الموضوع وقال:

«**إن الأمر واضح جدًّا على ما يبدو لي، لن يدخل اللجنة إلا من أبدى استعدادًا للوقوف في وجه جميع الظروف والاستعداد لتجاوز جميع العقبات، لا أخفي عليكم أن هذا يجب أن يكون مهمًّا، وأن العمل الذي سنقوم به سيكون حاسمًا؛ ومن أجل هذا فإن فقط ذلك الذي أبدى هذا النوع من الاستعداد للذهاب بعيدًا وتوقع كل شيء يمكن أن يحصل له، حتى المكروه الجسيم، هو النوع المرحَّب به والذي يمكن أن يساهم في عمل الجماعة التي ستشكَّل ويكون عملها مرآة لطموحات وما يرغب فيه أعضاء هذه الجماعة لتكون النتيجة مستحبة وننتهي بالظفر. نعم، لا شيء سوى**

الظفر يجب أن يتحقق، وما عدا هذا فهو لهو وغير مرغوب فيه ولا مكان له بيننا». فاجأ هذا الكلام الجالسين، واختلفت النظرات التي كانت موجهة إليه بين حائرة من خير الدين، وفضولية للغوص في أعماق بديع من رءوف، وكذلك معجبة بكلامه من رضا الذي رفع رأسه لأول مرة، ولأول مرة كذلك بدا أن شيئًا ما أثار اهتمامه. أما جمال فمازج نظرته وجه شاحب وقد ذهبت عنه كل التعبيرات، فلم يبقَ في تلك النظرة سوى الفراغ مع استعداد لأمر ما، وتجاهل بديع كل هذا الجو ورأى أنه قد قال ما يكفي وأنه لم يبقَ سوى الانتظار ثم الاستعداد لقيادة الدفة التي ستعرض عليه. ثم تكلم رضا بنبرة تنم عن نفاد صبر من أجل التعبير عمَّا يجول في خاطره:

«**أعتقد أن المواصفات المثالية هي نبذ الخرافات وتبني العقلانية الصافية دون أي مظهر من مظاهر الهلع التي تظهر من خلال الاعتماد على الطقوس الدينية؛ لأن ما نحتاج إليه هي دولة واقعية تعلو قوانينها على كل الآراء والخرافات ولا تستند إلا إلى العقل، وبذلك تكون متاحة للجميع بأن تكون الحرية للجميع؛ الحرية بكل أنواعها دون تمييز للون بشرة أو دين أو أي أمر آخر. نريد دولة قانون وليس دولة أطلال ومظاهر تمثيلية تظهر من ملابس قديمة وأفكار بالية تنتشر بحكم الفقر المادي، فالازدهار إن ظهر ذهبت معه كل تلك الأفكار، وتحقق الإنسان من قدرته على تحقيق ما يريد دون اللجوء إلى أي قوى خيالية أو كائنات متجاوزة لهذا العالم. الإنسان المثالي والقوي لا يحتاج إلى أي أمر خارجي لكي يفتح له الأبواب أو يساعده على ممارسة قوته وعيش الحياة مثلما يجب أن يعيشها كل إنسان طبيعي لا يهمه سوى ما**

تُمليه عليه طبيعته، وليس قوانين البشر التي تستمد أصولها من معارك استغلت فيها الضعف وما يمثل الضعف للاستقواء، فالبعض لا يربح إلا بالضعف، لعل هذا بعض من الشذوذ الذي يريد فرضه الإنسان الضعيف على الطبيعة وعلى الإنسان القوي الواثق من نفسه وممَّا يريده. ما هي هذه القوانين؟ ومن أين لها الحق بأن تعيق من يريد العيش فعلًا؟ ماذا تفعل سوى تنغيص الحياة على من يريد العيش ويحب الحياة وجعلها جحيمًا له؟ إن هذا يجب أن ينتهي وهذه هي الفرصة، يوجد الكثيرون ممن يفكرون على هذا الوجه هنا وفي كل أنحاء العالم».

«**هذا كلام خطير، الذي تتفوه به الآن**» تدخل رءوف فجأة، «**فقط المجانين ومن لا وازع لديهم هم الذين يتصرفون وقبل هذا يفكرون على هذا النحو. لو أن الناس كلهم كانوا يفكرون مثلك لتفشى الفساد ولأباد البشر بعضهم البعض، مثل هذا الكلام يؤدي إلى حبل المقصلة، أنصحك أيها الشاب ألا تعلن مثل هذه الآراء على العلن؛ لأنك إن فعلت فستلقى الويل، ومَن تلقى منهم الويل سيكون معهم الحق ولن ألومهم، كما أنك ستنضج يومًا ما وتتأكد من عقم مثل هذه الأفكار وتفاهتها، ولكن إلى ذلك الحين فما ينتظرك هو الموت وهو الأقرب إليك، أبقِ فمك مغلقًا ومر على الحياة مثل الآخرين، وفي حياة أخرى سنعلم أينا الأقوى**». تكلم رءوف بن الجامع على هذا النحو، وكان واضحًا أن كلام رضا قد أثاره وفاجأه كذلك. أما بديع فقد ارتاع وبان له الشبه الكبير بين طريقة تفكير هذا الشاب وبين طريقة تفكيره، ومن ثم شعر بالخزي بعدما بدا له كلام الشاب وكأنه مرآة عكست كلامه وطريقة تفكيره،

وكان هذا الانعكاس مخزيًا لدى وضعه تحت الأضواء، فيبدو هزيلًا وكأنه كلام المجانين والمعتوهين والذين لم يعركوا الحياة والأغرار. وانضم إلى الخزي شعور بالحرج والصغر، وبدا لنفسه جد ضئيل ودون أية قيمة، وعبثًا حاول استبعاد التشابه بين طريقة تفكيره وطريقة تفكير رضا؛ بأن فتش عن كل النقائص في كلام رضا وما يمكن أن ينقد، ومن ذلك النقد كان تكون رأي لم يكُن إلا نقدًا لطريقة تفكيره ذاتها. بيد أنه لم يعبأ بما يمكن أن يحوي هذا من هجوم على بنيته الفكرية، وراح أثناه يشعر بالانتشاء لتقهقر الآخر في عقله مع هزات كانت تلك البنية نفسها تهتز لها. وانتبه على كلام رضا وهو يرُد على كلام رءوف وقد بدا محتدًّا وقد أثر عليه كلام رءوف:

«**المستقبل سيُنبئك بكل ما قلته لتوي، ستسقط كل هذه الأفكار البالية لأنها مجرد وسائل في يد الإنسان من أجل الارتقاء وفرض نفسه، ما لم يعُد قادرًا على توفير القوة ودفع الإنسان إلى الأمام فمصيره الاندثار، وإن هي أبت إلا استمرارًا فلن تكون سوى عدمية، وذلك برفض العالم مثلما هو عليه والتوجه أو الهرب منه نحو ما هو خيالي ومضعف**».

«**لا أحد عدمي مثلكم أنتم، أنت وأمثالك تجسيد العدمية في حد ذاتها، ووصفك للآخرين بالعدمية لا ينزع منك هذه الصفة ولا يجعل منها تصدق على الآخرين**». رد رءوف ببعض الهدوء والاتزان اللذين استفزا رضا، فقام من مكانه وبدأ في الكلام بصوته الرقيق الذي لم تتلاءم معه حدة الأفكار وما أراده من خشونة في التأثير على مستمعيه: «**بل العدمية هي ما تفعلونه أنتم، نعم، أنتم وأديانكم وعاداتكم، هي كلها عدمية، كونوا شجعانًا ولو للحظة، وتقبلوا العالم مثلما هو وتقبلوا الحياة، قولوا نعم للحياة**».

«**نعم، هذه العدمية التي تصفها، هي في سلوكك وما تريده، أمثالك قد رفضوا كل القيم والمبادئ السامية**».

«**لا، لم نرفض أي مبادئ، نحن نرفض المبادئ البالية التي عفا عليها الزمن، مثل: الأخلاق، والدين، والعادات المضعفة، وبدل هذا ندعو إلى دين الحياة، إلى تقبل العالم، تقبل الجسد وعدم الشعور بالعار منه، تقبله وتقبل وظائفه دون أي كبت أو كبح لهذه الوظائف، هذه القيم التي نؤمن بها وندعو إليها، نحن النفوس الحية وليس أنتم النفوس الميتة**». حير هذا الكلام بديعًا، وآثر الصمت، أحزنه أن مثل هذه النزعات التي ينطوي عليها كلام رضا هي نفسها النزعات التي تحركه هو، وشعر بالضيق وبأن الدرب الذي اختاره قد يكون درب بله وجنون وأنه لن يبلغ أي شيء، وأجال بنظره على الآخرين يتفقد إن كان أي واحد منهم يرى فيه مشابهًا لرضا وأنهما من طينة واحدة. لم يُرد مثل هذا التشبيه، وقرر التوصل إلى حل ونبذ هذه المشاعر بإثبات أنه مختلف عن ذلك الشاب ما إن يختلي بنفسه، أما رءوف فابتسم ثم قال:

«**مصيرك مهول أيها الفتى، أنت أمام أحد خيارين ستلقاهما في حياتك، ولكني لن أقول أي شيء عنهما، قد أكون مخطئًا، ولكني متأكد من شيء واحد، ستكون دومًا شقيًّا**». سكت رءوف ثم قام من مكانه واستأذن، ثم غادر الغرفة فالمنزل، ثم تبعه خير الدين بعد أن أخبر بديعًا أنهما سيزورانه في وقت آخر.

وبقيت الرغبة في الكلام والتعليق على كلام وشخص رءوف لدى رضا، وكان هذا واضحًا بعد أن وقف من جديد وبدأ في هرع الغرفة جيئة وذهابًا، أزعج وجود هذا الشاب بديعًا، ولم يعُد يطيق

رؤيته خصوصًا بعد أن أقر بنزعاته اللا أخلاقية، وما أزعجه أكثر في ذلك الشاب هو اكتشافه لنفس تلك النزعات اللا أخلاقية داخله، وبدا له الأمر –من منظر ذلك الشاب الجاهل بأمره– صبيانيًّا وتافهًا وكذلك هشًّا، ونغصت عليه تلك الهشاشة وإدراكها جلسته في لحظته تلك، وود لو أن الجالسين معه هناك يرحلون ويتركونه وشأنه. بيد أن رضا مضى عكس التيار وبدأ في الكلام، فكانت كلماته وكأنها نواح لما احتوى عليه صوته من بعض الصيحات التي تلت نهاية كل جملة:

«**في بعض الأحيان لا أصدق أنه يوجد مثل هؤلاء الأشخاص، هم فعلًا أعداء للبشرية، يخالون أنفسهم أنهم يخدمون مثلًا أعلى، ولكنهم لا يخدمون سوى شهواتهم. لو يسمعون أنفسهم فقط، كنت لأجن لو كنت في مكانهم واكتشفت هذا. لا يعرفون فعل أي شيء سوى إعطاء الدروس ونبذ الحياة، انظر فقط ما الذي يفعلونه بالمرأة، هل تستطيع المرأة حتى الخروج وممارسة الرياضة والجري مثلما يفعل الرجال؟ اضطهاد المرأة وشيطنة جسدها، ما هذا؟ الرجال أنانيون ومغرورون وطغاة، فقط المرأة هي التي تعيد النظام وتدرأ الفوضى عن المجتمع؛ لذلك يجب أن تحكم المرأة، نعم المرأة لديها الغريزة وحس الوجود الهادئ والناعم الذي يعطي البشر السلام وعيش الحياة بتبني الجسد ورغباته وعدم الإعراض عنه، نعم، المستقبل هو مع المرأة. انظروا فقط إلى العائلات التي تكون فيها السيطرة للمرأة ويكون الرجل خاضعًا لها، هي مزدهرة والرجل يعمل والمرأة تعرف كيف تنظم ... اضحكوا، نعم اضحكوا، تخالونني ... سموني ما شئتم، ديوثًا، كشخان، ولكني إنسان وأؤمن بالإنسانية وبمكانة المرأة، نعم اضحكوا، حتى**

أنت يا جمال الذي ظننتك متقدمًا وقد تركت الرجعية وراءك؟ أنتم فعلًا ..». لم يكمل، وكانت ضحكات جمال قد تعالت، وحتى زهير انضم بعدما كان هادئًا طوال الجلسة، بينما دفن بديع وجهه في يديه وهو يقاوم موجة الضحك التي انتابته، والتي أثارتها أكثر حقيقة أنه لم يكُن يريد أن يضحك، والموقف وهذا الشعور كانا يدفعانه للضحك بقوة. ولما هدؤوا جميعهم عاود رضا الكلام ولكن كلامه استمر في إزعاج بديع، وحتى جمال بدا محرجًا من اقتران وجوده في ذلك المكان برضا الذي كان يوجه له الكلام بين الفينة والأخرى وجمال يرفض النظر إليه. وبعد أن سكت أسرع جمال وسأل بديعًا عن مستقبل الجماعة ومن سيكون عضوًا فيها، واكتفى بديع بتحريك رأسه يمنة ويسرة ثم أجاب: «**سوف ننظر في الأمر**». فهم جمال مغزى هذا الكلام، فقام من مكانه واستأذن ثم رحل مع رضا، وبقي بديع وحيدًا مع زهير الذي كان يمسح عينيه، فابتسم بديع ثم قام وغادر تلك الغرفة.

ذهب إلى الجهة الخلفية للمنزل ثم ولج بابًا يؤدي إلى الخارج ووقف عند العتبة، ثم تحرك إلى جانب الباب واستند إلى الحائط في الباحة الخلفية. نظر إلى الأفق البعيد وهو يراقب السماء وقد اقترب المغرب وآذنت الشمس بالغروب، ومازج المنظر شعور بالاعتياد عليه وغياب الاهتمام والانتشاء بما كان يسعد من قبل بشعور آخر مقاوم ومكتشف لزوايا أخرى للتمتع بذلك المنظر؛ زوايا في الذهن ترتبط برؤى تطلعية ومستقبلية يحركها الأمل ووظائف أخرى داخلية. ثم انتبه إلى الشجيرات التي كانت تخترق ذلك الأفق وتشكل حاجزًا لحمى منزلهم، ثم خفض عينيه ونظر إلى القبور

الثلاثة الناتئة وهي تعرض عليه أفقًا آخر. فكر أن هذا ما ينتظره وأنه ليس له إلا العمل وعيش الحياة مثلما يجب أن تُعاش، ثم تذكر كل تلك الشخصيات التي كان كل واحد منها قدوة له، وأن ما جمعهم كلهم هو التميز والعمل ثم الظفر ثم استحقاق ذلك الظفر بالخلود في الذاكرة البشرية. لكنه تذكر رضا وكلامه أيضًا، ولم يتمالك أن شعر بالحيرة واحتمالية أن كل هذه الأفكار هي أوهام، ولكنه فكر أنها مقارنةً بأوهام البقية تكون واقعًا، ثم توقف عن التفكير فجأة وكأنه شعر بالضيق والملل منه، وراح يتأمل في القبور. لم يستطع انتشال عينيه من التحديق في تلك القبور التي هبط على أوسطها طائر أسود فتحقق منه بأن أمعن النظر فاكتشف أنه غراب، وعلى الفور خطرت على باله فكرة الشؤم الذي يُحكى عن هذا الطائر وبأنه يجلبه، وشعر بالرغبة في التطير، تعجب من هذا الشعور، ثم تلته رغبة في التوقف عن تمني كل شيء وقطع منهل الرغبات جملة وتفصيلًا، وفكر بأنه لن يتزوج ولن يقترن بأحد، بل سيظل أعزب ووحيدًا، فكر في هذا وهو ينظر إلى الغراب، ثم انتبه على صوت بجانب الباب. ظهر زهير ثم قال بعد أن تأمل فيه لبرهة: «**كان وحيد هنا، أخبرني بأن زيدًا اختفى، وكانوا يبحثون عنه، لكن صديقًا له أخبرهم بأنه قد هاجر خارج البلد**». توقف لبرهة ثم علق: «**هو ذكي فعلًا، لعله سيلقى صلاح الحال ويلقى من يكتشف قيمته، هو فعلًا ذكي**».

«**أتسمي هذا ذكاءً؟ أنا أسميه الفرار، ماذا سيلقى في بلاد الغرباء، وأي غرباء؟! في الشمال ليس هناك سوى الفرار، لعله سيفر من فراره ومن حتى الشمال داخل الشمال**». حدق زهير فيه، ثم أشاح بديع بوجهه ونظر إلى القبور وكان الغراب قد طار لتوه،

راقبه ثم فكر أن ريح الشمال كانت قد نالت من بعض من عقله، وأن هذا التشاؤم ما هو إلا من ذلك المنهل. راقب الغراب ثم القبور، ثم رفع رأسه ونظر إلى الأفق، وبين القبور والأفق اختار الأفق، وبدا له أن الكثير قد تغير.

دخل مسعود مركز الشرطة وحده، وباستثناء عناصر الشرطة التي كانت تحرس عند المدخل وعند الباب فإن أحدًا لم يرَه، ولم يكُن الأمر لأنه كان مرتاعًا من أن يراه أحد أو مشفقًا ممَّا يمكن أن ينتج من تخمين لبغية مسعود في زيارة مركز الشرطة، ولكن حاجة أخرى دفعته لكي يلتفت ويتفحص ساحة المدخل. استفسر بعضَ الموظفين في ثياب مدنية، ثم صعد إلى الطابق الأول واستدار يمنة في ردهة، توقف عند آخرها ثم طرق على باب جانبي وانتظر برهة إلى أن سمع صوتًا يطلب منه الدخول، ففتح الباب ودخل ووجد نفسه في غرفة صغيرة نوعًا ما، وعلى اليمين كان هناك مكتب جلس وراءه رجل بدا ضخمًا رغم جلوسه في ثياب زرقاء –زي الشرطة– وكان يدخن وعيناه كانتا جاحظتين باتجاه مسعود الذي جلس قبالته على كرسي يتوسطهما المكتب. ابتسم مسعود، وفجأة ابتسم الشرطي أيضًا وقد بدا قبل هذا عَبوسًا تعلوه هالة من الانغماس في شيء ما، وتوسطت جبهته علامة الصلاة مرسومة وكأنها نقش قد نُقش مع إدراك لدى صاحبها بما يجب أن يرافقها وما يجب أن يتصرف تجاهها. استمر الشرطي في الابتسام؛ وهو ما شجع مسعودًا لأن يبدأ الكلام

مباشرة ودون تضييع للوقت، فقال بصوت متزن جذب إليه اهتمام ونظر الشرطي بأن جحظ أكثر عينيه وجذب نفسًا من السيجارة:

«**أنا مسعود بن نوح، لديَّ منزل في العريبات، كنتم هذا الصباح هناك حول الميت الحواس لهولي -رحمه الله- وكان أحد عناصرك، أظنه مساعدًا طلب مني القدوم هنا والتكلم معك حول الأمر**». هز الشرطي رأسه مرة واحدة تأكيدًا على كل ما قاله مسعود، ثم نظر إلى خلف مسعود وهتف باسم «**يوسف**» ثم انتظر، وبعد ثوانٍ فُتح باب وراء مسعود، ودخل منه شاب في زي الشرطة أيضًا، وكان المشهد قد فاجأ مسعودًا ولكن دون أن يروعه، ونظر خلفه ليجد الباب مفتوحًا وخلف الشرطي الشاب غرفة أخرى بمكتبين متقابلين. ولم يبطئ الشرطي وطلب من مساعده أن يجلب ملفًّا واصفًا إياه: «**ذاك الملف الذي طلبت من مهدي أن يتركه عندك**». رد الشاب بأنه سيعود فورًا، وهو ما فعله وعاد ووضع رزمة من الأوراق مثبتة بعضها ببعض، ثم غادر الغرفة وبقي مسعود مع الشرطي من جديد الذي فتح الرزمة وبدأ في تصفح أوراقها. وبعد برهة من الزمن بدا فيها وكأنه اطلع على ما كان يجب الاطلاع عليه، نظر إلى مسعود وقال:

«**الأمر لا يزال غريبًا، لا نعلم مَن فعلها ولكننا نعلم أنها فعل فاعل، الأمر واضح جدًّا ولا داعي للشرح، هي ضربة خنجر أو شيء حاد كان يكفي مثل حجم الخنجر لفعلها. ولكن ما لا نفهمه هو: لماذا؟ ولكننا سنهتدي إلى ذلك ما إن نهتدي إلى الفاعل، وسنهتدي إليه، صدقني**». حدق في مسعود مليًّا وبدا تحديقه حادًّا وموغلًا؛ فأسرع مسعود للكلام قائلًا:

«**هذا أمر مفروغ منه، ولكن كنت أريد معرفة ما الذي تريدونه مني، وإن كان حول القضية فيمكنك القول كيف أستطيع المساعدة وسأفعل. الرجل كان يسكن في أرضي، والبيت الذي يسكن فيه هو منزلي أيضًا، هو بيت الوالد، وعائلته لا تزال هناك أيضًا، لا أدري ما الذي سيفعلونه. أنا هنا الآن وأنا جاهز لكل شيء**».

«**ليس هناك الكثير ممَّا يمكنك مساعدتنا به يا السي مسعود، فقط إن كنت تعرف من فعلها فهذا سيكون كافيًا**». ابتسم ابتسامة حادة وموغلة أيضًا، ظهر بها وكأنه اطلع على دخيلة مسعود ونال ما أراد نيله، ولكن مسعودًا رد بالنفي قائلًا: «**لا علم لي بأي شيء من هذا الأمر، ولو كنت أعلم لحلت دون وقوع هذه الكارثة**».

«**على أية حال فإنه ليس لدينا أي شيء لنسألك إياه، إن احتجنا أي شيء فسنستدعيك**». هبطت الكلمة الأخيرة على ذهن مسعود وكأنه أصبح في يد الرجل –الشرطي بصيغة الجمع– وأنه سيكون لاصقًا به وفي ذهنه ما طال ذلك الغموض، ابتسم وخفض رأسه ثم رفعه تحية منه للشرطي، ثم قام واستأذن. وبينما هو يخطو البضع خطوات التي تفصل الكرسي عن الباب، قال الشرطي:

«**أنا النقيب حسان الشاوشي، لا تقلق، لن يكون هناك إلا خير**». قال هذا وقد قام من مكانه ووضع يديه على المكتب مستندًا عليهما ومنحنيًا إلى الأمام، وقد بدا وجهه جد بشوش كتغير تام في مظهره، وتعبيراته جعلت مسعودًا يشعر بامتنان، فشكره معبرًا عن ذلك الامتنان ثم خرج من المكتب.

في طريق عودته فكر أن الأمر كان جد سريع، وأنه كان يتوقع أن يحققوا معه لساعات طوال، لكن الأمر استمر في إقلاقه والتنغيص عليه، والأمر فوق كل هذا ودون شرطة كارثي ومفجع، وتساءل لماذا تحدث هذه الأمور معه، ثم رد كل هذا مباشرة إلى مشيئة الله. وبعد أن فكر في طبيعة هذا الأمر تذكر ابنه زيدًا ثم ابنته منال وقبلهما أسامة، وانتهى عند زوجته فحزن حزنًا شديدًا وضاقت عليه الدنيا؛ خصوصًا أنه كان قد لاحظ أن معاملة الكثيرين قد تغيرت تجاهه وبقي القليلون فقط ممن يكنون له الود، ولم يعلم سبب معاملة سكان البلدة له على هذا النحو، «**يظنون أنني أسأت تربية أولادي وأن منزلي منزل فساد**»، تمتم بهذه الكلمات بينه وبين نفسه، وانتبه على ذلك وظن أنه لا يجب أن يفعل هذا من جديد مهما كان الضغط داخله، ولكنه فكر في الأمر من جديد ونسب بعض المسؤولية لنفسه: «**ولكن يبقى الأمر أكبر مني**». ولكن هذا لم يكُن يهم بقدر الفجائع التي كانت تنزل عليه، كانت تنزل فعلًا كالسوط فتسلخ قلبه، وبعضها كالصاعقة مثل موت ابنه وزوجته، وشعر بأنه في ما يشبه سجنًا يخنقه وأن وجوده كان على وشك أن يعبث به، ثم استبعد كل تلك الهواجس كليًّا، ورفع رأسه إلى السماء ثم خفضه وكان إيمانه قد تدخل: «**فليس لي سوى أن أُحسن الظن بالله، هو مولاي ليس لديَّ غيره، وسأنتهي وينتهي كل شيء ويبقى هو، ولا يبقى من وجودي سوى عملي، وما كان صالحًا منه فهو المنفعة**». عاد إليه بعض من السكون، وفكر أن كل التجارب الحياتية، وما يظنه المرء أنه أدرى به وأن تلك الأفكار أو المقتنيات المادية يمكنها أن تحميه وتدفع عنه غوائل الزمان، ما هي سوى أوهام تسقط مع فعل الزمان

والإرادة العليا التي تحركه. وأراد أن يفتش عن آماله فوجدها داخله في مكان ما رابضة ومتربصة، فأسعده الأمر وأزعجه كذلك، ولم يَدرِ ما الذي يجب أن يفعل بها أو ما يجب أن تكون هي عليه. ثم قفز ذهنه إلى الآني من حياته وأراد أن يذهب إلى المحل ليشغل نفسه بالعمل، ولكن فكرة البحث عن منال عادت إليه من جديد، وقرر أن يتحرك في الصباح الباكر لكي يقصد أماكن معينة عله يهتدي إلى مكانها، وعُرضت في ذهنه صور مختلفة عن منال وعمَّا يشبه طرقًا وهي حاملة حقيبة وكأنها تريد الحرية، وشعر بالرحمة عليها وخمن أن الأمر لن يطول حتى تعود أو يجدها وقد انزاحت عن ذهنها كل تلك الأوهام: «**لكن ما فعلته كان غلطة عظيمة، الله يعفو**». ثم انتابه حزن عميق بدا أنه بلغ مبلغًا عظيمًا داخله، وتنهد ثم استغفر الله وبدا كل هذا جد ثقيل وينوء به هو الضعيف، وشعر بأنه وُضع في وضعيات مجموعها كان شبيهًا بالفرن المشتعل، وأنه يُكوى داخلها ولم يكُن يريد أن يتنصل من كل هذا، وبأن عليه أن يتشبث بكل مسؤولية وبكل حب كان يكنه لعائلته وأصدقائه وما ينتج عن هذا من شعور بالواجب فتطبيق له. ثم استبعد تشبيه الفرن واصفًا إياه بالمبالغ فيه، وفكر بأن كل هذا: «**ما هو سوى ما قُدر لي، هو قضاء، والله شاء والله يمتحن عبده، ولا هروب ممَّا كان قد كُتب في السماء العليا**». ثم خطر على باله أن مثل هذه الأفكار كان يمكن أن تُعد علامة على النفاق من جهته من طرف أولئك الذين أصبحوا يعاملونه بعدوانية في الفترة الأخيرة، ثم تلت هذه الفكرة فكرة ما لاحظه من تنامي أفكار إلحادية تسخر من هذه الأفكار وتعدها ضعفًا، وفكر في ولده زيد وما أخبره عنه ابن أخته

عبد الرحيم، ثم فكر في بديع أيضًا ولكنه أحس أنه أكثر عقلًا، وأنها لم تكُن إلا هفوة ستنتهي رغم الغلطات التي سيرتكبها، فخمن أن زيدًا لن يعود بسبب تفشي هذا الفكر داخله، وكونه السبب في رحليه عنهم، فأحزنه الأمر ورأى أنه لم يبقَ له سوى بديع، «**منال ستعود**» قدر هذا أيضًا، وبدت له حساباته هذه ضربًا من العبث، وأن ما عليه أن يفعله هو الانتظار وترقب مشيئة الله. وشكر الله وحمده وتخيل نفسه وحيدًا بإيمانه، وأن الناس كلهم أضحوا شكاكين وملاحدة، فلم يرعه هذا التخيل واستبعد أن يحدث هذا، وبأن ما سيبقى هو هذا الإيمان بالله وإن اختلفت وجوهه، ولكنه لم يشك في غياب أمر آخر وندرته، ثم قدر أن كل هذا التفكير مرده إلى تلك الكوارث التي كانت تنزل عليه، وآخرها موت الحواس، وشعر بأن الأمر مكين وسيصيبه منه مصاب آخر. ولم تكُن تلك المصائب فقط، بل شعوره بتذبذب الأحوال وعدم بقائها على حال واحدة، وأن المقادير إن نزلت فهي تقلب الموازين ويصبح العزيز ذليلًا والفاتح سجينًا مهانًا، وعلاقة كل هذا بالوسيلة المثلى له لكي يجابه كل تلك النوازل وإن هي ناءت به أو قصمت ظهره، فلم يبقَ له سوى ذلك الحبل المتين، فتمسك به وشعر بريح فعل الزمان وهي تهب عليه يمنة ويسرة، فمشى في طريقه وفكر أن كل هذا كان قدرًا مقدرًا ومحتومًا. وبدا أن جوهر ذلك الحبل كان يتخلل كل تلك الأفكار، أما ما أعطاها القوة فهو ذلك اليقين في مواجهة كل العواصف مهما كانت، يقين كان مثبتًا بالتجربة وأن ما عداه فهو هش يلقي بصاحبه إلى الدرك الأسفل وإلى الحتف يرافقه تشاؤم وسخط مرير. وشعر أن ما هو متجاوز لذلك الجوهر هو أمر لا يمكن له الإحاطة به، فلم يفكر به كثيرًا ومشى وهو

متيقن من صلابة السند الذي يستند إليه، مشى دون خوف أو وجل، واستبعد كل الهواجس التي كانت تستمد صدقها وقوتها من الواقع وممَّا كان يحيط به من حوادث يومية اتخذت هدفًا واحدًا لتعسه وخيبته، طارقة مخيلته في صورة حشرات ذهنية مزعجة لا يجد المرء سوى استعمال يديه لإبعادها في كل لحظة.

ووجد نفسه فجأة داخل محل إسماعيل الطاهري للبقالة، كان صديقه –إلى حد ما وليس لدرجة عالية– في حدود المحادثة والتلاقي للترويح عن النفس، وهناك كان بعض من المشترين، وكانوا يتحدثون وإسماعيل يتحرك بين صناديق الخضر والفواكه وبين الميزان وطاولة الحساب. سدد من كان واقفًا مقابلًا الباب نظرات إليه، فألقى السلام بصوت مرتفع، فرد السلام عليه من كان يراه بصوت بارد، أما من كان مديرًا ظهره للباب فكان رده للسلام بصوت مرتفع أيضًا، ثم استدار وتأمل مسعودًا الذي وقف عند الطاولة وابتسم. توجس مسعود من بعض الوجوه خيفة من أن يلاقوه بكلام فظ مثلما هو حال بعض أهل المأرب ممن كانوا مولعين بالتحامل بعد التعميم والمبالغة في الحكم، ثم نهش اللحوم بغياب أصحابها أو بحضورهم. وقبل أن يحدث أيٌّ من هذا أسرع وذهب إلى أحد الصناديق، وطلب من إسماعيل أن يزن له من بعض الخضر والفواكه، انتبه إسماعيل ورد بأنه سيأتي حالًا. وفي وسط المحل كان رابح عطية واقفًا مع عبد الحفيظ سالم الذي كان ينظر إلى المدخل وعبد السميع الصافي ورجل آخر لم يكُن مسعود على معرفة به وإن كان كثيرًا ما يراه في البلدة، وكان رابح عطية هو الذي يتكلم وعبد السميع والرجل الآخر منصتان له بانتباه شديد:

«**ها قد افتضحوا بأن ظهر الحق، ولم ينالوا سوى العيب، ظنوا أنهم يمكن أن يكذبوا على العدالة ويسجنوا الشرفاء لكي يبقوا وحيدين للنهب، نعم يريدون نهب كل شيء، ولولا الرجال لكانوا أتوا على أخضرها ويابسها. ومن هم؟ مجموعة من المرتزقة والشباب الفاسد والموظفين الفاسدين الذين كانوا ينافقوننا ويخفون حقيقتهم، لا أصل لهم ولا أهل، لن يذهبوا بعيدًا وستتلقاهم أيدي النظام والقانون؛ ذلك أن الدولة عمياء ولكن يدها طويلة جدًّا**».

«**لقد أخبرنا أهل البلدة مرارًا ولكنهم لم يستمعوا إلينا**» تدخل عبد الحفيظ وقد استدار لمحدثيه وهو يجيل البصر على كل واحد منهم بينما هو يتحدث: «**قلنا لهم لا يمكنكم الوثوق بحفنة من الأطفال والغرباء، قالوا إن هذه الجماعة تمثل البلدة، وهي تضم الكبار ممن لديهم الخبرة والشباب وحماسه. يعني أريد أن أفهم من أين للميلود بهذه الخبرة التي يتحدثون عنها، هه؟ أخبروني يرحم والديكم، ألم نعتَده مجرد حارس في شركة المياه؟ والآن أصبح سياسيًّا محنكًا ويتحدث عن مشكلة النظام والقانون وماذا ينقص البلد، يعني في ماذا هو أفضل مني أو منك أو من الآخر؟! هه؟ قل لي. هذا ما وصلنا إليه ووصلت إليه البلاد؛ مجموعة من أمثال الميلود يتحكمون فينا**».

«**وهل تظن أن الميلود هو الذي يحكم أو لديه القرار والكلمة الأخيرة؟**» سأل عبد السميع الصافي وقد جذب إليه انتباه رابح عطية واختلس نظرات إلى مسعود الذي رآه بعد أن قام من أحد الصناديق في الأسفل، «**الميلود لا رأي ولا كلمة له في تلك الجماعة، بل هم**

أولئك الشباب المارق من الذين لعبوا بعقله وأقنعوه بأن له السلطة وأنه يمكن أن يبلغ أقصى المراتب حتى في البرلمان».

«**فعلًا، هذا ما حدث**» أسرع رابح عطية إلى تأكيد كلام مريده، ثم أضاف: «**أليس هذا إلا نتيجة الفساد الذي يربي فيه بعض الآباء أبناءهم؟ الآن كلنا ندفع الثمن**».

«**هذه هي سنة الحياة، الأبناء أنفسهم لا يلقون بالًا لوالديهم**» قالت عجوز كانت قد دخلت لتوها واستمعت لتعليق رابح عطية، ثم أضافت بحسرة ممزوجة برحمة على الآباء وعلى البنين: «**لا يفلح إلا من رزقه الله بذرية صالحة تساعده في كبره، أما ما عدا ذلك فإن فساد الشباب في كل مكان، ولا يجب إلصاق التهمة بالآباء والأمهات فقط**».

«**يا الحاجة نحن لا نقصد هذا**» تدخل عبد الحفيظ وقد فهم من كلامها أنها تتحدث عن أمر آخر وليس ما كانوا فيه، «**يعني هو مغزى كلامنا يتعلق بما يجري في البلدة وتغير الجيل الجديد واتجاهه إلى السياسة ليحاول حكم الكبار**».

«**وليس هذا حديثنا أيضًا يا عبد الحفيظ**» قاطعه رابح عطية بعصبية، «**أنت تهيم في وادٍ آخر يا عبد الحفيظ، لم تفهم أي كلمة ممَّا كنا نقوله على ما يبدو**».

«**كيف لم أفهم؟! أنت الذي لا تفهم، وتحسب نفسك أنك متعلم وقادر على الإحاطة بكل شيء. لو كنت تفهم إلى هذا الحد لما أخرجوك من البلدية**».

«**أرأيت يا السي الفاهم؟ أنت تهيم في وادٍ آخر، يرحم والديك اهتم بشؤون شاحنتك وبالطريق والمتاع وبعملك، ولا علاقة لك بهذه الأمور. هذا ما بقِي؛ أن يتدخل أمثالك ويشرحون للناس مشاكل العالم**». ولم يكن من عبد الحفيظ إلا أن أغلظ الكلام لرابح عطية الذي راح يسب الآخر كذلك، فكاد الأمر أن يتفاقم لولا تدخل عبد السميع الصافي. وبعد أن استتب صمت مريب وموحٍ بعاصفة أخرى، قالت العجوز:

«**الوالدان هما اللذان يشقيان دومًا، والأبناء ليس لهم إلا الوالدون، وماذا عساهم يفعلون؟ لا شيء، يتلقون الأبناء في أحضانهم وتمضي الحياة. والذين يقولون إن الآباء يحتاجون إلى أولادهم في كبرهم هم مخطئون؛ ذلك أن الأبناء هم الذين يجدون حاجة في والديهم ما كبر هؤلاء. ثم إن فساد الشباب جديد، والشباب في الماضي لم يكونوا هكذا، لا، كانوا أكثر احترامًا، وكانت الرحمة والمودة والناس تدخل على بعضها البعض، ليس مثل الآن، الجميع محتار حول الرزق والمعيشة، والزواج أصبح عسيرًا والعزوبية انتشرت، ربي يستر ويعافي، زمن مليء بالمشاكل والمصائب، ربي يحفظ أمته**».

كان مسعود قد خرج ووقف بجانب المدخل وهو ينتظر إسماعيل أن ينتهي من الزبائن الذين أتوا قبله، وكان قد أصغى إلى المشاحنة بين رابح عطية وعبد الحفيظ سالم، وكان قد آثر الابتعاد بعد الإيحاءات التي كان رابح عطية يطلقها متعمدًا إسماعه إياها، ولما لم يرُد أحد على العجوز كلمت إسماعيل حول السلعة، ثم خرج عبد الحفيظ ووقف بجانب مسعود ثم سلم عليه وقد تغيرت ملامحه:

«السي مسعود، لم أنتبه إليك، اعذرني فعلًا، لمَ وضعت أكياسك على الأرض؟ لن يراها إسماعيل، أنت تعرف؛ بصره ضعيف وهو كثير التذمر من لوم الناس إياه لخلطه الدائم لمشتريات الناس بعضها ببعض». ابتسم مسعود وأخبره أنه سوف يُريه إياها. دخلا كلاهما بعد أن سأل إسماعيل عن الأكياس التي في الأرض ثم دفع مسعود ثمن مقتنياته، وبينما هو خارج من المحل سأله عبد الحفيظ: **«هل تحتاج إلى أن أساعدك وأوصلك معي مع أغراضك إلى المنزل في الشاحنة؟»**، اعتذر مسعود معللًا بأنه يريد المشي، فرد موافقًا عبد الحفيظ:

«والله معك حق، لقد أصبحت كثير التألم من مناطق كثيرة من جسمي؛ وذلك بسبب جلوسي الدائم على مقعد السياقة، يجب أن أمارس الرياضة». ابتسم له مسعود ثم انصرف بعد أن ودعه.

وبينما هو يمشي لم يستطع الإحجام عن التفكير في ما قد حدث في محل إسماعيل البقال؛ لم يعجبه الكلام بل ساءه جدًّا، وشعر بأن البلاء يتبعه أينما حل. لم يكُن في حسبانه أن رجالًا كبارًا مثل رابح عطية يمكن أن ينحوا مثل ذلك النحو وأن يتحدثوا عنه بتلك النبرة وباستعمال تلك الإيحاءات وتلك الاتهامات. وشعر أن الأذى بدأ يكثر عليه من سكان البلدة، ففي كل ممر كان يتنامى إليه كلام الناس عنه وعن آله، وفي كل مجمع لم يبدُ أن شيئًا كان يثير اهتمامهم ويُسليهم مثل ذكره وذكر كل ما يتعلق به. وطرقت ذهنه فكرة أن هذا كان كثيرًا ما يحدث ممَّا كان قد سمع عنه أو قرأ عنه من أشخاص يصيبهم بلاء مثل تحامل الآخرين عليهم، وما يسببه هذا لهم من شعور بالضعف، وخمن أن هذا لم يكُن بالأمر المهم؛

ذلك أن هناك من البلاء ما لا يُستطاع تحمله إلا من ذوي النفوس الجلدة والقوية، وتساءل إن كان من هذا النوع، ثم دعا لنفسه بذلك.

وانتزع نفسه من تلك الأفكار بمجرد ما لاح له سور أرضه في العريبات وهو متجه إليها، وعند بلوغه هناك انعطف يمينًا وتجاوز دار الضريح إلى أخرى أين اجتمع بعض من الرجال كانوا جالسين على كراسي مستندة على الحائط. نظر إلى أولاد صغار وكانوا واقفين أيضًا يحدقون فيه، بدوا مدركين لحقيقة وفاة والدهم وأن ما ينتظرهم سيكون أصعب، ولكن منظرهم حز في نفسه أكثر لدى تفكيره في ضعفهم واتكالهم الطبيعي على الآخرين من أهل وأصحاب المعروف. سلم على الجمع وكانوا من الجيران في العريبات، وبدا عليهم الوقار ممزوجًا بابتسامات وجهوها إلى مسعود وإلى بعضهم البعض. تحرك مسعود بعدها إلى الباب ونادى فتيحة التي جاءت مسرعة ولكن دون ركض، وعلامات الحزن بادية على وجهها، بيد أن المتمعن في وجهها والمتجاوز للانطباع الأول بإمكانه استشفاف هالة من السكينة لا تندر إلا من شعور بالارتياح وتخطي عقبة ما أو الانتهاء من معضلة أو هم كان جاثمًا على القلب. احتفت رغم ذلك الوجه بمسعود الذي كانت تناديه: «**عمي مسعود**»، وهو ما حدا بمسعود أن يطرد تلك الأفكار التي يمكن أن تُحزنها تمامًا مثلما أحزنه كلام الناس عنه وتلميحاتهم. وبينما هو يناولها الأكياس فكر في ما فعله وتفاهة تلك الأكياس في ذلك الظرف وما يحتمه من الإيلام لثلاثة أيام في الغداء والعشاء، أخبرها بهذا فسكتت ثم أضاف: «**سأدعو وحيدًا ونتولى الأمر**»، رفعت رأسها فجأة وحدقت فيه، وهو ما استغربه لغرابة نظراتها، لم يُلقِ للأمر بالًا واستأذن ثم

خرج، وفي الخارج وقف للحديث مع الإمام محمد الحملاوي الذي أوقفه من أجل «**البحث في بعض الأمور التي تخص الميت**». فأومأ مسعود بالإيجاب، فراح الشيخ محمد يشرح الأمر:

«**الميت كما تعرف له أهل في منطقة أخرى لا يعلم عنها أحد أي شيء إلا أنت؛ لأنه كان قد حكا لي مرة أنكما تحادثتما عن قريته، وقد أبديت أنت معرفة صغيرة بها وبالمنطقة التي تحيط بها. ما أريده هو أن نصل إلى أهله هناك؛ علهم يلقون بالًا لأرملته ولهؤلاء اليتامى**».

«**نعم، معك حق يا شيخ محمد، سنفعل هذا، ولكن فتيحة وأبناءها مرحَّب بهم في أي وقت، ولن ينقصهم أي شيء**».

«**أعرف يا السي مسعود**» رد الشيخ محمد بتحفظ بادٍ من نبرته: «**ولكن امرأة وحيدة ومعها أبناؤها يجب أن يكون لها من يعيلها مثل عائلتها أو زوج، أما هذا فليس جيدًا**». لم يرُد مسعود وبدا شارد الذهن، ثم انتبه على صوت الشيخ وهو يُذكره بلزوم الاتصال بأهل الأرملة أو الميت. وافق مسعود على كلام الشيخ، وهو ما بدا تمهيدًا لكلام آخر من الشيخ الذي بدأ بإبداء ملاحظة: «**ولكن الميت قد قُتل، وأهله قد..**»، ثم توقف بعد انضمام وحيد إليهما ثم حيا الشيخ، ووالده دهش من أين أتى.

«**أين كنت؟**».

«**كنت مع بديع هناك في المنزل أين هو الآن**». نظر مسعود إلى المنزل المقابل وهو يفكر في بديع ثم في موسى، واستوقفه منظر المنزل وقد تراءى له وكأنه قد اتخذ شكلًا آخر وأضحى يوحي بعلامات قرب زوال فترة أو حتى بدء فترة أخرى من حياته أو من

شهادته على ذلك المكان. ثم أشار وحيد إلى الأمام نحو الجماعة التي كانت جالسة على الكراسي بجانب الباب، إلى أحدهم، وقال ضاحكًا وهو يخاطب والده:

«**ألم ترَ عمي الهادي؟ هو هنا منذ الصباح، سأل عنك أكثر من مرة وخلت أنكما قد التقيتما**»، ثم مخاطبًا الهادي الذي كان قد وقف من مكانه وتقدم إلى أين كان وحيد ومسعود والشيخ محمد، وأضاف: «**ماذا هناك يا عمي الهادي؟ يبدو أنكما كبرتما فعلًا كي يمر من أمامك هكذا ولا تراه**». ابتسم الهادي وهو يسلم على مسعود، بينما احتفظ مسعود بوجهه الجدي وإن اختلجته ابتسامة ودية دون تجاوز ذلك إلى الانبساط نحو الضحك مثلما كان يفعل وحيد. وقال الهادي وهو ممسك بيد مسعود بيد واحدة وهو يخاطبه، ومشيرًا إلى وحيد باليد الأخرى وقد فغر فاهه ابتسامًا تاخم الضحك:

«**لقد عرضتُ يا السي مسعود على ابنك وحيد أن أزوجه ابنتي، وأجابني بأنه سيعرض الأمر عليك ثم يرُد عليَّ. ما هذا في رأيك يا السي مسعود؟ أليس نوعًا من الموافقة؟ وأنا لم أزد على أن قلت له إن السي مسعودًا لن يمانع أبدًا؛ ذلك أني أعرفه جيدًا. وأنا لا أبالغ في هذا يا السي مسعود، ألا تذكر الأيام التي قضيناها في الأسواق الأسبوعية تبيع أنت الأقمشة وأبيع أنا الحصائر؟ كل زمن وزمنه، تلك الأيام ولت ولن تعود يا السي مسعود**».

«**أي زواج الآن يا عمي الهادي؟ يعني هو أنا لو وجدت الفرصة كنت سأقول لا؟ بالطبع سأقول نعم، ولكن تعلم أن الظرف لم يحِن بعد**». خاطب وحيد الهادي الذي كان يعدل بيد واحدة عمامته ثم جلابته التي ظهر من تحتها قميص رمادي تباين مع تلك الجلابة.

«**يعني هو الحزن يجب أن يخيم على جميع أطوار حياتك؟ بالطبع لا، لا يجب أن تتحدث على هذا الوجه، الآن جاءتك الفرصة، والسي مسعود معروف عنه أنه يساعد الناس في هذه الأمور، فما بالك بأولاده؟**». أومأ مسعود برأسه بأن هزه إلى الأعلى ثم خفضه دون إمكانية نسبة هذا إلى موافقته على كلام الهادي أم لا، بينما ترك وحيد تلك الجماعة بعد أن تقدم إليه أحد الأطفال وأخبره أن والدته تريده، فاستأذن ثم توجه إلى داخل المنزل. وعاد الهادي إلى التحدث ولكن هذه المرة كان قد خالط صوته بعض من الاضطراب علامة على الشعور بالحرج بعد رحيل وحيد ولزوم الشيخ محمد الصمت طوال زمن الحديث الذي كان يجرى بين الهادي ومسعود وابنه:

«**والله يا السي مسعود إنه لديك ابن ما شاء الله، كنز فعلًا، بارك الله لك في ذريتك، وكفاك الله الحساد وحسدهم، أنا لا أتحدث هكذا إلا لأنك عزيز عليَّ، ولا يهمني ما يقوله الآخرون عنك، المهم أنك عندي بمنزلة الأخ، وأولادك بمنزلة الأبناء**».

والتفت بعد أن انضم إليهم عبد الرحيم وهو متلفع في قشابية بنية وتعلوه طاقية بيضاء وبدا غير مرتاح في ذلك المكان. سلم على خاله ثم على الهادي الذي صافحه بوجه بشوش، ثم استدار ليصافح الإمام الذي لم يُخفِ تذمرًا باطنيًّا واشمئزازًا من تواجده في تلك اللحظة هناك. لاحظ عبد الرحيم ذلك وكانت ملاحظته تلك واضحة لمسعود الذي فسر تحديقه الطويل في الشيخ، الذي كان قد أعرض وهو ينظر إلى المنزل المقابل، بإدراك عبد الرحيم لذلك. وبعد أن سأل عن وحيد وبديع، راح عبد الرحيم يتكلم متسائلًا عن وجود ذلك الضريح، ولما أجاب مسعود بأنه هناك منذ زمن طويل علق قائلًا:

«ولكن أليس هناك من شيء يمثل تراث الأسرة سوى هذا الشرك بالله؟ أنت تعلم تمامًا يا خالي أن هذا يجب أن يُهدم ويبقى القبر قبرًا لا أكثر من هذا ولا أقل؛ تُحفظ حرمته ولكن دون أن تتحول هذه الحرمة إلى عبادة للقبر وصاحبه».

«ومن قال لكم إن هذا القبر أو غيره يُعبد؟ سبحان الله وبحمده. يعني حتى هذه البلدة أصبحت لا تخلو من التكفيريين والطاعنين في أماكن النور وأولياء الله الصالحين؟!» قال الشيخ محمد وهو ينظر إلى مسعود، ومشيرًا بيده إلى مبنى الضريح بجانبه.

«أين هو التكفير في هذا؟ هذا هو الحق، وأنا أتعجب ألا يعجب الحق البعض، إذًا لماذا نزلت هذه الشريعة إن كنا نعمل ببعضها ونترك البعض الآخر؟! الأمر لا يجب أن يكون هكذا يا خالي، أن تأخذ الكل وتطبق كلمة الله أو أن تكون مثل تلك الأقوام البائدة التي أخذت من بعض الكتاب ما يوافق أهواءها وتركت الباقي».

«هذه مجرد حجة من أجل التكفير واضطهاد أولياء الله حتى وهم موتى» مضى الشيخ محمد متدخلًا في هذا الحوار غير المباشر وهو يخاطب مسعودًا الذي كان هدفًا لكليهما من أجل إقناعه، **«ولكن كرامات هؤلاء الصالحين تستمر حتى وهم أموات، سيحيطهم الله بفضله ويدحض كل من عاداهم، ويجعل كيدهم في نحورهم، تبارك وتعالى لا يعجزه شيء».**

«بل إن فكرة الأولياء وعبادة القبور هي الحجة من أجل الكفر وإفساد دين الله، وهي حجة أيضًا من أجل أمور أخرى أعظم وأكثر مدعاة لغضب الله. وإلا فماذا تسمي هاته الحالة التي نحن

فيها من الضيق في العيش والإقتار عند الأكثرين؟ أليست نتيجة غضب الله علينا؟» تساءل عبد الرحيم وهو ينظر أيضًا إلى خاله الذي استدار فجأة بعد أن سمع أصواتًا عالية وصراخًا قادمًا من داخل المنزل، وعند الباب أين سدد بصره كان وحيد قد ظهر وهو يكلم شخصًا ما في الداخل حزر مسعود أنها فتيحة. استدار وحيد ثم خرج مسرعًا حتى توقف عند الهادي الذي كان قد رجع إلى مكانه ليجلس على أحد الكراسي وهو يكلم رجلًا بجانبه ثم قام وأخذ يكلم وحيدًا. وعاد الشيخ إلى الكلام مرة أخرى بعد أن كان يراقب مشهد وحيد أيضًا، وكلم مسعودًا لدى استدارته نحوه:

«**انظر يا السي مسعود، لأني لن أحلف بالله ولا أحب ذلك، إنك لن تفوز في دنياك ولا في آخرتك إن أنت تركت أحدًا يمس هذا الضريح، ناهيك عن تدميره**».

«**في الحقيقة يا شيخ محمد فإني كنت أفكر في هذا وأترك القبر فقط مثل القبور الأخرى، ولعله يصبح موضعًا لدفن أفراد العائلة الميتين**». ولم يُخفِ الشيخ صدمته من هذا الكلام، ثم حول هذا الانطباع إلى هجوم بأن أبدى غضبه وقال:

«**لقد حذرتك يا مسعود، إياك، إياك يا مسعود، هذا أمر أكبر منك وسينال منك غضب الله مثلما نال من كل من تجرأ على الأولياء الصالحين، هم أولياء الله، ومن عادى وليًّا فقد عادى الله. أتدرك معنى هذا الكلام يا مسعود؟ وكل ندم لن ينفع عندها، لا تُطِع الغافلين، قد يكون عقابك الموت لا محالة**». كان الشيخ قد احدودب ظهره وهو يوجه الكلام لمسعود الذي أجابه:

«الله فقط هو علام الغيوب يا شيخ محمد، وهو الذي يسبب الموت وليس العباد ناهيك عن الموتى. أما هذا الجد الأكبر لي، فقد كان صالحًا، وفقط عمله هو منجيه ولا رادَّ لأمر الله. قد أموت الآن وقد أموت غدًا وقد أموت ليلة تهديم الضريح، ولكن كل هذا يبقى منوطًا بمشيئة الله دون غيره».

«أما زلت تفكر في تهديم الضريح يا أبي؟» سأل وحيد وقد انضم إليهم من جديد، وقد عبس وجهه ونال منه الخوف والترقب الوجل. لم يُجبه مسعود ومضى عبد الرحيم يسأل وقد ظهر جليًّا أنه سعيد بكلام خاله:

«ولكن لماذا لم تهدمه قبل هذا يا خالي؟».

«لأن الأرض هذه لا تزال محل صراع بين الورثة؛ بيني وبين أبناء عمي».

«ولكن يا أبي قد أخبرتك أنه بإمكاني أن أتولى مهمة الاهتمام بالمكان وبالضريح؛ سيكون بركة عليَّ، ولعل حالي يتبدل نحو الأحسن وأُوفق في حياتي».

«والله يا وحيد يا ابني إن هذه لعلامة على حسن سريرتك وإخلاصك للدين، بأن يكون لك مثل هذه النية للذود عن مكان مبارك يحوي ضريح أحد أولياء الله سيدنا ميمون، وتكون لك إرادة الخدمة تبركًا به وغايةً منك لنيل الثواب عند الله، والعافية في الدنيا والآخرة» خاطب الشيخ محمد وحيدًا على هذا النحو؛ وهو ما أثلج قلب الشاب الذي نظر إلى والده مبتسمًا وهو ينتظر إجابته.

«لقد سبق أن أخبرتك يا وحيد أن الأمر منته، ثم إنه كان هناك من كانت له نية مماثلة لنيتك، وانتهى به الأمر إلى نهاية مأساوية مثلما حدث لجدي ووالد جدك الأخضر؛ ألم ينتهِ به الأمر

بأن قُتل؟ وهو الذي كان يهتم بهذا الضريح، وقد استعمل بعض الرجال في ذلك الوقت بأجر ليساعدوه، وكانت الوفود تفد إليه حتى من مناطق بعيدة من الوطن، ولكن هذا كان بالنسبة لي نذير شؤم».

«أعرف القصة جيدًا؛ وأن هذا قد حدث لكثيرين من الأجداد قبله ممن خدموا سيدنا، ولكن هذا لن يحدث معي، زمنهم كان منعدمًا فيه الأمن، وقُطاع الطريق والمجرمون كانوا في كل مكان، أما الآن فالأمن مستتب، ومن ذا الذي نراه يدخل إلى أرضنا دون إذن منا؟ لا أحد».

«هذا أمر مستحيل، كل ما سمعته عن سيدنا هو أن كل من اقترب منه وآمن بكراماته نالته البركة وسعد في حياته» تدخل الشيخ محمد مدافعًا عن وحيد وعن فكرته، وتلاه عبد الرحيم وهو يسأل خاله:

«وكيف قُتل جدك هذا يا خالي؟».

«كانت لديه عادة سيئة، وهي المقامرة -نعوذ بالله منها-، وفي ذلك الوقت كانوا يقامرون بديارهم وبأملاكهم وأراضيهم، حتى إن هناك من الأراضي والأملاك الموروثة الآن ما كانت قد نيلت عن طريق المقامرة وربحها أحد أجداد هؤلاء الملاك. وكان جدي قد ربح في هذه المقامرة وأوغر صدر الخاسر عليه؛ ومنه بدأت ملاحاة بينهما، ثم تطور الأمر ليصبح عداوة، إلى أن جاء سبب آخر بسبب رعي المواشي في أرض الآخر فقتل جدك».

«ولكن حب سيدنا سيشفع له، أليس حب الصالحين هو صلاح؟» تساءل وحيد ووافقه الشيخ محمد، وأسرع مسعود بلهفة وكأنه قد وجد شيئًا ليُريهم إياه كان غائبًا عن أعينهم:

«هذا هو بيت القصيد، كل من يتكلم على هذا الوجه ويمضي لرعاية الضريح تكون له نزعات سيئة مثل نزعات جدي هذا، لماذا لا يكون هو صالحًا ويعمل عملًا صالحًا؟ ولكن مثل هذا الكلام وما ينطوي عليه من فكرة الصلاح لا يعبر إلا عن تعزية لهذا الشخص بأن يحب مثل هؤلاء الصالحين، ومنه يبقى جامدًا ويمضي في حياته المخزية، ويبرر كل هذا بأن قلبه أبيض وسليم وأنه يحب الصالحين ويخدمهم. الأمر ليس هكذا، يجب أن تتجاوز مثل هذه الأفكار يا وحيد».

«مع أنني لم أفهم عنك جيدًا، فإنني لست مقامرًا مثل هذا الجد؛ ومنه لا داعي للقلق».

«إنك شاب صالح فعلًا يا وحيد» خاطبه الشيخ محمد وهو يشير إليه بيده: **«تصر على خدمة سيدنا وتعطي كل المبررات والأسباب من أجل ذلك، بورك فيك فعلًا، بينما نجد الكثير من الشباب في سنك لا يتملكهم سوى النزق والبعد عن الدين».**

«ولكنك كثيرًا ما تتورط في مشاجرات يا وحيد، هذا أمر يحدث كثيرًا، وقد تفعل هذا هنا وينتهي بك الأمر مقتولًا. ثم إن ما قررته أنا لا يتعلق بك أو بجدك، هذا قبر ويجب أن يبقى قبرًا».

التفت وحيد إلى جهة الرجال الجالسين على الكراسي، وبالتحديد إلى مكان الهادي، ولم يعجبه كلام والده، وبدا متكدرًا وقد عاد إليه عبوسه الأول.

«كيف يجب أن يبقى قبرًا يا مسعود؟ هذا كلام مستفز فعلًا» صاح الشيخ محمد وقد كان واضحًا أنه داخله الغيظ من كلام مسعود: **«ولم تجد إلا هذا الوقت لتتحدث فيه عن هذا؟ ثم لماذا ستُقدم**

على فعل هذا ووحيد نفسه أخبرك أنه سيتولى مسؤولية الاهتمام بالضريح؟ أنت هنا تضرب ركيزة أساسية في التراث الإسلامي ليس فقط في البلدة بل في المنطقة كلها، وهذا الكلام لن يعجب أحدًا، يعني البارحة فقط كنا نتحدث عن هذا الذي يريده البعض من إلحاق الأذى بضريح الولي الطاهر سيدي بياض، والجميع استاء من هذا لدى سماعه بالقصة، وكلهم مستعدون لبذل الغالي والنفيس من أجل حمايته. هذه البلدة لديها رجالها يا مسعود، ولا يمكن لأحد أن ينتهك مقدساتها وينجو بفعلته، أو حتى أن يجد الطريق فارغًا للقيام بهذا، أفهمت يا مسعود؟».

«سأحاول أن أفهم هذا الكلام على وجه لا أرى فيه أنه تهديد يا شيخ محمد، ثم إن هذه الأرض أرضي، وليس لأحد أن يتدخل فيها، وأنا أعرف أن نيتك سليمة ولا تريد إلا الخير لي، ولكني لست ممن يرى في وجود هذه الأضرحة الخير لنا».

«هي ليست أرضك يا مسعود، لقد قلت آنفًا إنها لا تزال محل صراع بينك وبين بني عمومتك. وإلى أن تصبح ملكك، فلا يحق لك التكلم بحرية وكأن الضريح يخصك. لا يا مسعود، هذا الضريح هو ملك المؤمنين».

«حتى لو لم يكُن هذا الضريح ملكك يا خالي، فهو يجب أن يُهدم، تمامًا مثل باقي الأضرحة وعلى رأسها ذلك الذي يسمونه ‹سيدي بياضًا›، وحتى الاسم غريب!» صرح عبد الرحيم ونظر هذه المرة إلى الشيخ محمد، فتدخل وحيد صارخًا فيه:

«وما دخلك أنت؟ هه؟ كلما نراك لا تأتينا سوى المشاكل، نذير شؤم أنت وأمثالك، ماذا تفعل هنا؟ ألم تعز، إذًا بإمكانك

الرحيل بالسلامة». نهره مسعود على الفور وقد ملئ غضبًا، لكن وحيدًا لم يَبدُ وكأنه كان يُلقي له أي بال، خصوصًا بعد أن التفت ورأى الهادي قد قام من مكانه وهو يمشي مبتعدًا ويختلس النظر باتجاههم، فغاظه هذا ومضى يسب في عبد الرحيم، وحتى قدوم أحد الصبيان وهو يخبره أن والدته تريده لم ينقص من حدة ذلك الغضب، بل صاح في وجه الفتى: «**قُل لها أن تنتظر هي الأخرى. ما بكم؟ أأنتم فقط الذي مات والدكم؟**»، خفض الصبي بصره ثم نظر إلى جانبه، وقد بدا تجسيدًا للضعف نفسه والارتباك المعوق لكل إرادة جسدية، وزاد ارتباكه وشعوره بالضعف نظرات مسعود وقد التفت إليه الصبي بعينيه وقد أدرك معنى نظرات مسعود التي كانت مليئة بالشفقة، فأدرك مسعود هذا فحول نظره إلى وحيد وطلب منه أن يهدأ. استغل الصبي -الذي لم يتجاوز التاسعة- الفرصة واستدار وابتعد وهو يمشي بخطوات ضيقة حتى وصل إلى جدار المنزل، فتوسط الباب ونافذة على يمينه واتكأ على الحائط، ثم راح يحدق في الأرض بهدوء بالغ وكأنه يريد ألا يلفت انتباه أحد إليه.

وراقب مسعود هذا المنظر جيدًا، ثم التفت إلى وحيد وكان لا يزال يصرخ ويتهم عبد الرحيم: «**يعني لو كان الله أراد بك خيرًا لأعطاك وجهًا حسنًا بدل هذا الوجه القبيح الذي لن ترضى به أي امرأة، ولكان رزقك بمال ورزق كبير، لا؛ ذلك أنه حرمك كل هذا لعلمه أنك سوف تطغى، ولكن لن يحدث أي شيء ممَّا تهدد به، سوف ترى يا أحول**». لم يرُد عبد الرحيم عليه بأي شيء، بل بقي ينظر إليه وأحيانًا بعيدًا إلى أفق آخر وقد اسودَّ وجهه وبدا أنه يكظم غيظه. وأبغض مسعود فعل ابنه بغضًا شديدًا، ولم يُرِد أن يتواجد معه

في مكان واحد، ثم تقدم نحو عبد الرحيم وأمسك بذراعه وطلب منه أن يرحلا. امتثل عبد الرحيم لهذا، وبينما هما يبتعدان إذ انتبه مسعود لابنه بديع وهو يحدق في عبد الرحيم، لم يقل شيئًا، وبدا وكأنه يريد أن يبقى خارج ذلك الأمر، تجاوزاه وبينما هما يعبران مدخل السياج توقف مسعود وألقى نظرة خلفه إلى الصبي الذي كان لا يزال متكئًا على الحائط وقد جلس القرفصاء وبدا كئيبًا ولكن على نحو يُفجع قلب الناظر إليه، جلس هناك دهشًا دون أن يلفت نظر أحد إليه.

بقيا صامتين إلى أن بلغا البلدة، كان مسعود خلال تلك الطريق يفكر في كل تلك الصراعات والمشاحنات التي كانت تُرمى عليه ويجد نفسه مثقلًا بها، لم يُرِد أيًّا من هذا وهو الهادئ الباسم، حتى طريقته في حل المشاكل كانت تتضمن حلها في هدوء وسرية دون تعقيد الأمور أو تنغيص حياته أكثر ممَّا هي منغصة. أدركا الحي الأول –حي المجاهدين– ثم ولجا دربًا صغيرًا يؤدي إلى طريق كبيرة جانبية تؤدي هي الأخرى إلى الطريق الوطنية. وهناك، وكأن اتساع المكان قد أعطاهما مساحة للتحدث، سأل مسعود عبد الرحيم عن أخته محاولةً منه للتقليل من حدة ما قد وقع في أرضه في العريبات، فأجابه عبد الرحيم بنبرة باردة ولكن يتخللها الاحترام: «**هي بخير والحمد لله**». صمتا بعدها لبرهة، وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم، وأحس مسعود ببرودة مفاجئة فضم بعضه إلى بعض في جلابته المغربية وقد راودته أفكار حول وحيد وبديع وزيد، ثم قال:

«الحل الوحيد هو أن يتزوج وحيد، هو قد تجاوز الثلاثين ولا يزال غير متزوج، يجب أن نعذره، هذا أمر طبيعي، وإلا فمن أين أتاه مثل ذلك المزاج الكريه؟ هو في العادة عكس هذا تمامًا. لقد سمعت وقرأت في أكثر من مرة أن العزوبية قد تُلقي بصاحبها في نوبات نفسية صعبة جدًّا؛ البعض منهم يصبح حاد المزاج وحتى عدوانيًّا، والبعض الآخر قد ينتحر. يقولون إن هذا يحدث وإن بدا أمرًا غريبًا وعصيًّا على الفهم، ولكن ما أظهره وحيد لتوه من غضب عارم وسوء خلق يعطي بعض المصداقية لهذه النظرية». لم يُجب عبد الرحيم واكتفى بتحريك رأسه موافقة على كلام خاله، ولاحظ مسعود وهو يتكلم وينظر إليه بين الفينة والأخرى أن هذا الكلام قد أثر فيه لأنه يعنيه أيضًا بسبب عزوبيته هو الآخر. لكن صمته لم يدُم طويلًا؛ ذلك أنه علق بصوت مرتفع قائلًا:

«إن أبناءك غريبو الأطوار يا خالي، هم ناقصو دين، لا أدري لماذا ينحون هذا النحو ويصرون على الضلال وإن بأوجه متعددة. اعذرني يا خالي، لست أسبهم، ولكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أقول لك هذا. في بعض العائلات نجد واحدًا أو اثنين قد ضلا، فنراهما قد أدمنا الخمر أو أمورًا أخرى تجعل منهما فاسقَين، ولكن يحدث العكس في عائلتك، حتى إن البعض من أولادك أصبحوا يؤذون الآخرين، ومنهم من يسعى لنشر الفساد الأخلاقي والسياسي في البلاد، ولم تبقَ سوى سهام التي أبقت على سلامتها الأخلاقية. حاولت أن أفهم الأمر مرارًا منذ زمن طويل فلم أفلح، وما يحزنني هو أن الكثيرين يتحدثون عن هذا حتى من العائلة؛ يقولون: ‹مسعود أساء تربية أبنائه ودللهم أكثر من اللازم›. عله أمر

يتعلق بماضي هذه العائلة، خصوصًا وأنك قد ذكرت آنفًا أن جدك لم تكُن له استقامة أخلاقية ولا دينية، لعل هذا هو السبب؛ لتواجد أجداد قبله مثله تمامًا».

«**ليس شيئًا من هذا، بل هو بلاء؛ ذلك أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. لا أحد يُعاقَب بفعل الآخرين، كلٌّ يتحمل مسؤوليته، ولكن في الجماعات عمومًا فإنه تغلب روح الاتكال، فنجد الاهتمام بالأنساب والأعراق والأسر العريقة والغنية، فيصبح الفرد امتدادًا لأفكار معينة -ليس بالمعنى الأخلاقي المثالي المتمثل في الواجب والمسؤولية-، فتكون وليدة ذلك الاتكال؛ ومنه تطلق الأحكام جزافًا فلا يرى الفرد نفسه إلا من خلال أعمال مقدمين من فصيلته أو عائلته، ويحكم عليه من خلال تلك الأعمال حسنة كانت أو مذمومة. والعاقل هو من يحكم على الأفراد كأفراد يا عبد الرحيم يا ولدي**». حاول عبد الرحيم مقاطعته بتنبيهه إلى أحاديث نبوية، إلا أنه أسرع الرد عليه: «**لن تفهم عني الآن، فقط التجارب هي التي ستثبت لك هذا**». ثم نظر إلى عبد الرحيم فوجد أنه لم يَبدُ مقتنعًا البتة.

غيرا طريق مسيرهما بعد أن تذكر مسعود أنه يجب عليه أن يذهب إلى المحل، فعبرا الرحبة حتى بلغا السوق، ومنه محل مسعود أين كان ساعد في حوار يشد الانتباه مع رجلين يحملان محفظتين. ألقى مسعود السلام ثم ذهب نحو المكتب، وبعد أن قدمه ساعد إلى الرجلين أخبره أنهما من مديرية التجارة، تقدما إليه وبعد أن صافحاه طلب منه أحدهما -وكان قصيرًا وسمينًا نظر إليه من وراء نظاراته- أن يُريهما أوراقه وسجلاته، سأل مسعود عن السبب فأجاب الآخر -وكان طويلًا وضخمًا- بأنه جزء من عملهما. وبعد برهة ناولهما مسعود الكثير من الكراريس أخذا يتصفحانها جميعها.

ظل عبد الرحيم واقفًا، وراقب مسعودًا وهو ينخرط في حوار مطول عن تجارته ومحله، فهم منه –وهو ما اكتشفه مسعود أيضًا– أنه كان مدينًا بمال كبير لمديرية الضرائب ومخالفات أخرى أطال الرجلان في تفصيلها له. ثم سألاه عن أمور أخرى وكان أن دخل ساعد ومعه رجلان كبيران في السن، وقدمهما على أنهما صاحبا محلات في ذلك السوق –كان مدينًا لهما أيضًا إضافة إلى آخرين–. رحل موظفا مديرية التجارة وبقي مسعود مع ساعد والتاجرين، وتشاوروا حتى أذن العصر، فخرجوا ثم عادوا ولكن عبد الرحيم مضى إلى منزله. وبعد العشاء خطر على بال عبد الرحيم أن يتفقد خاله، فمر على الرحبة وأبصر أن المحل كان لا يزال مفتوحًا، قصده بسرعة فوجد خاله على وشك إغلاق المحل وساعد يودعه، فخمن أن الكثير كان قد حدث منذ أن ترك خاله في المساء، فسلم عليهما وتبين ملامح وجه مسعود فكانت تنم عن تعب شديد، أخبره أنه سيرافقه إلى المنزل فلم يرُد مسعود، وفي الطريق أخبره بأنه سيعلن إفلاسه وسيبيع منزله: «**ذلك أن تجارتي انتهت، وأمري أصبح رهين إرادة الله**». **سأله عبد الرحيم إن كان الأمر بمثل السوء الذي كان يظنه، فأجابه مسعود بصوت مهيض: «الحقيقة أنه أسوأ، والأسوأ من هذا هو ما يرافقه من مرارة وصعوبات، وما يظهر من بلاء قد نزل عليَّ**». فقدر عبد الرحيم أن الأمر فعلًا سيئ جدًّا، وسأله عمَّا سيفعله، لم يُجبه عن هذا، وعند اقترابه من منزله قال مسعود وهو ينظر إلى المنزل ومخاطبًا عبد الرحيم الذي رحل مباشرة بعدها إلى منزله: «**حتى هذا المنزل لم يعُد مأوى، وإني لأتساءل: إن لم يكُن منزل مثل هذا مأوى، فما هو المأوى فعلًا؟**»، ثم دخل، ولم يرَه عبد الرحيم بعدها لزمن غير قصير.

غاب عنه الشارع المقصود الذي كان يجب أن ينعطف نحوه، ولم يَدرِ إن كان يجب أن يستكمل مشيه في ذلك الشارع في تلك الظلمة ثم الانعطاف عند أحد الشوارع أم العودة إلى أحد الشوارع الخلفية، وقرر أن يستكمل المشي، ولم يكُن هناك أحد سواه في ذلك الظلام، كان يمشي وحيدًا والتردد لا يزال يسيطر عليه، فأحس أنه بإمكانه أن يعود أدراجه في أية لحظة. ولدى بلوغه مفترق طرق صغير في ذلك الحي الأخير في البلدة، نظر يسارًا إلى الشارع أين لاحت له أشجار باسقة، فقدر أن ذلك هو الشارع المطلوب، فاستدار بسرعة ومشى حتى توقف عند آخر منزل –بدا الأخير في البلدة كلها– وطرق على الباب وانتظر. وكان قد ميز من الضوء الخافت المقابل للمنزل وآخر بجانبه أن واجهة المنزل كانت تُظهر طابقين، وعلى جانب المنزل الأيمن كان هناك سور من الشجيرات علتها أشجار من ورائها، ولم يُدِم موسى النظر فيها، وحاول الإصغاء لأي حركة عله يتأكد من عدم وجود أي أحد ومن ثم يرحل من أين جاء. لكن الأصوات تعالت من الداخل ثم فُتح له الباب، فتحه له رجل لم يتعرف موسى على ملامحه ولا على هويته، بيد أن الرجل تعرف إليه وصاح باسمه وقدم إليه يده ليصافحه. طلب منه الدخول وهو

يسأل عن حاله، فتعرف عليه موسى مباشرة وأجابه بالخير ثم سأل عن حاله هو الآخر. مرا على ردهة طويلة، ثم استدارا يسارًا إلى ردهة أخرى ظهر نور من آخرها أين كان هناك باب، ولجاه فوجد موسى نفسه في بستان مُنار بمصابيح معلقة على أغصان أشجار تين والمكان كله مغطى بأغصان تلك الأشجار، وتوسط المكان طاولة حولها كراسي جلس إليها رجلان. اقترب كلٌّ من موسى والرجل الذي فتح له الباب من الطاولة، وجلسا على كرسيين بعد أن سلم موسى على الرجلين، ومضى الرجل صاحب المنزل يتحدث وهو يعرفه بالرجلين: «**هذا المهندس قدور مشهوري، وهذا الدكتور فتحي بن سلمية، هو طبيب متخصص في طب العظام**». ولم تدُم مصافحة ومن ثم دراسة شكلي الرجلين سوى لحظات عاد بعدها موسى إلى صمته. بيد أن ملامحهما كانت تتبادر إلى ذهنه كلما تكلم أحدهما، فعلق بذهنه المهندس قدور وهو قصير وأصلع تغطي عينيه نظارات سميكة ومجموع وجهه الدائري يختزل في ذلك التركيز على عينيه، وإن غطتهما النظارات فإن انطباعًا كان يتنامى إلى الناظر إليه وكأنه يسدد نحوه نظرات معرية لذلك الناظر، وكأنه يريد الغوص في أعماقه بشكوك يريد أن يثبتها. أما الدكتور فتحي فكان طويلًا ونحيفًا، وكان يلبس نظارات أيضًا ولكنها كانت خفيفة، وكان بعض من مقدمة شعره قد اختفى فخمن أنه في نهاية الثلاثينيات، ولكن بقي الأمر مجرد حدس، وظهر لموسى مستحييًا على وجه يُزعج هذا الدكتور نفسه. فكان كل تركيزه موجهًا إلى صاحب المنزل وهو يريد أن يضفي على المجلس بهجة وعبقًا مرحًا بكلامه وتعليقاته على كل شيء. وانتبه إليه فكان في تلك اللحظة يقول:

«**كل هذه الأمور لا تهمني الآن، قد تجاوزت تلك السن التي أُعنى فيها بكل هذه الأمور، والآن لا بأس بي، أستطيع نيل ما شئت لأني عملت والآن أجني ثمار كل ذلك المجهود الذي بذلته، بالطبع في هذه البلاد يجب أن تكون لك معارف كثر وأن تكون رجل مجتمع لكي تنجح؛ ولذلك فإن هذا يكون في بعض اللحظات مرهقًا جدًّا؛ ولذلك تجدونني آتيًا إلى هذه البلدة لأنعم ببعض الراحة. ولكن عودة إلى قصتنا فإني لما التقيت بهذا المدير لم أرتبك ولم أشعر بالخجل، بل حادثته وصارحته بالأمر، فظهر أنه يعرفني وقال لي بهذه الكلمات: ‹انظر يا سيف، أنا أعرفك جيدًا، ومن الأخير أريد أن نعمل معًا›. نعم، قال هذا لي فأخبرته بأني سأفكر بالأمر، وانتهى بنا الأمر أن عملنا معًا في بعض المشاريع، ولكني كنت دائمًا حذرًا معه إلى أن تخلصت منه، خلصتني منه هذه الثورة**». وابتسم ابتسامة قاربت الضحك، وبدا لموسى في تلك اللحظة مختلفًا جدًّا، اختلافًا أظهره التناقض بين مظهره الهادئ والمنظم إلى حد ما وبين كلامه ذلك.

«**أنت يا سيف كثيرًا ما تنتشل نفسك من هذه المشاكل، وكثيرون مثلك دخلوا السجن**» علق قدور وهو يسدد نظرات مريبة وشاكة نحو سيف: «**وإني أتساءل فعلًا: لماذا لم ينتهِ بك الأمر مثلهم؟ يعني البعض منهم كانوا أكثر حذرًا منك، ومع ذلك فهم -وإن نجوا من السجن- فإن منتهاهم كان الإفلاس والفقر بعد ذلك. أنا أتكلم بجدية بالغة، الجميع يريد أن يزدهر وتتحول حاله إلى الأحسن، فلمَ لا تخبرنا بسرك يا سيف؟**»، حاول أن يضيف ابتسامة إلى تلك التقسيمات التي شكلت ذلك الوجه الشاكّ والموسوس، إلا

أن الأمر انتهى بوجه جد غريب كانت فيه كل ابتسامة اجتراء ومسخ لذلك الوجه القاتم والعابس.

«**ليس لديَّ أي سر يا قدور، سبق أن قلت لك هذا مرارًا**» أجابه سيف بعصبية واضحة زادت من ابتسام ومن ثم مسخ وجه قدور: «**وإن كنت تريد أن تصبح غنيًّا بسرعة فهذا شأنك، سري الوحيد هو أنني عملت بجهد، وكل من يعمل بجهد ويكدح يا سيد قدور فهو ينال بغيته، وأنا نلت المرغوب فيه. حتى نمط عيشي يعطي بعضًا من هذا الانطباع، قيل لي هذا في أكثر من مرة، نمط عيشي يا سيد قدور لا يثير أي ريبة، بل أنت الذي ترى الريبة في كل شيء، وفي كل الأشخاص مهما ضؤل نجاحهم**». لم يرُد قدور بسرعة، وبقي يحدق في سيف وقد اختفت الابتسامة الغازية لوجهه من محياه، وبقي هكذا طوال مدة تكلم فتحي الذي كانت نبرته حذرة حذر المحرج:

«**لا يمكن أن تُقاس درجة النجاح والغنى أو حتى البقاء بكمية العمل أو الكدح؛ لأننا نرى أن الغالب عكس هذا، وأن من هذا الغالب ما يشير إلى أن الطبيعة تحابي كل من تتوفر فيه صفات معينة، فالصفات تأتي أولًا ومن ثم العمل، فهي أشبه بأسلحة ولكن الطبيعة هي التي عملت جاهدة عبر كل أجيال النوع الواحد حتى وصلت إلى ذلك الفرد بأن حبته بكل تلك الصفات التي تخول له ما لا تخول لغيره. وهذا هو نتيجة نية الطبيعة من كل هذا في أن تعطي، وبهذا يرافق هذا العطاء تفعيل لوظيفة تأتي بعد كل هذا لتساعد في حركة المجموع ومنه حركة الطبيعة بإبقاء النوع وإضفاء حياة وديمومة ليس على هذا النوع أو هذا الكوكب فقط، بل على الكون كله**».

«الأمر يبدو لي على عكس ما تقول، لا تُسِئ فهمي ولكنك تقضي جل وقتك في جميع النشاطات التي تُسعدك، أنت سعيد معظم الوقت بينما الجميع -يعني الآخر- في معاناة وشقاء لا يدانيهما أي شيء في هذه الحياة، فتحي معه حق؛ الأمر ليس كما تظن، أمثالك يا سيف لا يسعدون بالكدح، لم تنَل أي شيء بالكدح لأنك لم تكدح قط. هذه حقيقة يا سيف، وما أستغربه هو أنك تصر على حرمان أصدقائك من بعض السعادة التي لا تساوي مقدارًا ضئيلًا من السعادة التي تحيط بك كل الإحاطة وتكتنفك».

كان فتحي قد مال إلى الخلف وهو ينظر إلى الأرض ويستمع إلى قدور، بينما انفجر سيف صارخًا في وجه قدور الذي عادت إليه الابتسامة الماسخة:

«يا لك من حسود يا قدور! لا تستطيع أن تغادر حسدك وكأنك تتلذذ به، أنت تعلم أن ما قلته لك صحيح، حتى كلام فتحي يشير إلى هذا، الطبيعة حبتني بصفات منعتها عنك، لمَ الطبيعة إذًا؟».

وابتسم، وعبس قدور. واستقام فتحي في جلسته على الكرسي وأخذ في الكلام:

«الأمر لا يجب أن يغيظ أحدًا، حتى الشعور بالحسد هو أمر طبيعي؛ يعني التفرج على المرغوب فيه وعدم نيله مع ترقب، يتحول إلى يأس وكره موجه للطرف المتمتع بتلك اللذة المرجوة. حتى في عالم الحشرات، نجد أن النمل مثلًا في حالة البذخ يشاهد في بعض أفراده تعبيرًا عن هذا الأمر من خلال سلوك يتلخص في إظهار العدوانية تجاه كل من يستمتع بكل ما يغذي هذه المخلوقات، وخصوصًا عندما يطول البحث ويرافقه التقاط

لإشارات تدل على ذلك من خلال بعض الأعضاء في ذلك الجسم الضئيل، أو من خلال اللغة التي يتعامل بها النمل. هو أمر فعلًا مذهل وعجيب». سكت فتحي وأخذ موسى في تأمله جيدًا، ثم تأمل قدورًا الذي كان الحنق باديًا جدًّا على ملامحه، بينما كان سيف يبتسم وهو شارد في عالم آخر. بدا الأمر لموسى جد غريب وشعر بعدم الراحة في ذلك المكان، ولكن فتحي لاحظ كل ذلك وأسرع في تبرير نفسه وبأنه لم يكُن يقصد قدورًا؛ ذلك أنه كان يتكلم في موضوع علمي بحت. وبينما هم هكذا، إذ سُمعت أصوات من مكان ما داخل المنزل، فانتبه الجميع وأداروا وجوههم باتجاه المنزل خلفهم. دخلت امرأتان إحداهما في فستان أسود والأخرى في فستان أحمر، وكانت صاحبة الفستان الأحمر أسمن من الأخرى خصوصًا في الوجه. قام الرجال من كراسيهم، ووجد موسى نفسه على رجليه أيضًا، وتقدمت المرأتان وهما تبتسمان وسلمتا على الجميع، وجلستا قبالة سيف وبين قدور وموسى بعد أن هرِع كل من سيف وقدور في جلب كرسيين لهما، وسألت إحداهما سيفًا عمَّ كانوا يتكلمون ولمَ كان صوتهم جد مرتفع.

«**لا شيء، كان فتحي يخبرنا عن نظريات وقصص علمية، وتحمسنا لإحداها أو في الحقيقة لكل واحدة منها، وكنا نعرض سوانحنا تجاه كل واحدة منها. كلام السي فتحي هو فعلًا مثير للاهتمام**» أجاب سيف وهو يبتسم باتجاه المرأتين ثم إلى فتحي الذي كان مطرق الرأس ولكن بدا عليه حماس وترقب لشيء ما أو لمتعة ما.

«**أجل، نحن نحب سماع فتحي وهو يتحدث عن العلم، هو فعلًا أمر جد مسلٍّ ويبعث على العجب، أليس كذلك يا نسرين؟**»

سألت صاحبة الفستان الأحمر، وكانت سمراء وعيناها جد واسعتين وهي تنظر إلى سيف ثم إلى فتحي ثم إلى صديقتها نسرين.

«**فعلًا. ما أخبار العلم يا فتحي؟ لقد قرأت مؤخرًا عن النظرية النسبية وعن التطور، وفهمت الأخيرة وبدت جد مسلية أيضًا، خصوصًا إذا ما شُرحت من طريق أمثلة من العالم الحي أو من الحيوانات. جميلة معها حق، هو أمر مسلٍّ فعلًا**»، وضحكت وضحك معها قدور وسيف.

«**فعلًا يا فتحي، ما هي أخبار العلم؟ أظن أنك الآن مهتم بالنجوم والفضاء الخارجي، سمعت أنهم اكتشفوا مذنبًا الأسبوع الماضي، هذا فعلًا يبعث على الحماس**».

«**نعم**»، انتصب فتحي من جديد في جلسته ولم يكُن حماسه وترقبه قد تركاه أو تركهما هو: «**اكتُشف من طرف مركز أرصاد فضائية وكذلك هاوٍ من الصين، سُمي باسم الاثنين -يعني المرصد والصيني-، وهو أمرٌ جميل لأن هناك بعضًا من الهواة ممن لا تتوفر لديهم الأجهزة التي في حوزة المراكز الحكومية أو العلمية المدعمة من طرف رؤوس أموال كبرى، إلا أن تفانيهم يأتي بثماره، وهذا الصيني هو مثال على أن العلم لا يعترف إلا بالتفاني له وتتبع كل الجزئيات وإن كانت صغيرة، أعني هنا التخصص في الجزئيات**».

«**وهل أنت متزوج يا فتحي؟**» سألت نسرين وهي تبتسم.

«**نعم، ولديَّ ابنتان وابن في الثالثة من عمره، أما أختاه فهما في الثامنة والسادسة**». صمت لبرهة ثم استأنف وكأنه يعرض فكرة قد سنحت له لتوها فقط: «**ولكن لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من ملاحظة بعض الاختلافات بين الذكور والإناث، خصوصًا في**

هذه السن المبكرة، أقل من العشر سنوات. فمثلًا وجدت أن لابني هاني ميولًا أكثر جدية من البنات. ابنتاي كلتاهما تحبان اللبس والاهتمام بمنظرهما الخارجي، أما الولد فهو كثير الطرح للأسئلة، وفي بعض الأحيان تكون أسئلة مثيرة للاهتمام».

«**إذًا أنت لا تؤمن بالمساواة بين المرأة والرجل، أليس كذلك؟**» سألت نفس المرأة وقد اتسعت ابتسامتها وهي تترقب جوابه.

«**في الحقيقة هذا سؤال معقد، ولكن إذا نظرنا إلى الواقع فإننا نجد أن كل الابتكارات والاختراعات والإسهامات في العلم تكون الغالبية العظمى منها من نصيب الرجال، حتى في الدول التي تؤمن بالمساواة فإن أغلب الحاكمين هم رجال**».

«**هذه معلومات خاطئة يا فتحي**» أجابت نسرين بنفس الابتسامة وقد انتصبت أكثر في مكانها: «**هذه المجتمعات تحكم فيها النساء، ولكن بالاحترام طبعًا؛ ذلك أن الرجال هناك ناضجون ويؤمنون بأهلية المرأة ودورها في الحضارة الإنسانية. حتى في التاريخ العربي، كانت أغلب معاقل التجمعات الأدبية والعلمية لبعض النساء مثل سكينة بنت الحسين، وأسماء بنت طلحة، ومغنيات مثل عريب وولادة في الأندلس وأخريات كثيرات، حتى الملوك كانوا في الغالب يغلب على أمرهم نساء، فيستمدون آراءهم وقراراتهم من هؤلاء النساء. وأيضًا فإن..**». وقام موسى واستأذن في الانصراف، فقام سيف أيضًا وسأله إلى أين سيذهب، «**قد تأخر الوقت، وغدًا لديَّ عمل**».

«**حسنًا، ولكن انتظر قليلًا لأن هناك من يريد رؤيتك ولم يأتِ بعد، ثم إنك غريب يا السي موسى، أتترك جمعًا مثل هذا يتوفر على وجوه حسان وتذهب في تلك الدهماء لتنام؟!**»، ضحك بعدها ثم جلس بعد أن جلس موسى، وأضاف يُسمع الجميع وخصوصًا موسى والمرأتين: «**لا يخدعك ما أنا فيه من بساطة في بلدتكم هذه، فإني لو تفرغت لإقامتي هنا فسترى كيف هو نمط عيشي فعلًا: المائدة الفخمة، والوجوه الحسان ذوات العقول الخلابة والألسنة العذبة، وخلان كلامهم مسبوك وحلو وأخلاقهم دمثة تعرف حق السمر والكلام؛ لأن الكلام مثلما قال الأولون هو قِرى للضيف أيضًا، أي هو كرم يا السي موسى**». لم يُجب موسى، ولكن نسرين بدت وكأنها استحسنت كلام سيف فبدأت بمداعبته بالكلام، ولكن موسى لم يسمع أيًّا من ذلك لشرود ذهنه؛ شعر بأن وجوده هناك كان مضيعة للوقت، وأن هذا الوجود كان عقبة في وسط استئناس ذلك الجمع بعضِهم ببعض. وكان قد ضاق ذرعًا، خصوصًا بعد أن أدرك أنه لم يكن له أن يتكيف بين أولئك الناس، فقام من مكانه واستأذن واستدار، ولم يكد يصل إلى الباب الذي يؤدي إلى الردهة داخل المنزل حتى سمع أحدهم يناديه، وكان صوتًا جديدًا ولكنه بدا مألوفًا. استدار فرأى وجهًا مألوفًا، كان رجلًا متوسط القامة وأسمر وبلحية خفيفة شديدة السواد، تقدم إلى موسى وصافحه ثم طلب منه أن يبقى قليلًا: «**ذلك أني قدمت بسرعة لرؤيتك**». ثم ذهب إلى الجمع الذين كانوا يشاهدون المشهد، وسلم على المرأتين اللتين ظهرتا جد سعيدتين لرؤيته، وكلم سيفًا الذي رد عليه:

«**عليك يا الرازي ألا تتركنا في الظلام، أنِرنا يرحمك الله، ما الذي سيحدث؟ ولماذا أنت شديد التحفظ والكتمان؟ نحن أصدقاؤك ونريد ما تريده أنت بالضبط**». ضحك الرازي بصوت مرتفع وكأنه يستمتع بجهل سيف والآخرين وما يظنونه فيه من ضراوة وبطش وقوة خفية، ثم تكلم على هذا النحو:

«**لا يا سيف، كل شيء سيظهر في وقته، لا داعي للعجلة، ثم إنك صديقي ولن يمسَّك أي سوء**».

«**كلنا ثوار يا الرازي، حتى نحن النساء دائمًا ما نكون أشد الثوار شراسة، وسترى بنفسك ما سنفعله إن هي قامت هذه الثورة، سنجعل عاليها سافلها. ثم إنك قلت قبل ستة أشهر إنها بعد عام، يعني بقيت ستة أشهر**» قالت نسرين، فابتسم الرازي وقال:

«**إني أعرف جيدًا أنكن ستُبلين حسنًا أثناء الثورة، هذا أمر لا يمكن الشك فيه، كل شيء سيتغير ولن يكون إلا منطق الثورة**». قال هذا ثم تركهم وغادر المنزل مع موسى الذي انتابه الخوف في تلك اللحظات.

في دهماء الليل أخذا يمشيان في شارع طويل بعد أن ابتعدا عن منزل سيف، وكانا طوال ذلك الوقت صامتين، ولدى بلوغهما طريقًا كانت المنازل على جانبيه متباعدة بينها وقليل عددها، قال الرازي بنبرة متأملة لخاطر ما:

«**أنا فعلًا متعجب من هذه البلدة؛ بالمعنى الإيجابي**»، ثم انتظر أن تند من موسى أية كلمة، ولما لم يتكلم مضى قائلًا: «**فاجأني ما رأيته هنا، الأمور ناضجة هنا يا صاحبي، مذهل هذا الأمر فعلًا، ما ينقص هنا هو فقط البدء بالعمل، ألا توافقني؟ لا**

يهم، ما سيحدث سيحتم على الجميع الاختيار؛ إما معنا وإما ضدنا، والذي لن يختار سنصنف سلوكه هذا علامة على أنه ضدنا؛ لأن كل من ليس معنا فهو ضدنا يا صديقي».

«**يا له من منطق غريب! يقولون هو منطق الغلاة**» أطلق موسى ضحكة سريعة، ورد عليه الرازي غامزًا:

«**الغلاة؟ يا للمصطلحات التي تستعملها! ما زلت تحب الالتزام اللغوي**» ضحك ثم أضاف: «**وماذا عنك يا سيدي؟ هل أنت من أصحاب اليمين أم من أصحاب الشمال؟**».

«**من أصحاب اليمين إن شاء الله**» رد موسى بسرعة، فتوقف الرازي عن الضحك وعاد الصمت من جديد، بيد أن الرازي أسرع إلى كسره بأن سأل:

«**هل تصلي الآن؟**»، أومأ موسى بالإيجاب، ثم أضاف: «**نعم والحمد لله**». ومضى الرازي في الاستفسار: «**تقيم جميع الصلوات الخمس؟**»، ولما أجابه موسى بالإيجاب علق:

«**هذه مفاجأة أخرى بالنسبة لي، هذه فعلًا بلدة غريبة، لم أعرف أنك كنت تفكر في أمر الدين يا موسى، هذه علامة تخلف، وأنا الذي كنت أظنك متنورًا وإن اختلفنا في الكثير من الأمور فإن اللب كان واحدًا وهو نبذ كل ما يصرفنا عن الحياة الحقيقية. ويبدو أن سؤالي كان في محله؛ ذلك أني كنت أشك في أن أمرًا ما لم يكُن على ما يرام، وإذا به أنت وقد رجعت إلى الوراء، الناس تتقدم إلى الأمام يا موسى وأنت ترجع على هذا النحو؟ إنه أمر مخزٍ فعلًا**».

لم يُجب موسى، وبدا أن صمته أزعج الرازي الذي بدا انزعاجه من النبرة العصبية التي اتخذها وهو يقول:

«سيتغير كل شيء في البلد، وما تظنه أن الروح التي تسكن هذا البلد من دين وتراث سيُطوى طي الكتاب يا موسى، آه، انظر إليَّ أصبحت أتكلم مثلك، ولكن لا يهم، المهم هو أن ما سيحدث هو أمر جلل يا موسى، الجميع سيصبح حرًّا، الحرية المطلقة، هذه الكلمة تُخيف الجميع حتى أولئك الذين يشاركونني أفكاري، ولكن لا يجب أن يُخيف هذا أحدًا؛ فالكل سيفعل ما يريد طبقًا لقدراته، أما أنا فقد خُلقت لأكون من العلية يا موسى، وما سيحدث سيكون وسيلة لي من أجل تحقيق هذا».

«الثورة هي وسيلة لك من أجل تحقيق حريتك؟ إذًا أنت عبد». توقف الرازي عن المشي، إلا أن موسى تابع مشيه فلم يكُن من الرازي سوى أن يشرع في الهرولة ثم الجري إلى أن بلغ موسى، ثم قال:

«كلنا عبيد يا موسى، لا تمدح نفسك، ولكنني حر بعقلي وبإرادتي، وما أريده هو تطبيق هاته الحرية والإرادة في الواقع. أنت تظن نفسك أنك تجاوزت كل هذه الأفكار وأنك حلقت فوقها، وستخبر الآخرين عن أباطيل أصدقائك الملحدين، وما بلغته من راحة وكيف أن العلم لا ينافي ولا يناقض الإيمان، ولكن دعني أخبرك يا موسى أنه ينافيه، العلم وحده هو سلاح الإنسان، لا نحتاج لا إلى أخلاق ولا إلى إيمان، فقط العلم هو الذي سيُملي علينا القوانين التي ستحفظنا وتحفظ نوعنا وتحفظ مجتمعاتنا، العلم هو المُشرع الوحيد يا موسى. لماذا لا تجيب؟» سأل بظفر وهو يضحك، إلا أن موسى مضى في مشيه دون أن تند منه أية كلمة. أوغر هذا صدر الرازي، إلا أنه لم يتمالك نفسه وعاد للكلام بنبرة تحدٍّ:

«ألم تكُن تسعد في شكوكك يا موسى؟ أنت تعرف أن اليقين هو شقاء، لن تفعل أي شيء في حياتك وستبقى دومًا خائفًا، حتى الآن أنت خائف من أن أزعزع يقينك وإيمانك، نعم أنت خائف يا موسى».

«أنا لا أهتم بأفكارك لأنها فارغة ولا يمكن الرد على شيء فارغ، وأعلم كيف سينتهي حالك، ولا يمكن الكلام معك في هذه الأمور لأنه لا فائدة من المراء، وكذلك فإن الحاصل هو أنه لا حاصل لك».

«لا أفهم منك أي شيء، ولكن لست فارغًا مثلما تظن، وإلا لما كنت هنا. الأمر كبير يا موسى، نحن جماعة كبيرة ومنظمة وتضم الكثير من أصحاب المال والنفوذ، والبلاد سترضخ لنا، أنت لا تعي ما تقول ولا تعي ما يجري فعلًا في الواقع. حتى أغرار مثل رضا القادري وعبد القادر، وثعالب مثل جمال الهلالي، يدركون هذا. نعم، قد يدهشك هذا الأمر ولكنني أعلم كل شيء في هذه البلدة. ولهذا قلت لك إنها ناضجة والأمور ستمضي بسلاسة وسينتهي بنا الأمر بحكم البلاد، ولكنني لا أهتم بأي من هذا، ما يهمني هو أن البيئة التي يمكن أن أحكم فيها يجب أن تكون متجاوزة للرجعية ومتقدمة، والحرية فيها والعلم يأخذان النصيب الأوفر».

«سينتهي بكم الأمر بالخيبة، سترى يا شكاك».

«شكاك؟ نعم أنا شكاك، أشك في كل الخرافات التي تؤمن بها أنت الآن، ولا أشك فيها فقط بل أنفيها».

«إن كنت تنفيها فلماذا تشك فيها؟».

«**لأنك تؤمن بها أنت، أنا لا أعيش وحدي في هذا الكوكب، كما أننا سننتصر ولن نخيب. وعلى عكسكم فإن العلم سيوفر لنا الأمن والتسامح، سنعيش في التسامح وسأكون منتصرًا**». ضحك موسى وكان أن سمع الرازي ضحكه فسأله عمَّا يضحكه:

«**لا شيء، فقط التناقض الذي تبديه، مجتمع منظم ومتسامح وملحد في مقابل أنانية تريد الحكم والسؤدد**».

«**هذا عقلاني، وهو أكثر عقلانية من أفكارك، نظرتي للعالم هي أكثر فاعلية في الحياة الواقعية**».

«**أي نظرة؟ أنت ليس لديك أي نظرة، هناك إيمان وقوانين كونية تثبت هذا ولكنك لا تؤمن حتى بالقوانين، وتعلق حكمك على أنها خادعة للعقل الإنساني**». أمسك الرازي بذراع موسى وأداره لكي يقابله، وقال وهو ينظر إليه بثبات:

«**لا، أنا لا أنفي، كل هذا يثبته العلم، وما لا يثبته أنفيه، أما إيمانك فالعلم ينفيه، ألا ترى كل البراهين العلمية التي تنفي هذا؟ الكون وقوانينه التي تحتج بها هي حجة عليك لا لك**»، ثم قال بصوت عالٍ: «**الكون، الطبيعة، العلم، كلها تبرهن لي وتعدني بما أتكلم به**».

«**ما تنفعك إن كنت لا تريد أن تؤمن بأي شيء؟**» صرخ في وجهه موسى وقد أفلت ذراعه من يد الآخر وهو لا يزال ينظر إليه: «**أنت تؤمن باللا شيء، اعبد العدم ولا شأن لك بأي شيء آخر**». سكت كلاهما لبرهة، ثم تكلم الرازي بنبرة حاسمة ولكن غير ظافرة:

«**أنا أريد كل شيء أو لا شيء يا موسى**». حدق فيه موسى وكأنه قد أدرك حقيقة الأمر كله، وقال: «**هذا عبث**».

«**نعم هو عبث، لا أرى أي علاقة بيني وبين الكون أو الطبيعة، أما العلم فهو يثبتني ويزيد من رؤيتي للعبث، ولكن هذا العبث هو قوة لي، أراه أفضل من إيمانك، وهو الذي ينير الدرب الثوري لي. نعم، هذا ما يتبقى للإنسان لأنه الشيء الوحيد الذي كان دائمًا ملكه وفي استطاعته؛ أن يثور**».

«**إذًا عبث وفوضى**» رد موسى، ثم استدار واستأنف مشيه.

«**لا، ليست فوضى، بل هذا يؤدي إلى النظام، هذا العبث هو النظام، والنظام هو الفوضى وهو العبث أيضًا، لا يمكنك فهم هذا لأنك متقوقع في خرافاتك ومتكبر بها، ترى الآن أنك تفهم كل شيء، ونحن الحمقى الذين نؤذي الآخرين ونؤذي أنفسنا**».

بدأ موسى بالضحك وإن كان ضحكه يفوق الابتسام بشيء يسير، وهو ذلك الصوت الخفيف الذي يطلقه علامة على ضحكه، ثم زاد الرازي: «**ستندم في الأخير يا موسى، عندما يجتاحك الشك وترى الألم في كل مكان ثم تتساءل: أين هو هذا الإله المتسامح لكي يوقف كل هذا؟ أم هو فعله؟ ستنوح حينئذ، ولكننا سنلقاك بصدر رحب يا موسى. تذكر كلامي**». أومأ موسى برأسه علامة على قبوله بالتحدي، ثم سأل الرازي:

«**وماذا تفعله بالتحديد هنا؟ هل هو جزء من إيمانك الثوري بنشر الفوضى والعدم في هذا المكان؟ لا أرى أنك ستنجح، وهذه أول أمارات إخفاقك**».

«**اطمئن، لن أخفق؛ ذلك أنني أبلي بلاءً حسنًا، حتى النساء يتبعنني، والبعض منهن يدعون لي، هذا مضحك ولكنهن حالمات ومتشوقات لهذه الثورة، انظر فقط لنسرين، إن أمرتها أن تقتل نفسها**

بحجة ثورية فستفعل ذلك لا محالة. أما الرجال فلا يفكرون إلا في الحرية المطلقة التي أخبرتك عنها؛ أي طلق العنان لرغباتهم في أن تقودهم، وبذلك يحيون الحياة التي كانوا دومًا يتمنونها، وأغلبهم بلهاء يريدون الربح فقط، وليسوا مستعدين للتضحية ناهيك عن بذل كل ما يملكون من أجل هذه القضية. الأمر واحد في جميع أنحاء البلاد، لقد طفت الكثير من القرى والبلدات والحال متشابه، أما دوري فهو أن أقود وأن يطيعوني ويطيعوا الجماعة. أعلم أنك تقلل من شأن كل هذا وتسخر في قرارة نفسك من كل هذا الكلام، ولكني صادق معك لأني أراك من طينتي وما يمكن أن نفعله كلانا معًا قد يكون أعظم، أنا أعلم قيمتك التي يجهلها الآخرون؛ ولذلك أريد لك الخير لأن قيمتك هي منفعة لي».

«**اسمع يا الرازي، لن ينطلي عليَّ أيٌّ من كلامك، وأنا أعلم أنك صادق، وأنت صادق أيضًا في أنانيتك، ولكن هذا لن يكون، وسينالك السوء مني إن أنت مضيت أبعد من الكلام معي، حتى الكلام ستبلغ مرحلة ستبدأ فيها بمضايقتي به. إذًا الأفضل أن ننهي الأمر هنا، أنا لن أتبع أيًّا من كلامك، أترى تلك الجماعة من الشباب تحت تلك الشجيرات؟ يمكنك أن تغريهم بكلامك؛ ذلك أنه لديك المال والنفوذ، خصوصًا أنهم يبدون سكارى، أما فوضاك فلديها نقيض وهو النظام وأمر آخر، أنا بصريح العبارة أتبع ذلك النظام وذلك الأمر الآخر. استمتع أنت بشكك وعبثك وفوضاك وثوريتك، وكل الذي فوق التراب تراب**». توقف الرازي ولم يقل أي شيء، أما موسى فتابع سيره وتخطى جماعة الشباب الذين كانت أصواتهم عالية والبعض منهم يقهقه من الضحك، وأدرك أن دعوة سيف له

كانت من أجل هذا الكلام، أغضبه هذا الأمر لكنه سرعان ما تخطاه وفكر في أمر آخر، فلم يقطع عليه خيط أفكاره إلا الأصوات التي تعالت مع انضمام الرازي إلى ذلك الجمع بعد أن سمع موسى كلامه فيه وهو يبادلهم الحديث، فاستدار وتأمل المشهد رغم الظلمة، فكان أن بدا له الرازي أكثر أريحية معهم، وبدت ثقته بنفسه طاغية على الجمع. واستأنف موسى مشيه إلى أن اختفى في الظلام، ولكن دون أن يخفيه أو يبتلعه.

8

مر بديع على سوق الخضر وقد بدا له أمر جديد عليه بعد أن رحل من بيت والده في العريبات إلى أقصى البلدة في الجانب الآخر، كذلك فإن شعورًا لم يغادره وحاول استبعاده وتجاوزه كوسواس لا غير، وهو شعور ينطوي على ظن بأن كل العيون كانت مصوبة نحوه، وكانت كلها تحمل نظرات منتقدة له. وانتهى به الأمر بأن أذعن إلى أن الأمر كان كذلك وأنه محط سخط الجميع، خصوصًا بعد نهر أحدهم له لدى اصطدامه به، بأن وبخه بسخط: «**انظر أمامك يا السي محمد**». اعتذر بديع وواصل مسيره، ولم يخفَ عليه أن كل هذا كان نتيجة سقوطه من العمل الذي كان منغمسًا فيه، وهو فصله من لجنة المراقبة التي كان يَعد أعضاؤها أنفسهم الكثير من خلال عضويتهم فيها بمستقبل مليء بالتطلعات والطموحات قريبة التحقق. كانت مفاجأة بالنسبة له، وحاول تفسير الأمر لنفسه عله يبلغ حقيقة الأمر؛ فتجمع في ذهنه العديد من الأفكار والنظريات، ولكنه كان دومًا ما يعود إلى حاله الاجتماعي وأيضًا حال عائلته. الجميع سمع عن إفلاس والده، والمنظر الذي تلا إشهار الإفلاس أن تجمع أناس كثر بسياراتهم في السوق وعند المنزل يطالبون بحقوقهم، استطاع والده

بطريقة ما أن يسدد جميع ديونه، ولكن يبدو أن كل من كان من تلك اللجنة أحنقه هذا بعد أن منوا أنفسهم بالشماتة، ولكن كان قد تحقق لهم بعض من تلك الشماتة، فصلوه وبذلك سدوا عليه طريق أي تقدم في حياته تلك. شعر بالضيق في صدره؛ ذلك أن الأمر أحزنه، ورافق هذا شعور آخر بالمرارة والمهانة عميقتين، ومضى يحث الخطى نحو منزل والده يريد تفقد حاله وحال شقيقته. ولدى وصوله تفاجأ من عدم إمكانية فتح الباب، وأدرك أنهم قد أبدلوا المزلاج، وخمن أن وحيدًا هو من فكر في هذا الأمر ومن طبقه، طرق على الباب وانتظر حتى سمع شقيقته تسأل من بالباب، وبعد أن أخبرها بهويته فتحت له بسرعة وكأنها تنتظر منه أن يدخل بسرعة هو الآخر. تعجب بديع من هذا وسألها عنه، فأجابت بالنفي وبأنه لم يكُن هناك أي خطب. لم يستفسر أكثر، بل دخل إلى الداخل وولج غرفة الجلوس، وجلس على كنبة وجلست سهام على كرسي بجانب الكنبة، وكانت واضعة خمارًا على رأسها، سألها إن كانت دائمًا تضعه فأجابت بأنها كثيرًا ما تنساه خصوصًا بعد أن تصلي. وراح يراقب الغرفة وما تؤدي إليه بعض أبوابها، وحط بصره على زاوية في الردهة، كانت في أول تلك الردهة غرفة زيد، وتساءل عمَّا كان يفعله شقيقه وأين ذهب، أراد أن يسأل سهام ولكنه أحجم وآثر السكوت عن الموضوع. ولكنه لم يستطع التوقف عن التفكير في شقيقه ثم في نفسه وما يحيط به، وفكر في أن إخفاقاته يمكن أن يكون سببها أمر خارج عنه؛ ذلك أنه كان جد حذر وله إحاطة وعلم بالأمور الاجتماعية، وخصوصًا نوازع الناس ومن يحتك بهم، وباستثناء حوارات صغيرة مع موسى نثر فيها بعضًا من أفكاره التي يمكن أن تجلب له عداوة وسلاطة

ألسن الآخرين، فإنه كان يحجم عن عرض كل أفكاره خاصة وأنها تتعارض مع الفكر السائد ليس في تلك البلدة أو البلد كله فقط بل في كل الأمصار الناطقة بلسانه. وفكر أن عقله كان أبعد شأوًا من عقول الكثيرين في هذه الأمصار، وأن ما يستطيع فعله ليس فقط القيادة بل التشريع أيضًا، وخمن أنه باستطاعته الكتابة، ولكنه استبعد الفكرة ورأى أن الأجدر به هو العمل الفعلي في الواقع، والحركة التي لا تنتظر بل تبادر وتنتهز الفرص التي تراها قبل الآخرين ومن ثم تنقض ثم تظفر. ثم أجال بنظره حول المكان وانتهى عند الزاوية، وعاد إلى التفكير في زيد ثم عبد الرحيم الذي أخبره بأسباب هجرة زيد، وحاول تخيل مدى تعاسة شقيقه، وأن هذه التعاسة هي التي دفعته إلى أن يهجر كل شيء، ثم فكر أن الأمر يتجاوز هذا، وأن ما يبدو دافعًا ما هو إلا سطح اليم، وأن ما خفي كان أعظم. ثم فكر في والدته لأول مرة منذ أن ماتت، فكر فيها وقد تراءى له الكثير من الصور من صباه وشبابه الأول، أحزنه الأمر إلا أنه سرعان ما حاول التفكير في أمر آخر، ولكن هذا الأمر غلب عليه واستسلم لمرائيه وقد ناءت به وأحس بصدره وكأنه قد سُحق، ثم شعر بالضعف ولم يعُد يستطيع التحرك أو التفكير في أي شيء وكأنه وقع من حافة أعلى الجبل ورقد في سفحه تقاوم أنفاسه نزعات الموت. بدأت تلك الحالة بالتلاشي ببطء إلى أن اختفت، ثم أشاح ببصره عن تلك الزاوية ونظر إلى الأرض بين قدميه، وفكر في أن الحياة قد أصبحت جد صعبة، ثم -وكأن هذه الفكرة اتخذت إرادة وبدأت في التعبير عن نفسها بأن استعرضت في ذهنه كل المصائب التي نزلت على عائلته- نفض الغبار عن كل تلك المشاعر والمشاهد

التي حدثت لهم في احتكاكهم بالناس والعالم الخارجي، فكانت الصورة جد قاتمة وتبعث على القنوط والحزن المرير. أرهقته كل تلك الأفكار، وأدرك ذلك فحاول الهروب منها بأن بدأ بمحادثة شقيقته وهو يسألها قائلًا:

«**كيف حال دراستك؟ هل ما زلتِ تذهبين؟**». ردت بالإيجاب، وبدا أنها لم تكُن تريد الحديث في الموضوع.

«**هل هناك من يضايقك هناك؟**». لم تُجِب، وحدس حقيقة الأمر كله، وأخذ في التحديق فيها وتأمل ملامحها وأي تعبيرات يمكن استشفافها من ذلك الوجه المكروب: «**لماذا لا تخبريننا إن كان أحد يضايقك؟ ثم إن زيدًا لم يكُن يجدر به أن يفعل ما فعله، كان قد التحق من جديد لاستكمال دراسته وكان دائمًا ما يرافقك، والآن كل هذا يحدث وأنتِ لا تستطيعين مواجهة كل هذا الضغط. لا أدري ما يحدث في هذه العائلة**».

«**هو امتحانٌ من الله**» ردت عليه سهام، ولكنه لم يُجب على الرغم من أنه لم يكُن مقتنعًا بهذا الكلام، ثم سألها:

«**هل ستظلون دائمًا هكذا منهكين وحزينين؟ لديكم حيواتكم ويجب أن تعيشوها، ليست نهاية العالم، لماذا لا تزورين صديقاتكِ أو عماتنا وخالاتنا؟ ستسلين نفسكِ مع بنات عماتكِ وبنات خالاتكِ**». بقيت صامتة، فأثار فضوله هذا الصمت وسألها لماذا لا تجيب، «**أنتَ تعيش في عالم آخر، لا أحد يستقبلني أو يستقبل أحدًا منا، لا أنتَ ولا وحيدًا ولا أبي**». ولما استمر في استفسارها، أضافت بنبرة خالطتها بعض العصبية وكأنها أُكرهت على الخوض في ذلك الحديث: «**لماذا ماذا؟ هم هكذا، لا يريدون أن يشوهوا**

بناتهم، لا يريدون لهن أن يختلطن بأمثالي، ولا يريدون أن يكون لهم أنفسهم أي علاقة بنا. ومن نحن وماذا فعلنا من أمور حسنة لننال رضاهم؟ لا شيء». لم يقل أي شيء، وعاد الصمت ولكن طغت الأفكار والأوهام، وبدا أنها شاركته في هذا كما قد شاركها منذ لحظات إدراكه هموم أسرته وخاصة بعضًا من همومها هي. لم يُرد أن يبالغ في الأمر ويأخذ الأمر بمحمل عاطفي، إلا أنه لم يستطع أَن يمتنع عن التفكير في أخته على أنها تُلاقي الويلات، خصوصًا بعد أمارات الفقر التي استشفها في منزلهم.

قام من مكانه وأخذ يهرع الغرفة جيئة وذهابًا وشقيقته مطرقة رأسها، لم يعجبه أيٌّ من ذلك الحال وأحس بنفسه على وشك السقوط من هاوية، وأراد تأمل الهاوية، ولكنها كانت هاوية خضوع واستسلام للظروف، لم يُرِد هذا، وراح بصره يغوص في تلك الهاوية في ذهنه، وبلغ حد الشعور بالذل والمهانة، ونسب كل هذا إلى ضعفه وضعف آله، راح يلوم والده ويقارنه بآخرين، وينتقده بأنه لم يكُن له أي حذر ولم يلعب اللعبة مثلما كان يجدر به أن يفعل: «**ترك الآخرين يحتالون ومضى هو بأفكار بالية، يريد البقاء فقط، من يكتفي بالبقاء الآن؟ حتى أرذل الحيوانات تستطيع البقاء، أهي عبرة للإنسان أن يقلد مصير مَن هو أرذل منه وأحط وحتى أقرب إلى الفناء؟**». أدرك أنه كان يتكلم وأن سهام كانت تحدق فيه بعينين مفزوعتين، نظر إليها هو الآخر وقد داخله بعض من ذلك الفزع، لكنه سرعان ما تجاوزه. ثم على نحو متحدٍّ لذلك الفزع الذي داخله والذي كان لا يزال يستحوذ على أخته، مضى يعرض سوانحه بصوت عالٍ: «**يجب على الإنسان أن يعيش ولو من أجل فكرة، هل تفهمين؟ وهل**

تفهمون؟»، وأجال بنظره وكأنه يُحدث آخرين كانوا متواجدين معهم رغم خلو الغرفة: «**ولا يمكن للفكرة أن تكون فكرة في حالة السكون، يجب الحركة والسعي، بهذا فقط تأخذ الأفكار أشكالًا وتتجسد في الواقع. ودون هذا لا يمكن للإنسان أن يعيش، أستطيع أن أذهب الآن إلى بلد ما تنشب فيه حرب وأشارك في تلك الحرب، على شرط أن تكون هناك قضية فكرية، مثل أعلى، فريق يقاتل من أجل ذلك المثل الأعلى، وأي مثل أعلى أراه الآن أعظم من الظفر؟ نعم، كثيرون الآن هم الذين يدَّعون اتباع هذا، ولكن من يستطيع أن يصبح مثل الإسكندر أو قيصر أو عمر أو حتى مثل مروان بن الحكم؟ المتنبي كان ثرثارًا، وأنا لست ثرثارًا، السر هو العمل في صمت، وإلا فالخيبة هي المآل. لن يكون مآلي هكذا، أنا أعرف ماذا أفعل، ولست غوغائيًّا ولا طالبًا أمرًا لم أُخلق له، لقد خُلقت لهذا**». **كان جبينه يقطر عرقًا، أما شقيقته فكانت قد اتخذت هيئة هادئة وكانت تنظر إلى الأرض، راقبها وقد أدرك كل شيء، ولكن بعد كل ما كان يجول في خلده فإنه لم يعبأ بأيٍّ من ذلك. انتظرها أن تقول أي شيء، إلا أنها بقيت صامتة، وشعر بأن شيئًا ما يخنقه في ذلك المكان، فذهب إلى المطبخ وأحضر قارورة ماء وشرب من فمها، سأل شقيقته إن كانت تحتاج أي شيء، أجابت بالنفي ثم قالت:** «**ماذا عنك؟ أين تبيت هذه الأيام؟**».

«**مع صديق لي في الضواحي، هو شخص لا بأس به وطيب، لا ينقصني أي شيء، وإنما هي أمور حدت بي إلى أن أغير مكان الإقامة**».

«**ولكنك كنت في منزل والدك**».

«**ثم ماذا؟ بعض الظروف تحتم تغييرات، وأنا كنت في حال وأصبحت في حال**».

«**كيف كنت؟ وكيف أصبحت؟**». حدق فيها لبرهة ثم قال:

«**كنت أريد أمرًا بطريقة، وأصبحت أريده بطريقة أخرى؛ هذا يمكن أن يحدث لأي أحد، قد يبلغ المرء محطة ما يرى فيها ضرورة تغيير وسائله وآلياته من أجل بلوغ ما ينشده، وأنا فعلت هذا**».

«**عبد الرحيم قال إنك كنت مع مجموعة فاسدة وفاسقة -حسبه- وإنك انتهيت منهم، وهو حتى يعجب من بعض القرارات التي تتخذها، ويرى أنها لا تتلاءم مع طبعك وما خُلقت له**». فهم منها ما تريد بكلامها، وقلب آخره في ذهنه:

«**عبد الرحيم يقول كل ما يخطر بباله، وهو كثير الوسواس وسيئ الظن بالناس. ثم إنني أنا الوحيد الذي أعرف ذلك الذي خُلقت من أجله. ما يعنيه هو قد يكون ما خُلق من أجله هو وليس أنا. عليه أن يفهم هذا الأمر، وأبلغيه به**».

«**أنا سمعت هذا الكلام من أبي، هو الذي أخبرني به، في الفترة الأخيرة أراهما جل الوقت معًا، وهو كثيرًا ما يأتي إلى هنا عندما يكون أبي هنا، ولكن هذا كان قبل سفر والدي إلى الجنوب**». استفسر عن سفر والده إلى الجنوب، فأجابت سهام: «**ذهب ليبحث عن منال**». قالت هذا وخفضت رأسها. لكنها عادت للإسهاب في الموضوع بعد أن ألح بديع عليها: «**هو يسمع كلامًا من هنا وهناك، ولكنه بدا متأكدًا من وجودها في إحدى المدن في الجنوب. قد يعود قريبًا، وقد تطول مدة غيابه، لا أدري إن كان سيجدها أم لا، وإن وجدها فليس هناك ما يثبت أنها ستعود معه؛ هي عنيدة، وقبل**

أن تهرب أعربت عن مقتها للمكان هنا ولحياتها في هذا المكان، أعتقد أنها لا تستطيع أن تتخيل نفسها وهي تقضي بقية حياتها في هذا المكان، قد تُفضل الموت بدل ذلك. ولكني أدعو الله أن يتبدل كل هذا، قد تتغير هي الأخرى وتتغير طريقة تفكيرها، لا يهم ما يقوله الآخرون، وحيد لا يهتم إلا بهذا، حتى إن حياته كلها متمحورة على الآخرين وآرائهم عنه».

«**هو يفعل ما يريد، ولا يضيره أن يلتفت إلى رأي هذا أو رأي ذاك، نحن لا نعيش وحدنا، الإنسان هو دومًا في جماعة، ولا أحد يستطيع مواجهة الوحدة إلا القليل من الناس، ولكن هؤلاء يبدون لي غريبي الأطوار ولا يمكن فهمهم فعلًا».**

«**أنت أيضًا تمحور حياتك حول الآخرين، أبي يقول إنك لن تبلغ ما تنشده**». توقف جسمه كله فجأة وتركزت تعبيرات وجهه على عينيه، وند منهما وهما تنظران إلى سهام تعبير عن ترقب للمزيد، «**يقول إن هذا بسبب أنك تبحث دائمًا عند الناس**».

«**لم أفهم، ماذا يعني بـ ‹عند الناس›؟**».

«**لا يهم، المهم هو أنك لن تبلغ ما تنشده**».

«**وهل هذا يُسعدكِ؟**» سألها بحنق.

«**إن كان أمرًا سيئًا، فنعم، يُسعدني أنك لن تبلغه**».

«**سأبلغه، وطبعًا الإنسان كما قلت لكِ هو مخلوق يجب عليه أن يحتك بالإنسان، فهو التجسيد العقلاني للكون. أي إنني بتركيزي على الناس وعلى المجتمع، وذلك بالعمل على تحسين ظروف عيش الجنس البشري، فأنا بذلك أفعل ما هو طبيعي، وألتحم بذلك وأتصل بالطبيعة ككل**». لم تُجِبه، وفكر أنه كان معه

حق لتفاديه المجادلة والحديث عن أفكاره وأهدافه؛ ذلك أنها تكون عرضة لمن لا يفهمها ولا يقدرها، وذلك ينعكس سلبًا عليه بأن يبعث فيه كل ما هو سلبي يثبط عزيمته ويغرس الضعف داخله. لم يعُد يريد المكوث أكثر من ذلك، فقام من مكانه واتجه نحو الباب.

وفي الشارع وجد حشدًا كبيرًا على طول الشارع، كانوا يحدقون فيه؛ فاستغرب الموقف وفكر أن الأمر قد أصبح جد مزعج. بيد أنه اكتشف سبب كل ذلك بعد أن رأى والده وهو قادم باتجاهه ومعه امرأة كانت تمشي إلى جانبه، ولما اقترب منهما تعرف على شقيقته منال. توقف حتى لحقا به، وكانت منال تنظر إلى الأرض وهي تمشي، أما مسعود فبدا مغمومًا على عكس عادته، وأراد بديع أن يمضي في طريقه ويبتعد عن ذلك المكان، إلا أنه لم يستطع، فاستغرب هذا الأمر أيضًا وخمن أن إرادته كانت ضعيفة. طرق على الباب هو، وقبل أن تسأل سهام من داخل صرخ: «**افتحي بسرعة**». فُتح الباب وقبل أن يلج إلى الداخل أجال بنظره حول الحشد، فرأى وجوهًا عابسة متلهفة لمعرفة مثالبهم دون أن تكون هناك أي مثالب، وبدت له نظراتهم وكأنها أنياب تريد أن تنهش من ظهر عرض عائلته، أو على الأقل أن تتمضمض به وتتفكه به في المجالس، وأرسل نظرات تحدٍّ واحتقار لكل من وقعت عليه عيناه، فكان أن أشاح جلهم بوجهه حياء، إلا واحدًا لم يتعرف عليه كان متوسط القامة وأسمر وبلحية داكنة بقي يتفرس في وجهه، ولما التقت أعينهما ابتسم وبدا أنه سعيد بوجوده في ذلك المكان، فأشاح بديع بوجهه ودخل إلى الداخل مقدرًا أن الرجل كان صلفًا شديد الوقاحة، ومن العسير عليه أن يفهم أمثاله أو أن يتفاهم معهم.

ولجوا إلى الداخل، وكانت سهام قد جذبت منال نحوها وعانقتها وبدأت في البكاء، ومنال شاردة ولكنه بدا عليها إدراك ما كان يحدث بعد لحظات قليلة؛ ذلك أنها أجهشت ثم بدأت بالبكاء هي الأخرى. جلسوا في غرفة الجلوس، وكان مسعود قد دخل إلى الداخل وغسل نفسه، أما سهام فجلست بجانب منال وهي تسألها عن حالها والأخرى تجيب باقتضاب، ثم بدأت سهام تحدثها عن أحوالهم وتحكي لها ما يمكن أن يثير اهتمامها، إلا أن الأخرى بقيت صامتة وإن لم يخفَ اهتمامها بالأمر وهي تنظر إلى الأرض معطيةً سهام بعضًا من أذنها اليسرى وهي تصغي إليها. ثم سُمع طرق على الباب، وكان الطرق يرتفع كلما أصغى من في الداخل أكثر وأحجموا عن الذهاب للتفقد، وكان واضحًا أن الذعر قد اكتنفهم، حتى بديع الذي تذكر الرجل الأسمر داخله الشك وبدأ التفكير؛ وهو ما منعه من الذهاب لتفقد الباب.

ومر مسعود على غرفة الجلوس قاطعًا الردهة باتجاه الباب، فتح الباب وألفى هناك فتًى لم يبلغ الثامنة عشرة، فأخبره أن والده: «**عباس الدراجي طلب مني أن أسأل إن كنتَ قد عدتَ، ثم أُعلمه**». طلب منه مسعود أن يخبر والده أنه سيذهب إليه بعد قليل، ثم انصرف الفتى. عاد مسعود إلى غرفة الجلوس ليتفقد أبناءه، فوجدهم هناك لا يزالون جالسين، وبدت سهام تكتنف شقيقتها برعاية واهتمام، فأسعده ذلك ثم أخبرهم أنه سيذهب في مشوار ثم سيعود في المساء.

غاب في غرفته لمدة طويلة، ثم عاد إليهم ولكنه ألفى أن بديعًا كان قد رحل. وكانت سهام في المطبخ، أما منال فكانت مستلقية في غرفة الجلوس وبدت نائمة. تفاءل خيرًا بعد أن رجعت إليه ابنته،

وقبل أن يخرج أوصى سهام بأن تهتم بها وتتفقد كل ما تحتاج إليه، وهو ما آلت على نفسها أن تفعله. وفي الخارج كان الحشد قد نقص، ولكن لم يخلُ من الذين لم ينسوه ولم ينسوا أمره، فأخذوا يحدقون فيه وينتظرون أن يكلمه أحد أو يكلم هو أحدًا، لكنه مضى في طريقه لا يلوي على شيء حتى خرج من الحي، ولكنه كان دائم التفكير في ابنتيه، بيد أنه طمأن نفسه بأنه سيعود مباشرة بعد أن ينتهي مع عباس. وكان منزل عباس وراء السوق أين كان محل مسعود، وتفادى العبور من تلك الطريق التي تؤدي إلى السوق، وأطال الطريق بحيث مضى إلى الجهة الغربية ثم أحاط بالحي أين يسكن عباس، ومن ثم بعد دخوله إلى البعض من الشوارع الصغيرة وجد نفسه عند باب منزل عباس. واستقبله عباس باحتفاء أثلج صدره وأذهب عنه بعضًا من التكدر الذي كان لا ينفك يجتاحه كلما نظر إلى منظر ما في البلدة أو كلم أحدًا أو حتى بدرت إلى ذهنه فكرة حول أيٍّ ممَّا كان متصلًا بحياته في تلك الأيام. جلسا في غرفة جلوس كثر فيها الأثاث وبدت جد فخمة، وكانت منقسمة إلى نصفين؛ نصف توسطته طاولة بكراسي كثيرة وكانت هناك ألواح زيتية معلقة على الحائط المقابل ونقوش خزفية وقفت في بعض الزوايا، أما في النصف الآخر أين جلسا على كنبة لها مسند خشبي منقوش بطريقة أوحت بالأصل المصري، فكان أيضًا بجانب الكنبة كرسيان بمسندين عاليين أيضًا يبينان عن نفس الأصل، أما السجادة فكانت مغربية برسوم أندلسية، وفوق الكنبة على الحائط لوحات بعضها بدا بدائيًّا بخط شابه الخط العربي وكأنه المسند أو خط أقدم، والبعض الآخر كان منه الأندلسي وكان منه الكوفي، مازج بين رسم مكتوب بالخط الكوفي. وكانت

خزانة كبيرة عليها بعض الأواني وفي جانب آخر كتب عديدة. أما عباس فكان أكبر سنًّا من مسعود ببضع سنوات، فكان في منتصف الستينيات من عمره، وبدا عليه تشبثه بالحياة على وجه طبيعي ومحفز للمتأمل فيه، وكان بإمكان المتأمل أن يستشف من وجهه الأصفر الفاتح والمضيء عينين بنيتين مغرورقتين بالدموع دائمًا ولكن على وجه طفيف لا يلفت النظر كثيرًا، وكان متلفعًا في جلابة خضراء وعلته قبعة بيضاء أضفت على وجهه ضياءً آخر وإن بدا غريبًا ومتناقضًا مع نظراته المركزة. لم يتوقف عباس عن السؤال عن حال مسعود، والأخير يجيب بابتسام كان قد عاد إليه على وجه طبيعي بعد أن كان يبذل الجهد الكبير في خضم كل المتاعب التي كانت تحيط به. وجد نفسه أكثر أريحية في ذلك المكان مع صديقه الذي بدا وكأنه يلطف الطريق لكي يكلمه في أمر قد يكون صعبًا عليه. أدرك مسعود ذلك، فابتدره بأن أخبره عن أخباره وعمَّا حدث له مؤخرًا.

«**ولماذا لم تخبرني يا مسعود؟ كان عليك أن تخبرني أو حتى تبعث إليَّ أحد أبنائك أو من يعمل معك ليُطلعني على الأمر. هذه كارثة**» علق عباس وقد تكدر وجهه وهو ينظر بتمعن إلى مسعود وكأنه يريد أن يوصل إليه الرسالة بكل العواطف التي اختزلها فيها لتصل إلى مسعود وتُحدث فيه الانطباع الذي كان يريد أن يتركه، ثم أضاف: «**وهل فكرت في ما سيأتي من أيام وكيف سيكون حالك؟**».

«**يا أخي عباس إن الأمر قضاء وقدر ولا يمكن رده، أما عن المستقبل فهو رهين بإرادة الله. وكل ما سيحدث لي سأتلقاه بصدر رحب، ولكن نسأل الله العفو والعافية**».

«أستطيع تمييز نبرة التوجس والخوف من كلامك يا مسعود، هل هناك ما لا أعلمه؟»، أجاب مسعود بالنفي ثم أضاف أنه أخبره بكل شيء. كان عباس قد نهض وجلس على الكرسي على يمين مسعود لكي يُتاحِ لهما رؤية ومخاطبة بعضهما البعض في نفس الوقت، ولم يخفَ على مسعود تبدل ملامح وجه عباس وما أظهره الأخير من عبوس وامتعاض لما أخبره به لتوه. لم يُرِد التذمر، وذكر لعباس أن في الأمر خيرًا، ثم شكر الله وحمده، وهو ما بدا مصدر امتعاض لعباس الذي قال بمرارة وانتقادًا لشخص مسعود:

«أي خير في هذا؟! لقد أقدمتَ على انتحار اجتماعي، من الذي سينظر إليك الآن بنفس الاحترام الذي كانوا يكنونه لك من قبل؟ أنا أتكلم بصراحة، لن تلقى أيًّا من هذا في المستقبل، الناس هنا لا ترحم، والآن أنت عرضة لمهانة وذل كبيرين، وما يزيد الأمر سوءًا هو أنه لا يبدو أنه يتوفر لك أي سبيل لكي تخرج من هذه الأزمة، وعلى ما أخبرتني به فأنت أكثر من المفلس، ويوجد الكثير من المدينين، إذًا حالك أسوأ من الفقر. ولكن لحظة، هل أرضك في العريبات مرهونة؟». قال هذا وقد خالط وجهه بعض من الأمل لبلوغ حل، فأجاب مسعود بنفس النبرة المستسلمة للوضع ولكن غير العابئة به والمجارية لعباس فقط:

«هي لا تزال في نزاع في المحكمة بيني وبين أبناء عمي الطاهر وعمي الزيتوني». مال عباس من جديد إلى الخلف علامة على خيبة أمله، وساد الصمت للحظات طوال، حاول مسعود أن يكسره بأن يشرح الأمر لعباس أو أن يسأله عن حاله وحال آله، ولكن أجوبة عباس كانت جد مقتضبة، وهو ما حير مسعودًا؛ ذلك أنه لم

يفهم سبب ذلك التكدر والحزن الذي حط على صديقه فجأة. وحتى بعد كلام عباس بأن سأله: «**والآن ماذا تنوي أن تفعل؟**»، لاحظ مسعود أن تلك الحالة لم تفارقه، فأجاب بـ «**لا شيء**»، وصمت هو الآخر. أدرك مسعود كيف ستنتهي محادثته مع عباس، وأحزنه الأمر فجأة، ولكنه لم يُرِد الاستسلام لوساوس أو إساءة الظن بصديقه، وتكلم هذا الصديقِ عارضًا سوانحه هو الآخر دون أن تفارقه نبرة المرارة واللوم:

«**كنا نظن أن المختار هو الذي أخفق في حياته، وأن الأمر كان بسبب قلة ذكائه وما كان يفتقده من آراء سديدة، وفعلًا كنا نضرب بك المثل لما كنت تُظهره من حزم وحسن تسيير للأعمال، وحتى في المعاملات كنت دائمًا الأفضل، ولم أكُن أخاف حينما أقرضك المال؛ ذلك أنني أنا الذي كنت دومًا من أعرض عليك هذا من أجل أن توسع تجارتك وتزدهر أكثر. ولكن الآن أنا فعلًا في حيرة من أمري، وهو أمر -لنكون صريحين- يثير الحنق؛ كيف لكل هذا الجهد وكل ذلك المال ورأس المال أن يختفي فجأة ويتحول حالك من الازدهار إلى الفاقة؟! هذا فعلًا محير ولا أجد أمامه سوى الشعور بالتكدر، حتى إنني أحاول أن أكبح نفسي لكي لا ألومك على هذا النحو ولكني لا أستطيع**».

«**كل هذا يأتي من التوفيق من الله، وإن غاب التوفيق يذهب كل شيء ولا يُحسن المرء صنع أي شيء**».

«**أنت تخلط الأمور وتُدخل الدين في كل شيء، لقد أخبرتك مئات المرات ألا تُدخل هذه الأمور -أمور الدين- في الأعمال، الدين يبقى في الجامع، وخارجه الأمر كله منوط بالإنسان، انظر**

إليَّ في الأيام التي لم أكُن أصلي فيها؛ كنت أجني المال كالذهب، وعندما بدأت أصلي منذ سنوات قليلة لاحظت أني بتفكيري على النحو الذي تفكر فيه أنت كانت تصيبني بعض الخسائر، فكنت أتوقف عن هذا التفكير وإذا بكل شيء يتحسن. والسبب الوحيد الذي كنت أتسامح بفضله معك حول هذا الأمر هو ازدهار تجارتك والبلاء الحسن الذي كنت تبليه في أعمالك، ولكني كان لديَّ دومًا شك في أن طريقة تفكيرك الغيبية تلك ستُنزل عليك مصائب أنت في حل عنها، ثم تفسر الأمر على ذلك النحو أيضًا. أنا لست ضد الدين، ولكن كل شيء ومكانه، وإلا كانت الأمور لتكون فوضى، وإذا أخذنا بكلامك فإنه سيكون أغنى الأغنياء هم الأئمة وعلماء الدين، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لأن الإمام له عمل، والتاجر له عمل، والمعلم له عمل؛ أن تُدخل هذا في هذا لا يجر عليك سوى الفوضى ومن ثم الخيبة، تمامًا مثلما حدث لك. لقد نصحتك في أكثر من مرة ولم تستمع إلى كلامي حتى عن أمر ابنتك؛ قلت لك زوِّجها بأحد الخطيبين اللذين تقدما لها -ابن جمال الهلالي وابن رابح عطية-، كنت أميل أنا إلى عائلة رابح عطية، ولكنك قلت لي هذا خاضع لإرادة الفتاة، وانظر الآن إلى ماذا أودت بك إرادة الفتاة. ولو كنت مثلك لكنت قلت إن هذا غضب من الله ليعاقبك على أمر ما، ولكن لا، ما حدث قد حدث، والله يحاسب ولكن ليس الأمر هكذا». كان مسعود ينظر إلى الأرض وبين الفينة والأخرى ينظر إلى عباس الذي كان جسمه كله يهتز من كلامه الذي بدا أكبر ممَّا يمكن له أن ينغمس فيه، وكانا قد تكلما في أمور أخرى لكن عباسًا ما انفك يعود إلى نفس الموضوع، وكان كل الكلام قد فاجأ

مسعودًا الذي كان يظن أن أفكار عباس حول الحياة ونمط العيش والإيمان مجرد مزاح يداري به تفانيه في أداء الشعائر، ولكن الأمر بدأ يحيره ويبعث فيه شكوكًا حول حقيقة الرجل حتى من الناحية الأخلاقية، وخصوصًا في تلك اللحظة أين بدأ بالتملص من أي مسؤولية تجاهه قائلًا:

«**وانظر يا أخي مسعود، أنت تعرفني صريحًا، أنا ليس لديَّ أي شيء لأساعدك به، أنا عملت مثلما عملت أنت، والفرق الوحيد بيننا هو أنني عرفت كيف أجاري الأوضاع والظروف، عكسك أنت. وأرى أنك لم تعُد مثلما كنت، يعني لو رآنا الناس معًا يمكن أن يظنوا أننا صديقان، وأنت تعرف أن التجارة هي التي جمعتنا، وصداقة التجارة لها حلاوتها، أما خارج التجارة فأنت تعلم أنه ليس لديَّ أي نوع من هذه العلاقات، كنت دائمًا عصاميًّا وما زلت، أنت مرحَّب بك دومًا هنا في الزيارات أو الأعياد، وأنا لا أزال أكن لك كل الود، ولكن يبدو أن مكتوبنا انتهى هنا**». ولما قام مسعود يريد الانصراف أضاف عباس: «**ويا مسعود لا تنسَ تلك الأمانة، أعني الخمسين ألف دينار، أنا محتاج إليها وأريدها غدًا أو بعد غد، لا تنسَني ربي يحفظك**». وعده مسعود أنه سيرُد له هذا الدين في ذلك الأجل، وخرج مسرعًا.

وهام مسعود على وجهه في الشوارع لا يعرف أين يقصد، وأراد أن يذهب رأسًا إلى المنزل، ولكنه أحجم بعد أن خمن أنه لن يكون أمرًا جيدًا الذهاب هناك بذلك الوجه وبذلك المزاج. أحس بالضيق في صدره، ثم ولأول مرة أخذ في المقارنة بين حاله قبل عامين –أي منذ دفن ابنه أسامة– وحاله والتغيرات التي طرأت على شخصه وعلى

حياته بعد ذلك طيلة ذينك العامين إلى غاية تلك اللحظة، وفكر أن الفرق كان جد شاسع، وأول ما تكوَّن كنتيجة من هذا التفكير هو عدم الثقة بالحوادث وكل ما تعرضه الحياة من مباهج؛ لأنها ميالة للزوال، ولكنه استبعد هذه الفكرة مقاومًا إياها بأخرى كانت قد لازمته دومًا، وهي أن «**في هذا خيرًا»؛ لذلك لم ييأس ولم يداخله أي قنوط، ولكنه أحس بثقل ما تركته تلك النوازل عليه من انطباعات وأحزان ومسؤوليات تكاد ترميه إلى التشرد والفقر الشديد. لم يعترض على ما أراده له الله بأن توفى ابنه وزوجته، وبدا المنزل فارغًا جراء ذلك ومع هجرة زيد كذلك، ثم إفلاسه وولوجه باب الفقر، والآن كل هذا النزق والمعاملة المقللة من شأنه والمنقصة من قيمته من طرف الآخرين، حتى أولئك الذين كان يعدهم أصدقاء نقضوا عهد الصداقة، ولكنه توقف هنا؛ ذلك أنه لم يُرِد أن يلوم أحدًا ولا أن يتذمر، «يكفي أن هذه المصائب تنوء بي ولا أدري لماذا»، تساءل بينه وبين نفسه ثم تذكر كلام كل من دب إليه الشك ولم يستطع مقاومة النوازل، ورأى فيها حقيقة واحدة فقط وهي الألم المحض، وتذكر ما يصفونه بإرادة شريرة في هذا العالم وكأنها تتسلى بمصائر وحيوات البشر، مثل هؤلاء يمضون بسلاح وحيد وهو الشك ينخر في حيواتهم ويجعل هاته الحيوات آمادًا لا تُطاق، فيكون هذا السلاح كخيط العنكبوت لا يشد حتى يتقطع، لم يُرِد أيًّا من هذا ثم قال بينه وبين نفسه: «الإنسان ضعيف، ولا بد من فرج، وكل هذا هو قضاء الله، ونسأله العفو والعافية**»، ثم تذكر ابنته منال فعاد إليه بعض من الهدوء والطمأنينة، ومنى نفسه بقرب الفرج، وما عليه سوى أن يربض في صبره؛ ذلك أنه لا يزال لديه أبناؤه وصحته ومنزل

يلجأ إليه، ابتسم بعدها وقرر أن يذهب إلى منزله، فاتجه مباشرة إلى هناك يحدوه أمل كبير في الحياة.

داعب مخليته الكثير من الأفكار التي أظهرت له المستقبل كحيز مشرق وما ينتظر أن يقبل بسرعة، وكان قد أطال طريقه هذه المرة أيضًا، فتفادى العبور على محلات السوق وتفادى الرحبة أيضًا ووجد نفسه يمشي باتجاه منزل صديقه زين العابدين، ولكنه أحجم بعد أن تملكه خوف من تكرار تجربة مماثلة لتجربة زيارة عباس الدراجي، وتابع مشيه ثم انعطف يسارًا إلى شارع كبير يكاد يؤدي إلى شارع منزله مباشرة، وفي الأفق البعيد كان قد لمح جموعًا من الناس متجهة جنوبًا على يمين ذلك الشارع، وقدر أن الأمر يتعلق بالسياسة والاحتجاجات والمظاهرات التي أصبحت ظاهرة وأصبح الكثيرون يشتغلون بها، فلم يُعطِ مسعود تلك المناظر أية أهمية، ولكنه أراد أن ينعطف يسارًا ما إن يبلغ ذلك المفترق. ولكنه ما إن بلغه حتى لم يستطع الإحجام عن إلقاء نظرة جنوبًا علهِ يعرف أو يخمن ما الذي حمل تلك الجماهير العديدة التي لم يكُن الكثير منها ممن يشتغل بالسياسة أو يشارك في المظاهرات على الركض بذلك الاتجاه، فخمن أنه أمر مهم وربما خطب ما قد لحق بأحدهم، ولشدة دهشته كان الناس ينعطفون يسارًا نحو شارع منزله، وهو الذي أراد أن يحيط به ثم يدخله من الجهة الشرقية. ولدى اقترابه من المنعطف، بدأ الناس يطيلون التحديق فيه وكأنهم اكتشفوه لتوهم، وعاد إليه الهلع، وكان هلعًا مشابهًا لذلك الذي انتابه عندما جلبوا النعوش منذ عامين، وعندما مرضت زوجته، كان أكبر من التوجس؛ ذلك أنه كان شعورًا سيطرت عليه احتمالية وقوع مكروه له أو لآله

حتى غدت واقعًا ينتظر أن يشهده هو. ومع ولوجه الشارع صدق حدسه، وكان الناس متجمعين أمام منزله ومتكومين حتى منازل مجاورة، رفع رأسه فكان الدخان يخرج من نوافذ الطابق الأول، ازداد الهلع وترامت إلى ذهنه صور حول المستقبل وما عساه يفعل، لكن ما زاد هلعه أكثر هو تفكيره بابنتيه، خصوصًا بعد أن تذكر أنه ترك منال نائمة وسهام في المطبخ. ولما بلغ منزله وقف خلف الجمع ونظر إلى المنزل وهو يحترق، لم يصدق عينيه، كان المغرب قد قرب وقد بدأت أمارات الظلام، ولكن الهلع استمر وقد توقف كل شيء داخله عن الاهتمام بأي شيء سوى ذلك المنظر وهو أمام منزله المشتعل وقد لمح لهيب النار من نافذة غرفة زيد، وفجأة تذكر ابنتيه فاجتاح الجمع أمامه، ومع مقاومة الناس الذين كانوا يستديرون كان يصرخ: «**ابتعدوا، هذا منزلي**». تجاوزهم والجميع لا يزال يحدق فيه وقد أحنقه هذا، وأمام المنزل تمامًا كانت سهام واقفة وهي تبكي وبين ذراعيها شقيقتها منال المتلفعة في غطاء، رادمةً وجهها داخله، وقد حدس مسعود أنها كانت ذاهلة تمامًا. قلب مسعود نظره بين ابنتيه وبين المنزل المحترق أين وقف رجال أمام المدخل –بينه وبين الباب– يَحولون دون اقتراب أحد، وفكر: «**ما الذي يحدث؟**» وخاف من العالم. ثم بعد أن خاف، خاف من مسببه ومن مسبب هذا الحريق. استغرب كل شيء، ثم ثاب إليه بعض من رشده فتقدم إلى أحد من تولوا مهمة الحراسة وسأله أين الإطفاء، وكان قد خرج في تلك اللحظة بديع من المنزل فكان أسود وكأنه احترق، ولكن مسعودًا أدرك أنه لم يكن هناك إلا لكب الماء بعد أن رأى الدلو في يده اليمنى ثم خرج وراءه رجلان، تبعهما

بديع وصاح مسعود باتجاهه: «**أين الإطفاء يا بديع؟**»، استدار بديع وأجابه بأنهم قادمون وأنه يجب أن يستمروا في كب الماء من المنازل المجاورة، ولكن مع عودته كان الإطفاء قد وصلوا ومنعوا الجميع من الدخول أو حتى الاقتراب، وابتعد مسعود وهو يحوي ابنتيه بين ذراعيه وقد بدا ضعفهما فلم يُطل أحد التحديق فيهم، ووقف مسعود مع ابنتيه وقد بدوا للجميع مكروبين أنهكتهم الفجائع، ولم يحكم عليهم أحد بالسوء ولم يُساء ظنهم، ونظروا إليهم وقد بدا ما أصابهم كتجسيد لفعل الأقدار ودليل سلطة إرادة كبرى لا رادَّ لحكمها. وخيم الظلام، لكن الشارع كان منيرًا من المنزل المحترق الذي استمرت النار في داخله دون أن يستطيع الإطفاء أن يُطفئوها كلية، وخافوا أن تسارع إلى بقية المنازل المجاورة خصوصًا بعد أن اسودَّت شرفة المنزل على يسار منزل آل مسعود، إلا أن الإطفاء احتووه وخمد بعض ممَّا كان في منزل مسعود، إلا أن المنزل استمر في الاحتراق. رأى هذا مسعود، وبينما هو يتأمل هذا المشهد وما يند من كلام رجال الإطفاء، اقترب إليه رجل وبقي يحدق فيه، وأدرك مسعود أنه كان يكلمه، نظر إليه بإمعان وبعد أن تكلم من جديد: «**يجدر بك الذهاب إلى منزلك يا عمي مسعود**»، خال نفسه يتكلم مع خيال، وأن طائفًا من الجنون قد ألم به وأجابه: «**منزلي يحترق يا سيدي**». **وأسرع الرجل شارحًا: «لا، أقصد منزلك في العريبات أين أقطن أنا، أنا موسى يا عمي مسعود». فهم مسعود كل شيء وتعرف على موسى، وشعر براحة خفيفة بعد أن ارتاح من هلع احتمالية الجنون، وراح يتساءل: «كيف؟**»، فرد عليه موسى: «**إن الفتاتين لا يجب أن تبقيا هنا**». وافق مسعود ولكنه لم يعرف كيف يتصرف؛

ذلك أنه كان يريد أن يبقى هناك ولا يترك المنزل المشتعل، كما أنه كان يجدر بابنتيه أن تذهبا إلى منزلهم في العريبات، ولكن مع من؟ وبعد أن فكر قرر أن يذهب معهما بنفسه. وكان المشوار جد مرهق ومليء بالمنغصات من اشتغال الناس بهم، وسؤال كل من يمر بهم عن أحوالهم وعن السبب الذي حدث من أجله الحريق، وعمَّا إذا وقعت أية خسائر، وكان في كل مرة يشرع أن يرُد مسعود فلا يكاد ينطق: «**لا نعلم بعد**» حتى يتدخل موسى ويطلب منهم أن يدعوهم وشأنهم: «**وليس هذا وقت حشر الأنوف**»، فيرعوي الجميع. وعاد مسعود إلى المنزل المشتعل بعد أن ترك ابنتيه مع فتيحة، وكانت سهام لا تزال تبكي ومنال في حالة صدمة، أما موسى فرافق مسعودًا، وكانت تلك الليلة مثلما توقعها مسعود طويلة وجد مرهقة، وانضم وحيد إلى بديع في متابعة أوضاع الإطفاء، وكان كثير الصياح والصراخ، ولكنه بدا جد مهتم بالأمر تمامًا مثل بديع. ولكل أمر نهاية، وانتهت تلك الليلة وكان الدرك قد زاروا الموقع أيضًا، ولكن لم يتكلم أحد مع مسعود، وبعد أن تأكدوا من خمود النار دخلوا إلى المنزل ووجد مسعود أن كل شيء قد احترق، وذهبت الكتب والصور والأثاث وكل شيء، حتى النقود التي كان يُخبئها لدفع بعض الديون وعلى رأسها دين عباس كانت قد احترقت، ودخل عليه بديع وهو يحمل الرماد بين يديه، لم يقل أحدهما أية كلمة، وقبل أن يذهب مسعود إلى العريبات -بعد أن حثه على ذلك بديع وموسى- مر على منزل زين العابدين، وكان قد تعرف عليه وطلب منه الدخول ولكن مسعودًا رفض، وترك مسعود زين العابدين بعد أن استلف منه خمسين ألف دينار ذهب بها رأسًا إلى عباس وأعطاها إلى ابنه ورحل مباشرة.

لم ينَم ليلته تلك، كذلك كان الحال بالنسبة لابنتيه اللتين قعدتا ساكنتين في غرفة شبه خالية من الأثاث إلا من كنبة وكرسيين، وعلى أحدهما جلس مسعود. وكان يفكر في ما يجب عليه أن يفعله؛ لم يستطع الخلوص إلى أي شيء، وبدا له أن البلاء كان قائمًا ولا مفر منه، وبدا له وكأن هذا الأمر سيستمر إلى الأبد ولن ينتهي منه لا هو ولا أبناؤه إلا بالموت، حاول صد هذه الفكرة، ولكن ذهنه كان جد مضطرب فلم يستطع التحكم لا في مشاعره ولا في أفكاره؛ وهو ممَّا زاد توتره ومنه هلعه وتوجسه من المستقبل. وكان بين الفينة والأخرى يتحدث مع سهام؛ ذلك أن منال كانت مستلقية ولم تند عنها أي كلمة، ولولا طمأنتها إياهم بأن نفت أن يكون قد أصابها أي شيء بسوء لكانوا فعلوا شيئًا بإزائها. أما سهام التي كانت جالسة عند رأسها فقد كانت تُبادل والدها الحديث كلما تكلم في شيء، وبعد أن قال وهو يشير إلى انتهاء المصاب: «**لقد مضت هذه الكارثة بسلامة وستر الله، الحمد الله**» أجهشت بالبكاء، وقالت معترضة على كلام والدها:

«**لماذا يحدث كل هذا لنا؟ ماذا فعلنا؟ لا يمر يوم إلا وتحدث مشكلة أو مضايقة، والآن وصلنا إلى هذا الحد، ماذا بعد هذا؟ لقد قاربنا على التشرد ولم يبقَ إلا الموت كراحة تريحنا من كل هذه المعيشة الخانقة. الحمد لله أن أمي ماتت، وإلا لكان مرآها في هذه المصيبة كربة أخرى. ثم ما ذنبنا؟ لماذا كل هذا؟**». حاول مسعود تهدئتها ولم يخْف امتعاضه من كلامها والنبرة التي استعملتها، كانت كلها استسلام وبدا أنها أثرت على ابنته الكبرى، وحثها على الصبر: «**فما هذه إلا شدة وستزول**». بعدها دخل وحيد وكان

متجهمًا ومنظره مغبر وأسود، وكان جد غاضب وواجد على أسرته كلها، دخل الغرفة وبعد أن سأله مسعود عن حاله صرخ قائلًا: «**أين هو الخير؟ من أين يمكن أن يأتي؟ هذا لا يحدث حتى في أغرب الكتب والقصص؛ أن تذهب إلى منزلك في المساء فتجده يحترق، وكل شيء وكل أغراضك تحترق وتغدو رمادًا. ولماذا؟ بسبب ذنوب آخرين؟ والحق عليك يا أبي، لا أدري لماذا تتصرف هكذا. لو كان الأمر حدث لرجل آخر لكان قتل ابنته ولم يسمح لها أن تدخل المنزل، وهذا عقاب الله، كنت تخاف من مقام سيدنا، ولكن الله أراك أنه ولي الله، وأنه يمكن أن يحرق لك منزلك إن أنت أقدمت على هذا، وما كل هذه المصائب إلا من عداوتك لسيدنا ونيتك في تخريب ضريحه**». لم يرُد مسعود الذي رأى في كلام ابنه ما يخيف، ولكنه رفض التفكير فيه ونسيه بعد أن خرج وحيد من المنزل.

في اليومين التاليين قضى مسعود جل وقته في المنزل المحترق، وكان بديع وموسى وعبد الرحيم يساعدونه من أجل التخلص من كل ما يمكن التخلص منه، ومن ثم التفكير في ما يمكن فعله بالمكان. وفي اليوم الثالث لم يستطع الاهتمام بأي شيء؛ ذلك أن ابنته منال أصابتها الحمى ولم تقُم من الفراش لأسابيع، كانوا يأخذونها منه إلى الطبيب فقط ثم يُرجعونها. ومن ثم ساءت حالها وظنوا الظنون، فكان أن أثرت هذه الحال على سهام أيضًا، وتجمع في الغرفة الجميع من بديع ووحيد الذي ذبل وجهه واحتدت نظراته وأبانت عن تأثر شديد وكذلك تفقدها عبد الرحيم وحتى موسى. وتغير سلوك الجميع، وبعد أن اعتاد وحيد الدخول إلى المنزل سكران محاولةً منه لنسي ما كان يصيبهم، وخصوصًا بعد أن تعارك في إحدى المرات

بعد أن عادوا لتوهم من عند الطبيب مع أحد دائني مسعود الذي كان يطالب بماله فانفجر وحيد في وجهه قائلًا: «**اصبر يا أخي. ألا تعرف الصبر؟**»، وراح الآخر يصرخ أيضًا: «**ولماذا أنا فقط الذي أصبر؟ لا أحد يصبر ولن أصبر أنا**»، ثم تصاعد الخلاف حتى اشتبكا، فكان أن فض العراك مسعود وموسى، ولكنه بعد أيام قلائل قطع الشرب وأخذ يقصد المسجد مع مسعود وموسى، ولكن بدا شديد الشرود في جل الأوقات، وكأن أمرًا يشغل باله وقد نال منه الهم. وأخذت منال تتعافى حتى أبلت من مرضها وقامت والجميع يشجعها، وهي تسعى للابتسام دومًا حتى اعتادت الجميع وبدأت تتكلم من جديد. وعادت إليهم بعض من الطمأنينة وإن كان الهدوء يسيطر عليهم حتى على موسى وعبد الرحيم الذي كان دائم الزيارة لهم، والحذر أصبح ديدنهم وكأنهم يتوجسون من المستقبل خيفةً رغم نصائح مسعود لهم في أن يعيشوا حيواتهم وأن يتزوجوا وينجبوا الأبناء، إلا أنهم كانوا يُعرضون عن هذا الكلام ويعدُّونه غير واقعي.

ومرض مسعود ولزم الفراش، وذعر أبناؤه وموسى وعبد الرحيم، حتى زين العابدين كثر تردده على المنزل، وكانت نظرات أبنائه تعبر عن لوم لمسعود لعدم لزومه باب الحذر والتوجس من نوائب الليالي واستهتاره وعدم الاهتمام، وذلك بأن رمى الهموم جانبًا ومضى في عبادته فقط، لامته نظراتهم ولكنه لم يكترث لها، ووجد من يفهمه في شخص زين العابدين الذي كان يشجعه ويُذكره أنها شدة وستزول، ولكن وحيدًا ومنال وسهام أضحوا شديدي الارتياب والخوف من كل شيء، ولكم عبروا عن شكوكهم حول أن شيئًا ما يتربص بهم وكأنه شيطان يتلذذ بآلامهم! وساءت حال مسعود وأصاب جلده

قروح غريبة حتى ظنوا أنها الجرب أو حتى أمر أسوأ، وطلب منهم زين العابدين ألا يُطيلوا المكوث في الغرفة، وأيده كلام الطبيب فظنوا أن مسعودًا آيل للفناء، وشق عليهم أن يُمنعوا من الجلوس معه وكيف يمكن أن يؤثر غيابهم عنه في نفسيته ويظن أنهم هجروه، ولما طال مرض مسعود وآلامه أخذت نفسياتهم تُهاض، خصوصًا الفتاتين ووحيد، أما بديع فإن أمرًا ما كان يُثبته ويساعده على التجلد، ونفس الأمر كان بالنسبة إلى موسى، وإن ظهرا دائمًا متأثرين وفي الكثير من الأحيان دهشين، غير أن عبد الرحيم لو أنه كان يسكن هناك لالتحق بركب تألم وحيد وشقيقتيه. أما مسعود فكان يدرك ما حدث له ونوع المصاب الذي ألم به، إلا أنه كان يحاول التجلد، ولكم نجح! ولكن تعاقب الأيام واستمرار مرضه حال دون أن يستمر ذلك النجاح، فبدأ بالاستسلام لبعض الأفكار التي جعلته يرثي لحاله ويتألم نفسيًّا، ولكن مرأى أولاده كان دائمًا يدفعه لكي يعاود التجلد، وهو ما كان يحدث، أما عزاؤه الوحيد في عدم قدرته على القيام وأداء الصلاة التي كانت مصدر طمأنينة له فكان صوت الأذان وصورة معلقة في الحائط مكتوبًا عليها سورة الإخلاص والمعوذتان، كان كثيرًا ما يردد هاته السور ويستعرض في ذهنه صفات العالم العلوي دون تصويرها، واستمر حاله هكذا حتى ظن أن وقت موته قد حان، فأخذ يستعرض أحداثًا من حياته في ذهنه ولكنه تذكر قوله: ’لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ‘، فاستغفر الله وسلم أمره إليه وانتظر موته. انتظر موته، ولكنه في صباح يوم جمعة أحس بنفسه قادرًا على الاتكاء على سريره وإن لم يستطع القيام، ثم بعد أيام قام من سريره

وقد أحس بجلده قد بدأ بالشفاء وإن بقيت آثار من ذلك المرض على وجهه وباقي جسده، حتى أعلن له الطبيب أنه ماثل للشفاء.

أبل مسعود من مرضه، وترقب من كان حوله أن يلزم الحذر ويخاف، إلا أنه آمن ومضى في الحياة بقلب سليم. وبعد أن مرت الأشهر والجميع في ذلك المنزل يعيش في حالة توجس وترقب -كان مسعود الوحيد الذي كان يبدي ابتهاجه فيها-، وضع موسى حدًّا لهذه الحالة بأن خطب منال من والدها الذي وافق وراح يحث ابنته الخائفة والمترددة على الزواج من موسى. وافقت أخيرًا وتزوج الاثنان ولا أحد من الآخرين يصدق هذا، وأقاموا حفلًا ومسعود مبتهج ويحث الجميع على الابتهاج بأن يدفعهم دفعًا، وهو الأمر الذي نجح فيه بأن كان يردد دائمًا لهم: «**هي حياة واحدة، ولن نأخذ أي شيء سوى العمل الصالح وما أتاحه الله لنا من متع، إذًا تمتعوا وتزوجوا ودعوا دورة الحياة تدور**».

٩

أصيب العمران الإنساني في المأرب وفي سائر مناطق البلاد بمصاب وكأنه تغيير وضرورة حياتية في رفض وضع ما، أو تدرج في الوجود الإنساني، أو حتى تراجع وانحلال، أصيب بما يمكن أن يُدعى ثورة أو تمردًا لم يعرف على التحديد ما المسبب له ولا المحرك له، بل اختُزل ظاهره في كثرة عدد الساخطين والناقمين على الحكم القائم آنذاك، ومنه كانت هذه نقطة توحد هؤلاء الناقمين وإن اختلفت توجهاتهم وميولهم ومقاصدهم. حدث هذا في بداية الشتاء ومع شهر ربيع الثاني، وكان الجميع مع الجميع والجميع ضد الجميع، اختلط الأمر بيد أن من تجاوزت آمالهم مجرد السخط والتنفيس عن الغضب ومنه الطموح في الحكم وفي تغليب النزعة الخاصة والفكر الخاص أو حتى وجهة النظر الخاصة، مضوا أبعد من ذلك. وكان لذلك الجمع الغفير من خارج دائرتهم ومن خارج دائرة الحكم من الغالبية ممن يُسمَّون عند البعض الدهماء وعند البعض الآخر الشعب –لدى خروجهم من فكرة الإيمان الموحد المتلخص في الأمة– أبلغ الأثر في إغرائهم بأنه يمكنهم الحكم ويمكن لفكرتهم وأفكارهم السواد، وأنهم كانوا دومًا على حق بكل ما أبدوه من

أفكار ومن حلول. لخص بديع هذه الأفكار في رأسه وإن حاول عدم تطبيقها على نفسه بِعَدِّ نفسه خارج الدائرتين وأن له طريقًا مختلفًا وإن اشترك معهم في ذلك الطموح، ومنه الرغبة في الاستعلاء بتسمية ذلك مرة بالازدهار ومرة أخرى بالعلياء. كان قد مضى على حالة عدم الاستقرار تلك في البلد ثلاثة أسابيع لم يعرف خلالها أين المصير أو ماذا سيكون عليه حال البلد بعد ذلك؛ أإلى الأحسن أم إلى الأسوأ؟ وخاف الكثيرون من ولوج البعض لباب العنف ومنه تغليب القوة على اللين، قام المصلحون من أصحاب النظريات الاجتماعية ممن حمَّلوا البيئة مسؤولية العنف والفقر وذل البلد أمام سائر الأمم الأخرى، وحمَّل بعض هؤلاء الدين مسؤولية كل هذا، استمع لهم بديع وكان على رأسهم الرازي الذي لم يكُن يطيقه ولم يَدرِ لماذا، وكان معه الكثير من الشبان والشابات المتحمسات لأفكاره، كانوا قلة ولذلك لم يؤخذوا على محمل الجد، وهو ما أغاظهم جدًّا بأن مضوا في مقارنة البلاد بالبلدان الأخرى، وراح الرازي يصرخ في منزل سيف بعد أن دعا سيف «**جميع الثوريين**» -حسبه- وهو اللقب الذي رفضه بديع والكثير من أصدقائه: «**لا طريق آخر سوى مسح كل هذه الخرافات وكل هذه العوائق، واعتناق الديمقراطية وتطبيقها على الوجه الذي طبقته الأمم المتحضرة، والتي بلغت مبلغًا عظيمًا، وانظروا ماذا تقدم للإنسانية وماذا نقدم نحن». بينما راح آخرون ممن سموا أنفسهم «وطنيين»** يرفضون هذه الفكرة، وكان على رأسهم خليل بعالم الذي صرخ هو الآخر:

«**الشعب هو الوحيد الذي يقرر ذلك، أنتم تغفلون عن الدور الذي يمكن أن يلعبه شعبنا، أنتم لا تدرون ماذا يمكن أن يقدمه**

للإنسانية، لا داعي لتغريبهم أو تشريقهم؛ شعبنا بفطرته له القابلية لأن يحمل مشعل التقدم الإنساني وخدمة وحماية الإنسانية جمعاء، انظروا فقط إلى أفراد شعبنا عندما يهاجرون، ماذا يقدمون للعلم وللرياضة وللفن؟ الكثير. وأنا لا أصدق تلك النظرية التي تزعم أن كل الحقوق التي رُميت على شعبنا مرة واحدة هي السبب في تضليله لأنه غير مسؤول، وهو مثل الإنسان غير البالغ الذي يحتاج إلى وكيل ينوب عنه في اختيار طريقه وما يجب عليه فعله بممتلكاته، هذا غلط، تأملوا روح الشعب وسترجع أعينكم إليكم بنور جديد يملؤكم ويملأ البشرية جمعاء». لم يرُد عليه أحد، وكان خليل هذا أستاذ لغة أجنبية، وكان بعض كلامه رطانة وإن كان يجيد اللغة العربية الفصحى، وهو ما كان يجلب الآذان نحوه.

تكلم آخرون، وكان هذا الجمع في الأسبوع الأول، ولاحظ بديع فيه أن كل الفئات التي حضرت لم تمثل -مجتمعةً كلها- إلا الأقلية التي لا تنفع في البلاد؛ فكانت تضم إضافةً إلى دعاة التشريق والتغريب والوطنية الفارغة إسلاميين كانوا قد اعتنقوا فكرة فاعلية الديمقراطية وتوافقها مع الإسلام، وكان بديع يكُن لهم أكثر من الآخرين ازدراءً لمَا هم فيه من هوان ومن استصغار لمعتقدهم. رحل عن ذلك الجمع ولم يعُد إليه رغم تضرعات الرازي وسيف، واقتنع بقراره مع تصاعد هذا الوضع بأن وجدوا ذات صباح في الأسبوع الثاني جثتي الميلود بن الرازق وسليمان دلول. ذعر الجميع، وكان الأمر أسوأ في بعض مناطق البلاد خصوصًا مع تكاثر المظاهرات واصطدام الجماهير مع قوات الشرط والدرك وحتى الجيش في العاصمة، ولكن دون أن يند من هذا أي عنف، وإنما

كانت الاغتيالات في الليالي ومن طرف أفراد مجهولين. ثم تلا هذا هدوء لم يبشر بخير؛ ذلك أنه كان متلفعًا بالسخط وشعور بالمرارة لنوع الحياة التي كان يحياها الأغلبية من الرعية في الأمصار الناطقة بلغة الضاد، ومنه كان انتظار سببٍ ما أو دافع يؤدي إلى التنفيس عن كل ذلك السخط وحالة اليأس من المستقبل. وممَّا زاد الأمر سوءًا هو عدم القدرة حتى على الزواج لعدم القدرة على مجاراة نوع المعيشة التي يمكن أن تستلزمها الحياة الزوجية، ومنه كان اتصال هذا بهذا وتشابك جميع الأمور وتخنيقها على الفرد، فلم يبقَ الملاذ سوى المسجد. وفي المسجد كانت الناس تسمع عن عدل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وتحري ولاة الأمر العدل في المؤمن وغير المؤمن، وتوفير الأمن وعدم استغلال المنصب والسطوة على الآخرين؛ سمعوا عن مكارم الأخلاق والمسؤولية المطلقة، واقتصار ذلك المنصب على بذل الجهد من أجل تحقيق العدل والإنصاف التام، ومنه محو خرافة أبناء الأكرمين والأرذلين. سمعوا كل ذلك لكنهم لم يعوا كيفية التصرف وتحقيق ذلك؛ ذلك أن جل من كان يسمع منه كان يتكلم عن دول أخرى وعن نظم في دول متحضرة، ومنه محاولة جر من لا يمكن جره نحو ضفاف أخرى، وإذابة من لا يمكن إذابته في ثقافات أخرى، فأعرضوا عن هؤلاء وأعرضوا عن آخرين كانوا يتغنون بماضٍ للبلد لم يكُن ولاة أمره سوى طغاة وطنيين، أعرضوا عن الجميع واستمعوا للمثل الأعلى، ولكن لم يكُن هناك من يجسد هذا العدل في الواقع؛ ومنه كان يأسهم يتضاعف. وفي صباح يوم جمعة، وبينما كان السوق مكتظًّا في إحدى مدن الشرق، اشتبك شاب في الثلاثينيات من عمره مع فردين من الشرطة،

انتهى الأمر بأن أبرحاه ضربًا وهو يصرخ؛ ممَّا حدا بأحد المسنين إلى التدخل، فتدخل عنصران آخران للشرطة، ثم تدخل آخرون من الشرطة إلى أن تفاقم الأمر وتحول إلى مظاهرة وتكسير لكل شيء اعترض طريق الغاضبين، وذهبوا إلى مركز الشرطة وحاولوا دخوله لولا تدخل عناصر الشرطة الذين تفوقوا على العامة بالعتاد والسلاح وحاولوا تفريقهم، لكن هؤلاء تجمعوا بعيدًا ومضوا لمراكز تمثل الدولة وبدؤوا بالعمل. توقفوا عند صلاة الجمعة، وبعد الصلاة استأنفوا عملهم، وكانت النتيجة أن انتقل هذا العمل الجماعي إلى مدن أخرى أحرقوا ودمروا فيها أغلب البنايات والمراكز التي تمثل النظام الحاكم. واستمر الأمر لثلاثة أيام، أدرك الجميع فيها أن الوضع تفاقم وازداد سوءًا، وما أثار الهلع أكثر وأدخل هذا الإدراك إلى أذهان الجميع هو تكاثر الجثث التي كانوا يجدونها في كل صباح. وأعلنت جماعات العصيان، وفشلت الدولة الحاكمة في احتواء الأمر، ولم يُرِد الجيش التدخل إلا ضد من أعلن التمرد والعنف ضد الدولة، ومنه حراسة الحدود لمنع أي تدخل أو تحالف خارجي مع تلك الجماعات المتمردة، وأُعلنت حالة الطوارئ وقلت الحركة، وأصبح الجميع مذعورًا.

لم يعجب هذا التوجه الشعبي بديعًا وإن كان يعلم سر يأسهم، ولكن كان يتفاعل معهم كأفراد، ولكن ما إن يتكومون ككتلة واحدة وما يلي هذا من تصديق لفكرة ‹الشعب› حتى يزدريهم لما يفعلونه كأفراد من نبذ للمسؤولية الفردية والاحتماء تحت أفكار عابثة لتجنب تلك المسؤولية، ومنه سهولة التحكم فيهم من طرف النظام الحاكم وعدهم –من طرف ذلك النظام– كماشية غنم تُساق لا أكثر

ولا أقل. من أجل ذلك كان يتفادى الولوج في ذلك العنف وإن رأى أمثال الرازي ومن معه وأيضًا مصطفى بن عدي يتفانون من أجل استمرار ذلك الوضع أو التحكم فيه. واقترب كلاهما منه في مناسبتين متباعدتين يعرضان عليه عروضًا ويصفان له حالًا لم تكُن له أي علاقة بها وليست ممَّا يناسبه، فكان عرض الرازي هو بالكلام عمَّا يمكن أن يجنوه: «**ويجنيه هذا الشعب والبلاد من حياة رخاء وتقدم علمي واقتصادي. وسيكون لك حظ في هذه المساهمة الجليلة، ولن ننسى لك هذا**»، قال الجملة الأخيرة وابتسم، فأدرك بديع سبب مقته له بأن تذكر نفس ذلك الوجه الأسمر تعلوه ابتسامة نمت عن غرور واستعداد للفوضى والتلذذ بالألم كلذة لا تدانيها أية لذة أخرى، تذكر كل هذا يوم رجعت شقيقته منال والحشد الذي تفادى نظراته بينما راح الرازي يحدق فيه بصفاقة، تذكر هذا وأعرض عنه وطلب منه بنبرة تهديد: «**ألا تقترب مني أبدًا، وستندم إن فعلت هذا**»، بدت النبرة وما تحتويه مفاجئة للرازي الذي بدا لبديع وكأنه يثق بنفسه ثقة عمياء وينتظر من الجميع الإذعان لإرادته، وبعد تلعثم في الكلام وارتباك اعتذر إلى بديع إن كان قد قال أي شيء يزعجه، وطلب منه أن يفكر في العرض. لم يخفَ عن بديع أيٌّ من الإيحاءات التي انطوى عليها العرض، وبدت له تنقص من مروءته وهو الذي كان يتفادى مثل تلك الأمور حفاظًا على مروءته. تفرق الاثنان، وذهب كلٌّ في اتجاه في شارع مجاور لمنزل سيف، وراح يفكر في تلك المروءة التي منعته والمسؤولية الفردية، ومعنى ذلك التفادي والتجنب لكل ما ينال منها أو يلطخها. وفي تلك الفوضى التي كانت تعيشها البلدة والبلاد، أراد الغوص في معنى تلك المروءة

وما تشكله بالنسبة له، ظن نفسه قبل هذا لا أخلاقيًّا، وأنه لا يوجد ما يعيق أيًّا ممَّا يطمح إليه سوى الخرافات والأفكار الثابتة التي تستحوذ على الآخرين، إلا أنه في هذه المرحلة وقبلها ممَّا أصاب آله من مصائب ألفى داخله شعورًا بالمسؤولية، هو الذي ضايقه لتعارضه مع الفكرة التي كان ينسبها إلى نفسه. بيد أن قوة ذلك الشعور وما يمثله جعل الأمر حقيقة، وبعد أن تأمله جيدًا رضي عنه وعن نفسه وقدر أنها علامة قوة، وحتى مصطلح القوة غدا بالنسبة له مجرد صفة وليس مثلًا أعلى، انتهى إلى ذلك ونبذ كل أفكار الأنانية النظرية، ومن تلك اللحظة أخذ في البحث عمَّا يمكن أن يذوب فيه ليكون له المعين والدافع، ولكنه أراد أن يكون هذا الجوهر الأعلى والأكبر منه أكبر من كل شيء آخر ومسوغًا لطموحه.

في مقابل هذا كان لقاؤه مع مصطفى بن عدي أكثر حدة، ولاقى من الأخير عنادًا كبيرًا؛ ليس من أجل إقناعه بكلام ما، بل فقط من أجل التخلص منه أو فعل ما فعله مع الرازي بالإعراض عنه، ولكن هذا لم ينجح مع مصطفى الذي استبقاه واقفًا معه في الرحبة بعيدًا عن جمع كان قد تجمع حول الأمين العام الجديد للبلدية جمال الهلالي، الذي كان تحزبه لأحد الأحزاب التي ظهرت كبديل أو حتى كشاغل للفراغ داخل نظام الحكم، ولم يعلم من استعملهم بالتحديد. ولم يُطل مصطفى الكلام مع بديع، ودخل في لب الموضوع وسأله: «**مع من أنت بالتحديد يا بديع؟ مع هذا الضال جمال الهلالي؟ أقول هذا لأني رأيتكما قبل عشرة أشهر، كنتما تمشيان معًا، وكان حتى يزورك عندما كنت تسكن في منزلكم**

في العريبات». لم يَدرِ بديع من أين أتى بكل تلك المعلومات، إلا أنه أجابه بأنه ليس مع أي حزب وليس في أي لجنة أيضًا.

«**ولكن ما ترى كحل بالنسبة لهذه البلاد؟ هل تريد انتخابات مبكرة وما إلى ذلك أم تشكيل حكومات وكل هذا الكلام؟**».

«**ليس لي أن أرى يا مصطفى، المسؤولون هم الذين يرون ويقررون. إن كان الأمر بيدي أو بيد من هم مثلي فلماذا كل هذه الفوضى؟**».

«**أي مسؤولين تتحدث عنهم؟ كلهم ضالون ومُضِلون، كل هذه الانتخابات وهذه المجالس النيابية هي كفر، أعلم أنك تعلم هذا، فالجميع يعلم به. والشعب كله معنا، نعم، لكي أختصر الكلام ولا أطيل، الشعب معنا ويجب لحالة الحكم البشري هذه أن تتوقف**». بدا كلامه منفرًا، وقدر بديع أنه يحوي صوابًا، ولكن هذا الرجل بشدته كان كل ما يعرضه حتى الحق يعرضه على وجه منفر أو على وجه لا يتيح للمستمع أن يتقبل فحوى أي كلام منه.

«**على أية حال، أنا لا أرى لنفسي أي دخل بهؤلاء الآن، ولماذا أزعج نفسي بهم؟ قد رأينا أن الذين قبلهم رحلوا مُذَلين مهانين، وسيحدث نفس الشيء لهؤلاء إن هم ساروا نفس مسيرة من سبقهم. هذا أمر لا يجب أن يشك فيه أحد، وأنت بانفعالك هذا لا تزيد إلا في لخبطة أفكارك وتشويش ما تبقى لك من تفكير سليم**». حدق فيه مصطفى مليًّا وبدا أنه انزعج جدًّا من كلامه، فرد متسائلًا:

«**ماذا تقصد بما تبقى لديَّ من تفكير سليم؟ أتراني مجنونًا أنزع عني ملابسي وأرميها أو أعبث بشعري وأنتفه من رأسي وأدمي نفسي؟**».

«يبدو أنك تريد الجدال وحتى المشاجرة يا مصطفى. اسمع، ليس لديَّ وقت لهذا، وأنت بهذا لا تثبت سوى شيء واحد بالنسبة لي، وهو أنك وأمثالك لا تسعون إلا للتسلط على الآخرين لا غير».

«أنا لا أريد أي شيء يا بديع، لا أريد أي شيء لنفسي، ما أريده هو لله، وأنا لا أريد مشاجرتك ولست من النوع الذي يتشاجر؛ لست مراهقًا، وكل ما أردت قوله هو أن تزن كلامك جيدًا قبل أن تُسمع محدثيك كلامًا ينقص من شخصهم».

«أنا لم أنقص من شخصك يا مصطفى، كل ما قصدته هو أننا جميعًا مشوشون، وأن كل ما يبدو لنا فكرًا صائبًا ما هو إلا جزء من ذلك التشويش، والتفكير السليم والمتبقي لنا هو عيش الحياة اليومية دون مشاكل».

«فهمت عنك، وأظنك محقًّا في ما قلته، اعذرني. ولكن يجب عليك أن تدرك يا بديع أن الوقت ليس في صالحنا، وأنت ترى أن الأيام تمر والخونة لا يزالون في الحكم ولا يزالون يخدمون مخططات دول أجنبية ليست حتى عربية، بل هي ممن ناصبَنا العداء منذ الأزل، إذًا فإن الكلام عن الهدوء والحوار ما هو إلا وسيلة لأمثال جمال الهلالي وذلك الخائن سليمان دلول الذي مات شر ميتة وهو الآن يُحاسَب على جرائمه مع أعلام النظام السابق، وأنا لا أصدق الجيش في أيٍّ ممَّا يقوله».

«ولكنك صدقتهم عندما جلبوا نعش شقيقي أسامة -رحمه الله-، ومنعتهم من أن يدفنوه في الجبانة بحجة أنها جبانة يُدفن فيها المسلمون وأسامة لم يكُن مسلمًا».

«**هذا لم يكُن له أي دخل بالجيش، أسامة كان جزءًا من مجموعة علمانية تعلن الإلحاد، والجميع يعلم أنهم قتلوه ومن معه لأنهم كانوا جزءًا من مجموعة الشرقيين الذين حاولوا عمل انقلاب ضد النظام من خلال الجيش، وقبل أن يحدث هذا كان يعلن بكل صراحة أن الشريعة الإسلامية لم تعُد صالحة كمصدر تشريع ومرجعية أولى، وأنها غير متلائمة مع هذا العصر. وكما تلاحظ في العالم وما يجري في بعض الدول من نبذها لنظام الحكم العلماني ورجوعها للكثير من التشريعات الإسلامية؛ فهذا يدل على عدم تلاؤم هذا النظام معنا لأنه لدينا ما يميزنا عن الأمم الأخرى. ما يدعو إليه هؤلاء هو ضرب من العبث، وفوق كل هذا كفر بواح**». تعجب بديع لكلام مصطفى؛ فبعد أن أعجبه ما قاله في منتصف كلامه حول علمانيي هاته البلاد المخبولين، أفسده بتكفيرهم مع أنهم لم يتجرؤوا حتى على التفكير في نصب العداء، بل اكتفوا بلعب ورقة فصل الدين عن الدولة. وبعد أن استدار إليه بعدما كان يتأمل في منظر جمال الهلالي وهو يخطب في الجماهير القليلة التي كانت تحيط به وهو يعدها بقرب رجوع الأمن للبلاد وأنه «**سيعاقب كل الذين أخلوا بنظام الحكم وأرهبوا الناس المساكين**»، قال معلقًا على كلام مصطفى:

«**هذا لا يجعل من أسامة ملحدًا، ولا من يطالب بفصل الدين عن الدولة ملحدًا يا مصطفى؛ لأنه مجرد كلام، لن يبلغوا هذه المرحلة أبدًا. ثم أنا لا أفهم لماذا تتحامل على أسامة على هذا الوجه يا مصطفى، مع أنكما كنتما صديقين، أعتقد أن اتباع فكر ما لا يحتم عليك معاداة أصدقائك حتى ولو خالفوك تمامًا حول ذلك الفكر**».

«أنا لم أنصب العداء أبدًا لأسامة، بل ما زلت أترحم عليه، لقد غُرر به، نعم أنتم لا تعلمون هذا، ولكن لديَّ مصادر موثوقة أن من غَرروا به يحومون في منطقتنا هذه وهم يريدون التغرير بآخرين، يستخدمونهم من أجل أغراضهم الخاصة وما يريدون بلوغه ثم يتركونهم لمصائر جد كارثية». استفسر بديع عن هؤلاء الذين غَرروا بشقيقه، ولكن مصطفى لم يُرِد الإفصاح واكتفى بالقول: «**لا تعلمون مع من تتعاملون وإلى ماذا تُودون بأنفسكم**». لم يُجبه بديع، ولكنه أراد تغيير الموضوع ثم سأله عن آله وأولاده، فأجاب مصطفى بمرارة غريبة عليه أظهرته في ذهن بديع في مظهر جديد زاد من غرابة التفكير في ذلك الشخص:

«الجميع بخير، ولكن لدينا بعض المشاكل، لا يوجد بيت يخلو من المشاكل على ما أظن. كل شيء فائت ولا يبقى سوى العمل وما قدمنا.

«وماذا تعمل الآن؟ قد قلت لي إنك توقفت عن العمل مع عمار بن محرمي».

«نعم، ولكني الآن دون عمل، لم أعُد أطيق العمل عند الآخرين، يظنون أنهم يسدون إليك خدمة بما يدفعونه إليك من أجر زهيد».

«ولكني كنت أظنكما على وفاق وهو يشاركك نفس العقيدة الفكرية وحتى التوجه الجهادي».

«أنا لم أذكر الجهاد أبدًا، وما يقال عني هو مجرد أكاذيب، الجهاد لديه شروط، أما عن عمار فلا تغرنك اللحية، المال يُظهر الناس على حقيقتهم، وهو بلاء، نعم هو البلاء؛ أن تُقبل عليك

الدنيا وتُقبل عليها أنت بدورك». وبدا كلامه غريبًا بالنسبة لبديع الذي لم يحكم على الآخر، بل ظن أنه عمل ونال ما يريد، وأن مصطفى كان ينظر إلى من هو أعلى منه، وهو ما سبَّب له هذه النزعة الثورية الساخطة والتي تريد للجميع أن يسقط وأن يخيب.

«**ولكن ما تريده أنت فعلًا يا مصطفى هو الانتقام، وهذا لا يجب أن يكون**».

«**ماذا تريدني إذًا أن أريد؟ هم ينعمون وأنا أُذل، لماذا لا يقسمون علينا ما أعطاه الله لنا من حقوق في هذه البلاد، ينهبونها هم ونحن نقعد نتفرج وننال الفتات، وحتى هذا قد لا يتاح لنا**».

«**ولكن الأجدر أن نبني وليس أن نهدم بالانتقام**».

«**لم يتركوا لنا أي مجال للبناء يا بديع، لم يتركوا لنا سوى هدم فسادهم لكي نستطيع أن نبني**». قال هذا بعزة نفس، لم يقُل بديع أي شيء بعدها وافترقا، وبينما هو يبتعد وصوت جمال الهلالي يتخافت، فكر في ما قاله له مصطفى، ورأى أنه كان يوافقه في الكثير من الأمور لولا نزعة العنف أو نزعة الانتقام لدى الآخر.

وهام على وجهه في شوارع البلدة لا يعرف أين يتجه على وجه التحديد، وكان ما إن يتوقف عن التفكير في الحوار الذي دار بينه وبين مصطفى ويفكر في أمر آخر حتى يجد نفسه قد رجع لحوار مصطفى، بأن يجد أمرًا مشتركًا بين ذلك الذي أراد أن يلهيه عن التفكير في مصطفى وبين ذلك الحوار، وقدر أن موافقته لبعض كلام مصطفى كان أمرًا محيرًا له. وخمن أنه لم يكُن إلا بسبب الظروف التي كانت تحيط بهما؛ كلاهما كان عاطلًا عن العمل –وهو الذي لم يشغل بال بديع كثيرًا–، وكلاهما كان مستقبله غير واضح، ولم يَبدُ

أنهما يشعران بأي رضا في هذه الحياة، وزد على ذلك سخطهما على الأوضاع الحالية، وهو ما دفع بديعًا لأن يتساءل عن سر سخطه هو. وبدت له حاله ضئيلة وقيمته أضأل، وأنه لم يُخلق للسعي الذي كان يرغب في مقصده؛ أي الغلبة وإحراز السؤدد والشرف في تلك البلدة وأينما حل كذلك. رأى أنه يضيع وقته؛ ذلك أنه لم يحرز حتى ما يمكن أن يُعد أوليات الحياة وعلى رأسها الاستقلال، كان قد جاوز الثلاثين، وإلى تلك اللحظة لم يبدأ حتى في التفكير في الزواج؛ ليس عن إعراض منه عن الزواج بل لعدم قدرته، ثم جرت هذه الفكرة أفكارًا أخرى عمَّا كان يضيع منه أو بالأحرى يمر عليه دون أن يكون له أي حظ منه: البيت، العمل المربح، الغنى، الشرف، وأخيرًا السؤدد، وكل هذه كانت تعرض على ذهنه وتزيد من سخطه ومن يأسه. وفي تلك اللحظة فكر أنه «**أسوأ الناس حالًا**»، **بعدت همته وتوفر من المعرفة الوفيرة ولكن ضاقت مقدرته، تأمل في هذه الفكرة وأصابه حزن مرير وكأنه ولج صحراء خاوية انعدم فيها كل أمل، ولكنه لم يُرِد أي أمل، كان يريد ذلك الأمل الوحيد الذي يعليه على الجميع ويتيح له ذلك السؤدد المنشود. ولما كان عقلانيًّا فإن جميع الاستنتاجات والاستنباطات كانت تشير إلى حتمية إخفاقه، ومنه حتمية حزنه ويأسه، ثم تساءل عن هذا التغير المفاجئ بعدما كان في أشهر ماضية يمني النفس بالنجاح ويراه قريبًا، وأن مثله هو الذي يمكن أن ينجح ذلك النجاح لصبره وتفانيه على تحقيق ما يريد، ثم أدرك أن جواب هذا التساؤل كان في تلك الأوضاع التي كان يعيشها، في ذلك الوضع المضطرب، في الفوضى التي تصنع ما لا يمكن أن يصنعه النظام، فتُعز الأذل وتُذل الأعز، ولكن**

هذه الفوضى لم تبدُ وكأنها تلقي له أي بال، مثل الحرب تُعز وتُذل ولكن يكون هذا للقلة بينما يلقى الباقون مجرد الفناء. تأمل في أفكاره تلك، ولكن تأمله ذلك رجع إليه حائرًا وحسيرًا، ولم يستطع المضي بأفكاره أبعد من ذلك، استبعدها ولكنه شعر باللذة في سوداويتها، وهو ما أفزعه. وحاول التفكير بأمر آخر يتلذذ به، فلم يجد شيئًا، وكان كلما وجد شيئًا تلذذ به فاستهلكه ينتهي به الأمر بالمرارة والألم. وحاول تطبيق هذه النظرة على حيوات الآخرين وإن كانت الحياة هي فعلًا مجرد أباطيل وكل شيء فيها باطل، «ماذا عن المثل العليا والمبادئ؟» تساءل بينه وبين نفسه ولكن انتهى بعقلانيته إلى بطلان ذلك، تأمل حاله وشعر بأن ما في داخله لا يقتصر على العقلانية فقط، بل هناك ما يتجاوزها، شيء أبعد من الزمن وأوسع من تلك العقلانية يشمل الحياة والتجارب فيها، هذا الشيء يشير في داخله إلى بطلان مثل تلك الأفكار السوداوية، وأنه يوجد مثل عليا ومبادئ ولكنه لم يهتد إليها؛ ذلك أن منارته الوحيدة كانت اللذة وما يمكن أن يؤدي إليه أَي تفكير من مجالات تتيح له التلذذ بالحياة؛ ذلك أن كل شيء كان وسيلة من أجل تطور الإنسان وتقدمه، ولكن إلى ماذا؟ لم يَدرِ، ولكن هذا أيضًا تناقض مع الشيء الأزلي في داخله، وحاول استبعاده وتجاهله بعد أن استعمله ليتوافق مع هذه الحياة ويجد لها معنى، فكان المعنى هو أن يستعمل كل شيء من أجل المنشود، والمنشود سيعرف أثناء البحث عنه، انتشى بهذه النتيجة وتتبع ما تؤدي إليه من متع تخيلية، وانتهى به الأمر من جديد إلى الشعور بالمرارة واليأس، وتذكر الأولين والعظماء وظهروا له في مخيلته، ثم شعر بالخزي وتمتم: **«ما أنا إلا حشرة تُسحق بأقدام أرذل الخلق، نسي لا يُدرَك، وحشرة لا يُلقَى لها أي بال»**.

وبعد أن تجاوز مركز الشرطة في الجهة الشرقية للبلدة ولج شارعًا، وفي آخره كانت كراسي في صفوف متقابلة أمام منزل وناس كثر يجلسون عليها، وبدوا منغمسين في محادثات وضحك، ولم يَبدُ أنه يجمعهم أي جمع واحد، بل كانوا متفرقين وإن كان بعضهم قريبًا من الآخر. ولما بلغ موضع ذلك الجمع أدرك أنه عرس للموسيقى والغناء الذي كان يسمعه من الداخل، وبينما هو يتأمل المنزل سمع أحدهم يناديه من بين تلك الكراسي، فأجال ببصره يبحث عن ذلك المنادي ووجده وهو يشير إليه في أقصى اليمين في الصف الأخير الذي كان بجانب الحائط، ولما قصد الرجل سلم عليه وسلم على آخرين كانا جالسين معه، أحدهما بجانب الرجل والآخر قبالتهما في كرسي أداره لكي يقابلهما. وجلس بديع على يسار الرجل، وبعد أن سأل كل منهما عن حال الآخر أخذ هذا الرجل في الكلام، والذي كان لا يزال شابًّا في سن بديع، وكان نحيفًا وأسمر، وبدت زاويتا شفتيه دائمًا مبللتين، وكان يخاطب تارة بديعًا وتارة أخرى الرجل الذي كان جالسًا قبالته:

«**هذا الهدوء لا ينبئ عن خير يا إخوتي، أنا أشتم رائحتها، هاته العاصفة التي ستضربنا، وكلٌّ يأخذ حذره، وكلٌّ يتذكر كلامي ولا يقُل إن عبد العزيز كان يخرف**».

«**دعك من هذا الكلام الفارغ يا عبد العزيز، شكلك وكلامك مضحكان، نحن في عرس والجميع هنا فرح، وأنت تفسد علينا الفرحة بمثل هذا الكلام الكئيب، ثم لنفترض أن الفوضى ستضرب وأن البلاد ستغرق في حرب أهلية أو شيء من هذا القبيل، نعم، نعم لا تقل ‹فال الله ولا فالك›، هذا محتمل لأني أجاري فكرتك،**

ماذا ستفعل حينها؟ هل ستتنبأ بعاصفة أقوى من تلك العاصفة؟»
سأل الرجل قبالة عبد العزيز، وكان أصغر منه سنًّا وبتسريحة شعر غريبة كان الشعر كله متكومًا في الأعلى، وكانت جوانب الرأس كلها محلوقة خالطتها رسوم أشبه بالنقوش:

«**أنت دائم السخرية من كل شيء يا عادل، لن تضر إلا نفسك بلسانك الثقيل، أنت أيضًا ثقيل ولا يمكن لأحد أن يطيق الجلوس معك**» رد عبد العزيز، ثم استدار إلى يمينه وخاطب الشاب الثالث: «**والله يا علي إن كل أمارات تلك العاصفة تبدو للعيان، الجيش والدرك في حركة دائمة، دوريات الشرط في كل مكان، والأدهى من هذا تلك الحلقات السرية التي نسمع بها، وعلى رأسها حلقة ذلك الدخيل الذي لا نعرف عنه ولا عن أصدقائه أي شيء -الرازي-، وقبل أن آتي إلى هنا ..**»، ثم استدار نحو بديع وأكمل كلامه: «**.. رأيت صديقتهم تلك -دائمة التجمل والتبرج وكأنها في ملهى ليلي أو في حفلة راقصة- في ملابس فاضحة وهي تحث الخطى مع شابين توزع معهما أوراقًا، لا أدري ما يسمونها، أي إنها تحرض على الشغب هي وجماعتها، وسمعتها تقول لكل من تصادفه: ‹يجب أن تطالبوا بحقوقكم، لن يتولى مسؤولية هذا أحد عنكم، وإن مضيتم في سباتكم ضعتم وأصبحتم ضحكة الأمم المحترمة›؛ إذًا نحن لسنا أمة محترمة، وهذه -أستغفر الله، لا أريد السب- هذه تريد لنا الفوضى بحجة الاقتداء بتلك الأمم الملعونة والتي تريد لنا الهلكة، ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، أجل**».

«**وما الذي يزعجك في توزيعها للمنشورات؟ أنت لا تعرف حتى ما معنى منشورات، كلٌّ حر يا عبد العزيز، ثم إنه بإمكانك توزيع المنشورات أيضًا، نحن نعيش في حرية الآن، وكل منا باستطاعته فعل ما بدا له، يعني لا أحد منهم يؤذيك**». رد عادل وهو ينظر إلى عبد العزيز الذي مضى يحدق فيه ثم قال:

«**أنت معهم، امرأتي طالق إن لم تكُن معهم، مثلك يفعلها، نعم، هذا لا يمكن أن يفاجئني على الإطلاق، ولكن ما يمكن أن يفاجئني هو اعتناقك لمبادئ وما إلى ذلك، هذا مستحيل**». ثم انخرط في ضحك مبتهج حمله على وضع يده اليمنى على وجهه ليغطيه، فاغتاظ عادل ورجع يقول:

«**مبادئ؟ وماذا تعرف أنت عن المبُادئ؟**»، لكن ضحك عبد العزيز زاد فانضم إليه بديع الذي لم يكُن يريد أن يضحك ولا ينتظر أن يضحك، وهو ما جعل ضحكه فاضحًا نوعًا ما، وكان علي قد فعل نفس الشيء، ولكن ضحكه كان لجمعه بين تعليق عبد العزيز ومعرفته ببلادة عادل الذي استأنف قائلًا: «**اسمع، نحن لسنا مثلكم نثرثر وما إلى ذلك، نحن مبادئنا جيوبنا وما يمكن إحرازه من كل فرصة، الخبزة، الخبزة هي ما يهمنا يا عبد الله، وماذا تعرف أنت عن الخبزة؟**». لم يصدق بديع أن الرجل كان يقول مثل ذلك الكلام، فأعطى نفسه حرية الضحك أكثر، وهو ما دفعه إلى أن يغطي وجهه بيده أيضًا، وبعد أن خمد بعض من الضحك، وكان عادل ينظر بجانبه وهو مغتاظ، استدار إليهم وقال:

«**أمثالكم لن يفهموا ما معنى أن تثور، هذه البلاد هي لمن يعرف كيف يحكمها جيدًا، ونحن باستطاعتنا أن نحكم، ماذا فعل لكم**

الأولون؟ لا شيء، أما نحن فسنفعل الكثير، هناك من خُلق ليكون طبيبًا وآخر ليكون مهندسًا وآخر تاجرًا وآخر بنَّاءً، ومثلنا لكي نحكم، هذا أمر واضح ولا يحتاج إلى تعقيد. ثم إن أغلب الشعب لا يحتاج إلا إلى بعض النعم وسيرضى، ما يهتم به الأكثرون هو كروشهم، ولكي أصدقك القول حتى أنا، لماذا الكذب؟ وكل من يقول غير هذا هو كاذب، نعم كاذب، ولا تقل لي: ‹تكلم عن نفسك يا عبد العزيز›، الإنسان هو من لحم ودم، والله قد خلقنا مادة، إذًا ما يهمنا والإصلاح الذي يجب أن نوجه عنايتنا إليه هو كل ما هو مادي، ولنتوقف عن الخوض في الأمور التي لا تنفع أحدًا في أي شيء، كتلك التي يدعونها الفكر والكتب والأدب؛ لأنها أمور ليست إلا لقوم لا يمكن القول عنهم سوى ‹إنهم متخيلون›. وتذكر كلامي جيدًا، الجميع سيحب نمط العيش الذي سنوفره، انظر فقط إلى الدول المتحضرة، لماذا ننظر إليهم بعيون متعطشة؟ هذا سهل؛ لأنهم يعيشون في ترف ورفاهية وكل شيء متوفر، وهنا أنا أتحدث عن أمور مادية، نعم لديهم الكتب وبعضهم يحب القراءة، ولكن أكثرهم ممن لا يهتم بهذا، وإن اهتم تجده يهتم بكتب تتحدث عمَّا أتحدث عنه أنا الآن، يعني أمورًا تتعلق بهذا العالم، بما هو مادي، أما غير هذا فلا يلقى أي اهتمام». تأمل بديع عادلًا جيدًا، وبدا له وكأنه كان قد حفظ كلامًا لما رأى فيه من فراغات يجب أن تسد ولم يدركها هذا الشاب، ثم تساءل لأول مرة عن صاحب العرس، أراد أن يسأل ولكن عبد العزيز بدأ في الكلام:

«هذا أغبى كلام سمعته في حياتي، أمثالك لا يمكن لهم حتى حكم أنفسهم، فما بالك ببلدان وشعوب؟ أنت تهذي يا عادل، وإن كنت فعلًا جديًّا في كلامك فإني أنصحك أن تذهب لتداوي نفسك، يجب أن تستشير طبيبًا يا عادل، هذا أمر خطير، من لقنك هذا الكلام يريد ضرك يا عادل، اسمع كلامي وأعرض عنهم». كان عبد العزيز قد مال إلى الأمام، أما عادل فكان متكئًا على ظهر الكرسي، ثم قال وقد كان واضحًا أن حاله تلك لم تكُن إلا تيهانًا من جانبه:

«انصح نفسك يا عبد العزيز، أنت دائمًا تظن نفسك أذكى من الجميع ولديك الحكمة، ولكن حكمتك ما هي إلا خوف، ومن يخاف لا يصنع أي شيء في حياته، بل يبقى خائبًا، ثم عندما يدرك هذا يبدأ في النواح ولوم نفسه ولوم الناس. ليس ذنبي إن لم يُعطِك الله المزايا التي أعطانيها، فالجميع يحبني، وإن أنا ترشحت في المستقبل فسأصبح نائبًا في مجلس الشورى لا محالة. أنت تضحك من جديد؟ دعني أخبرك بأمر ما؛ العاصفة ستضرب يا عبد العزيز، ولكن أمثالك لن يجنوا منها أي شيء، أمثالي هم الذين سيجنون منها، الناس تعمل وتصيب الغنى حتى في أوقات الثورة، وأنت جالس هنا تضحك عليهم، نعم أنت تضحك علينا، ولكن من يضحك كثيرًا يبكي أخيرًا. ثم انظر، ها هي نسرين، هي بألف رجل». وأشار بجانبه نحو الباب أين وقفت نسرين مع فتحي وشاب آخر، وكانوا يحملون أوراقًا ويوزعونها على جماعة من الرجال جالسة على كراسي في حلقة، وكان فتحي ونسرين يدوران عليهم، ونسرين هي التي تحاور بعض الرجال هناك. وناداها عادل بلهفة وبحماس، وانتبهت إليه ولوحت له بيدها ثم تحركت باتجاههم.

وكان قد انضم إلى المجلس أين كان بديع الكثير ممن أثار اهتمامهم الحوار الذي كان بين عبد العزيز وعادل، وكان من بينهم رجل لم يتوقف عن التحديق في بديع، ظن بديع أول الأمر أن شيئًا ما كان يحوز على اهتمامه كان وراءه أو بجانبه ولكنه لم يعثر على أي شيء، ومضى الرجل يحدق فيه ولم ينتبه لهذا إلا بديع. وانخرط الجميع في الحديث مع نسرين التي كلمت الجميع وكل واحد منهم، وبدوا جد جذلين، ولم يشترك في هذا الحوار بديع وعبد العزيز والرجل الذي كان يحدق في بديع، وكان عادل دائمًا ما ينبه نسرين إلى بعض الأمور حول ما يجب أن يدركه ويعيه الناس في البلدة، ووافقته وهي تقول: «**نعم، التعليم هو أمر مهم جدًّا، ومن يسيطر على التعليم يسيطر على كل شيء وحتى على مصائر الناس ومصير البلد أيضًا، وأفضل التعليم هو ذلك الذي يوجه الناس وخاصة الشباب إلى ما هو واقعي ومنتج بالنسبة لهم، أما ما خلا هذا فهو مجرد ألاعيب يلعبها من يريد السلطة. والنخبة هي التي يجب أن تحكم، النخبة التي لها رؤى اقتصادية واجتماعية وسياسية، وهي التي تعرف كيف تدير البلاد مثل السيد الرازي، وهو الوحيد في هذه الآونة الذي بإمكانه أن يقدم لهذا البلد، واسمه أصبح واردًا في الحكومات التي ستحكم في المستقبل، هذا إن وعى الشعب ما يجب عليه فعله ومن يجب عليه أن يحكمه**». وألهب هذا الكلام حماس قلة من الشباب في تلك الجماعة، أما بديع وعبد العزيز فكانا قد قاما، ولاحظ بديع أن فقط الشباب هم من جلسوا مع نسرين وعادل، أما الكبار فبقوا بعيدًا عنهم، ثم أخذ حتى أولئك الشباب في الابتعاد حتى بقيت الأقلية فقط. وأراد بديع أن يرحل، وهو ما فعله رغم إلحاح عبد

العزيز في البقاء من أجل العشاء، ولكنه طلب منه القدوم للغداء في اليوم الموالي، وبينما كان بديع يبتعد نظر خلفه للعرس، فوجد نفس الرجل لا يزال ينظر إليه، وكان واقفًا في تلك اللحظة بجانب الباب، لكن بديعًا استدار من جديد إلى الأمام وأكمل مشيه.

ولم يدُم الهدوء، وبعد أيام قلائل قامت الفوضى من جديد، ولم يعرف سببها ولا من سببها، ولكن تصادُف وجود تظاهرات في بعض المدن (ثم تحولها إلى فوضى، ومن ثم انتقال هذه الفوضى إلى مدن أخرى حتى عمت جميع البلاد) كان الصورة الوحيدة التي كان بالإمكان إدراكها أو محاولة إلصاقها بتلك الأحداث بغية تفسير تلك الوقائع التي استحوذت على الأفئدة وملأتها رعبًا. وكان الأمر أسوأ من ذي قبل؛ ذلك أن هذا كان واضحًا من النزعة نحو العنف التي سادت في البلاد فجأة، وبدا الجميع وكأنهم لم يعودوا يطيقون تلك الحالة من الإقتار وشظف العيش، ومضوا ولسان حالهم: ‹لا متعة ولا عيش حسن لأحد إن لم أنَل أنا أيًّا منه›، وكان أن عبر البعض عن هذا الخاطر بصراحة، ومضى الكثيرون يؤيدونه ويبررونه بأن اللعبة ليست عادلة، وأن ما هو متاح للآخرين «**ليس متاحًا لنا، ولماذا؟**» وكجواب لتلك الـ ‹لماذا› أخذوا العداء لكل من أبدى قبل هذا البذخ أو حتى القدر الضئيل من اليسر، ومنه كان الحال واضحًا أن أغلب الناس في البلد كانوا يعانون ضيق العيش والحياة الضنك. بيد أن الدولة الحاكمة تحركت بسرعة وأخذت تطارد كل من اشتبه في تحريكه للناس وحثهم على مثل تلك الأعمال التخريبية، والتي كانت في بعض الأحيان جد منظمة وممنهجة على وجه يبعث على العجب والحيرة. ومنها ما اعترف به بعض الشبان الذين لم يكونوا

ممن عُرف عنهم حياة الخلاعة قبل هذا من سكر ومجون ولم يُشهد لهم أعمال تخريبية، فروى أحدهم ما فعلوه ببناية كبيرة ضمت ستة طوابق شاهقة، والبناية كانت كبيرة وجد شاسعة من الداخل وكثيرة الغرف والردهات، وبعد أن سلبته الغوغاء ولم يتركوا أي شيء بما فيه الكراسي والأبواب دخلت هذه الجماعة وبدأت بدراسة البناية لمدة أسبوع، ثم جلبوا الآلات ومددًا من أصحابهم وشرعوا في العمل دون أن ينتبه إليهم أحد. وتفرقوا كل مجموعة في طابق، فكانوا بذلك سبع مجموعات بما في ذلك الطابق الأرضي، شرعوا بتدمير البناية وذلك بتهديم كل الغرف، وهو الذي أخذ الكثير من الوقت وحتى الأيام، فكان عليهم –حسب الراوي– أن يقسموا وقتهم إلى أوقات عمل وبعض أوقات الراحة والعمل بالمناوبة، عملوا على هذا النهج وهم الذين كان يُشهد لهم من طرف كل من عرفهم أنهم كانوا يمقتون العمل، ولم يُعرف عنهم أنهم عملوا لمدة منظمة من قبل. أما ما وجدوه ممَّا تركه إخوانهم الغوغاء وكان عائقًا لهم، فكان الأنابيب وخيوط الكهرباء وكذلك الصناديق المملوءة بالوثائق الإدارية؛ ذلك أن البناية كانت مركزًا جهويًّا للأرشيف، وكذلك المرجع في اقتفاء كل المعلومات الشخصية والإدارية التي تحتاجها باقي الإدارات. فكانت فرقة مكلفة بنزع الأنابيب وإتلافها، وأخرى للخيوط والنظام الكهربائي في البناية، وأخرى اهتمت بالوثائق؛ تبدأ بالمقص فتقص الورقة على وجه لا يترك أي أثر أو ما يدل على كتابة ثم تحرق، فكان الجميع منغمسًا في هذا العمل وكأنهم يتلقون أجرًا عليه. وفي النهاية أسقطت البناية وكان شكلها الأخير أن كانٍ لا شكل لها، فحتى الأسلحة الثقيلة –أرضية كانت أو جوية– لم تكُن لتصنع

نتيجة تدميرها مثل صنع أولئك الفتية. ولم يكتفوا بتلك البناية، بل مضوا إلى بنايات أخرى وصنعوا نفس الصنيع، وهو ما جعل الجميع يتعجب ويشعر بالهلع من توفر مثل هذه النزعة لدى البعض. ولدى سؤال هذا الشاب –من طرف الشرطة وحتى المساجين في السجن– عن السر الذي دفعهم لعمل مثل ذلك العمل، كان يجيب في كل مرة: «**لا أدري، ربما هذا حقي، لا شيء أفضل من فعل هذا، بدا عملًا جميلًا بكل ما احتوى عليه من تنظيم وصبر ودقة كذلك، بدا لنا واجبًا أن نفعل ذلك، وكأننا أقمنا توازنًا بأن أظهرنا جانبًا من قوتنا. لكم نعتونا بالكسل وبأننا لا نساهم في بناء البلد! ولكن ما كان يُبنى كان يُسرق من طرفهم، أي ذلك البناء لم يكُن إلا من أجل ترفهم وتعاستنا. اليوم عملنا وانتقمنا، فكان هذا حقنا وواجبنا**». كان الراوي –واسمه عبد الجواد– متعلمًا، والبعض ممن أداروا تلك العمليات التخريبية كانوا متعلمين وأذكياء جدًّا كما كان الباقون أهل مجون، ولم يكونوا من الثوار ولا ممن يتحزب رغم محاولات الرازي –الذي لم ينجح– والإسلاميين الديمقراطيين في اجتلابهم إليهم، ولكن بعد أن مضى بعض الوقت وهم مزدهون بما فعلوه، بدا أن شيئًا وحيدًا فقط كان قادرًا على احتوائهم وتنظيمهم وبعث روح الواجب الحقيقية فيهم، كان ذلك مصلى السجن؛ أي المسجد. هناك كانت الأرواح والنفوس تنظم من جديد، وفيه تجد القلوب الطمأنينة والأمن وكذلك القوة على الحياة، وهناك كانت تسير الدولة بالروح التي كانت تخرج منها، وعلى مر التاريخ كان الخروج عن المسجد يدفع إلى الضعف، وحتى الدول التي كانت تفعل ذلك كان سبب سقوطها هو المسجد، ولما كانت تحاول

السيطرة عليه دال الجميع بدولة المسجد والإيمان، وكل هذا كان حاصل تفكير ذلك الشاب عبد الجواد وأصدقائه وهم يحللون بعد أن يقصوا ما جرى لهُم بعد أن صنعوا الذي صنعوه.

أما بديع فلم يكُن يشعر بالراحة إلا عندما يسمع ويتكلم عن كل تلك الفوضى ثم يبدأ بتحليل الوقائع وما جرى ويتنبأ ويعطي الوعود دون أن يعرف ماذا تعني وما الذي كان يفعله هو. كان كل ما هو خارج تلك الفوضى يُذكره بإخفاقه وتعاسته، أما تلك الفوضى فكانت تبعث الأمل داخله وتنشطه وتعده للحركة دون أن يعرف كنه تلك الحركة أو مآلها. شعر أن بإمكانه التغيير، وأنه مع من شاكله في التفكير بإمكانهم صنع الكثير وحتى تغيير مجرى سير العالم، ولكنه لم يَدرِ كيف. ثم تذكر أولئك الذين شاكلوه في التفكير فلم يتبادر إلى ذهنه سوى رضا وعادل والرازي ونسرين، فكان التفكير باقتران حاله بحالهم وطريقة تفكيره بطريقة تفكيرهم يجلب له الشعور بالعار، ويود لو تزلزل الأرض من تحته وتبتلعه. ورغم هذا لم يكُن يود التوقف عن التفكير في أنه مختلف، وأن طريقة تفكيره مختلفة –وإن تطابقت مع طريقة تفكير شخص بهيم حسبه وغوغائي مثل الرازي– وأنه سيبلغ لا محالة ما يطمح إليه، ولم تفعل تلك الفوضى التي عمت البلد سوى بعث روح في ذلك الطموح وجعله حقيقة لم يبقَ لها سوى التحقق في الواقع. وحدث أن أقاموا تغييرات في الحكام والأعضاء في جميع الولايات والبلديات ومن ضمنها المأرب، وأزيح جمال الهلالي الذي توارى بعد هذا عن الأنظار، وحل محله رءوف بن جامع، وقصد رءوف بن جامع بديعًا وطلب منه أن ينضم إلى فريق عمله لخبرته في قيادة لجنة حكومية سالفة.

وافق بديع وقد شعر أن حياته قد تغيرت ولم يُرِد أن يفوت الفرصة، رأى أن هذا سيمهد له الطريق لما هو أفضل وما كان خليقًا به أن يناله، ولم تكَد تمر أيام حتى كان في بناية البلدية وقد أصبح نائب الأمين العام، ولولا شغور منصب حاكم البلدية لكان هذا المنصب مجرد لقب ووظيفة حكومية لا غير، إلا أن الأوضاع التي أحاطت بالبلاد نسبت لمنصبه وله أهمية كبيرة. وكذلك فعل هو بأن نسب لنفسه أهمية ورأى أنه يجب عليه أن يمضي أبعد من ذلك، لم يَدرِ إلى أين ولكن كان واثقًا من قرب اتضاح هذا الـ ‹أبعد› وبيانه له.

أما في البلدة وباقي مناطق البلاد، فإن الفوضى كانت سرعان ما تهدأ –ولكن دون أن تخمد– على عكس ما يحدث في بلدان أخرى، وهو الأمر الذي حير مَن أراد الفوضى وأراد بها أن يستعلي، وبطريقة ما كان أغلب سكان المأرب الفقراء يجدون قوتهم من العمل الذي كان يدر نفعًا في بعض الأحيان ويشح في أحيان أخرى وكانت الأكثر. لم يفهم أحد سر استمرار وجودهم، رغم أن كل الاستنتاجات المنطقية كانت تشير إلى قرب هلاكهم، بيد أن الذي دفعهم إلى هذا التفكير لم يكُن سوى خيالهم وما أرادوه؛ رغباتهم كبرت وكادت أن تجلب لهم الذل والمهانة، وألقتهم في فوضى عارمة. وفي جمع اجتمع عند قهوة السايس كان سكان البلدة يتكلمون عن رغباتهم، ومن ضمن ذلك الجمع كان زين العابدين يتحدث عن خطر رغبات الدهماء، وأنها هي التي جلبت لهم تلك المصائب، ثم أضاف والجميع يستمع إليه: «**ولكن مع هذا، هذه سنة كونية؛ يبدو أن التغيير في بعض الأحيان لا يأتي إلا بالفوضى، ولكنه يكون تغييرًا فارغًا. أفضل تغيير هو ذلك الذي يأتي بالحكمة وفكرة تشد الجميع**». لم يفهم

أحد عنه كلامه، وبعد أن ساد صمت لدقائق قليلة دخل مسعود بن نوح، فانتبه له الجميع ولكن لم يُعِره أحد أي انتباه وكأنه لم يكُن أي شيء، وأن وجوده الضئيل لم يكُن ليغير أي شيء ممَّا يريدون أن يغيروه في مصائرهم. لكن زين العابدين قام له، فكان الوحيد الذي أبدى له احترامًا وتقديرًا، ووقفا معًا وكان أغلب الجمع واقفًا لزين العابدين، فلاحظوا هذا ومضوا يتأملون مسعودًا ثم زين العابدين اللذين ما لبثا طويلًا حتى رحلا من المقهى رغم اعتراضات الجميع على زين العابدين ومحاولاتهم لاستبقائه معهم. تمشيا معًا، وأدرك زين العابدين من نبرة كلام مسعود أنه كان حزينًا رغم ما كان يُبديه من اتزان وهدوء، لم يحاول الاستفسار عن ذلك لكنه لم يستطع منع نفسه من السؤال عن ورقة كان يحملها مسعود، فأجاب الأخير: «**إنها رسالة**»، ولم يزِد على ذلك وانغمس في صمت عميق، ولم يقُل زين العابدين أي كلمة. وعند منعطف شارع في حي التميميين افترقا، ومضى مسعود يحث الخطى ولم يَبدُ وكأنه يهتم لا بالفوضى ولا بالهلاك المادي ولا بالإصلاح السياسي، مضى بخطى ثابتة وبدا أنه على يقين بما يفعله وما يفكر فيه، فأعجب هذا زين العابدين، وأعجبه أكثر مضي مسعود ثابت الجنان.

10

’أدرك أنكم تريدون معرفة أين أنا الآن، ولكن هذا أمر لا يمكنني إخباركم به، على الأقل في الوقت الحالي. قد مر زمن طويل منذ غادرت البلاد، هو يبدو لي طويلًا رغم أنه مجرد عام ونصف، ولكنني رأيت وجربت الكثير خلال هذه المدة. ولأصدقكم القول؛ كانت هناك أوقات نسيت فيها كل شيء عن المأرب أو عن أهلها، ليس ذلك لأنني جاحد للجميل وممَّن يديرون ظهورهم لأهاليهم، بل كل ما في الأمر هو أنني أردت أن أجرب الحياة مثلما أردت دائمًا أن أفعل. في بلاد الشمال أين أنا –مثل ما يحلو لبديع تسميتها– وجدت ما أصبو إليه، أي الوسائل التي كنت أظن أنها ضرورية لراحتي، وجدت الراحة لكن لم أجد الطمأنينة، نعم أنا أعترف بهذا، الجميع هنا ممن هم من بلادنا يشاطرونني الرأي، ولكن يوجد هنا ما لا يوجد عندكم في الوطن؛ يوجد ما يتيح الهرب من آلام الحياة، وهو الأمر الذي لم أجده في المأرب. وفي بعض الأحيان أظن أن ما وجدته هنا من وسائل راحة قد أمات كل روح متمسكة بالعالم، أصبحت أريد الحياة ولكن فقط من أجل الهرب منها، وفي بعض الأحيان أفكر في ما إذا كنت لأتغير لو بقيت في المأرب لأني

مدرك أني بوجودي هنا لن أتغير، إن هذه الراحة المادية تعطي وهم الحركة من خلال الإنتاج والاستهلاك المستمرين دون انقطاع؛ ومنه فإنه لا يوجد أي شيء خارج هذه الازدواجية في العيش المادي، الكثيرون هنا لا يهتمون بذلك لأنه لم يُتح لهم التفكير في احتمالية وجود ما هو خارج تلك الازدواجية، أما أنا فقد أتيح لي من خلال نائبات الليالي، ولكني لست بالشخص القوي ولذلك أنا هنا، لم أستطع العيش على ذلك المنوال؛ بأن تُنزل عليَّ الحياة كل يوم مصابًا يُنسيني مصاب الأمس، إن نفسيتي جد مرهفة وقد غدت أكثر هشاشة، أعترف بهذا أيضًا ولا أريد أن أخفي أي شيء هنا، أريد أن أظهر على حقيقتي، أنا أعرف أن هذا أمر جديد بالنسبة لكم، ولكن هذا التحليل الذاتي والاعتراف يبقى لأمثالي الملاذ الوحيد، وقد يبدو مصدر تنغيص وتألم، أجل، وماذا يمكن لشخص مثلي أن يفعله غير التلفع برداء الألم؟ وهل الاعتراف إلا العبث بالجرح حتى يدمى من جديد؟ إنه يعجب أمثالي مثل تلك المناظر، أعني الجراح ورؤيتها تدمى من جديد، لعل الإيلام بالنسبة لنا هو مصدر خوف كبير ولذلك نرتاع منه؛ ذلك أننا لا نعرف ما الذي يمكن أن نفعله إن نحن شفينا، على الأقل ظاهريًّا، لن نعرف كيفية التصرف ولا كيفية المضي في الحياة؛ ولذلك لا يتبقى لنا سوى الانغماس في اللذات حتى لو كانت آلامًا.

لقد تزوجت، لم أكن أريد هذا في بادئ الأمر ولكن انتهى بي الأمر بأن تزوجت، كان هذا منذ عشرة أشهر، بعد أن دخلت في حالة نفسية جد مريعة لم أشعر فيها بأي شيء وافتقدت القدرة على التكيف مع الحياة، هل هي الطبيعة في الشمال التي جعلتني هكذا؟ لا أدري،

ولكن ما أعرفه هو أن الناس هنا أيضًا -أعني أهل الشمال- يشعرون بنفس ما أشعر به، لا ريب أن هناك تفسيرًا علميًّا لهاته الظاهرة؛ أعني كيف لجموع من الناس سكنت هنا لآلاف السنين وأخرى أتت من بلدان مختلفة من المعمورة أن يجمعها مثل هذا الشعور بالوحدة وعدم التأقلم وعدم التوافق ليس مع الوسط الاجتماعي والعمراني فقط بل مع العالم ككل؟ لا أدري إن كان زواجي ناجحًا أم لا، لا أريد الحديث عن زوجتي، كل ما يمكن أن أقوله هو أن هذا الزواج لم يكُن سوى محاولة مني لتجربة أمر أو الغوص في مفهوم ما أو حتى إثبات وجهة نظر لي معينة، ما هي؟ ربما تفاهة كل شيء في العالم وأنه لا يوجد أي شيء يمكن أن يحوي الإنسان على الوجه الذي يريده ذلك الإنسان. كما أنني لا أريد إنجاب الأطفال، هذا أمر ليس لي لأني لم أُخلق له، لا يمكنني أن أتخيل نفسي متسببًا في وجود كائنات لن تلقى سوى الألم والعذاب في كل درك من هذه الحياة.
وعندما أتذكر ابتهاجكم -ذلك أنني كنت الوحيد غير القادر على الابتهاج بينكم وإن سرت إليَّ هذه العدوى في الكثير من الأحيان- ينتابني شعور بالحزن عليكم، ولا أدري لماذا. لعله إشفاق عليكم لجهلكم بما تنطوي عليه الحياة فعلًا، لديكم الكثير من الآمال حتى رغم كل تلك المصائب التي أصابتكم، أنا لم أستطع الصبر، لا لم أستطع؛ لذلك رحلت، ومن أجل هذا فإني صراحةً لا أسأل عمَّا يجري معكم، أسأل فقط إن كنتم بخير أم لا، ولا أستطيع التوقف عن التفكير في أن مصائب أخر قد نزلت عليكم، على الأقل أعرف واحدة، وهي ما يصيب البلاد من فوضى، الآن أصبحت أؤمن بأني فعلت خيرًا عندما هاجرت، أنا من طينة مختلفة، أنا يمكنني الإنتاج

ولكن لا يمكنني التأقلم مع كل أبعاد الحياة، لا، ذلك ما لا يمكنني فعله، كل ما أستطيع فعله هو العيش في هدوء والعمل في هدوء وانتظار الموت والعدم. عندئذ فقط سأشعر بالراحة، أما الآن فإن الأمثلة الوحيدة التي يمكنني الاقتداء بها والإعجاب بها هي أمثلة أولئك الناس الذين ينسبون للعالم جوهرًا واحدًا -مبنيًّا على علاقة الإنسان بالعالم- وهو الألم، وكل ما يتضمن هذا المنظور من الحكم على كل شيء من هذه القاعدة ولكن دون القدرة على نبذ الرغبات والإعراض عنها؛ ذلك أن الإنسان الصناعي لا يمكنه الإعراض عنها لأنه أداة ولا يمكن له الشعور بأناه إلا من خلال الرغبة، فيصبح حتى حلم التشاؤم بعيدًا. مثل هؤلاء الناس الذين أدركوا عدم قدرتهم على التشاؤم، ولكنهم يمضون في الحياة ليتألموا بصمت وينعموا بألم حتى يبتلعهم الألم و..». لم يستطع مسعود استكمال قراءة الرسالة التي كانت في يده من ولده زيد، ضاق صدره وشعر بحزن عميق، كل تلك الأفكار والكلمات التي أظهرتها كانت أكثر ممَّا كان يطيق، ولم يصدق أنه يوجد من يفكر على ذلك الوجه، وأن ممن يفكر هكذا هو ابنه، فبدا له مصابًا آخر، وعاد إليه بعض من حزنه بعد أن كان يفكر أنه قد بلغ مرحلة من القدرة على احتمال المصائب تساعده على المضي في الحياة بتجلد وبسالة، ولكن الواقع أظهر عكس هذا، وها هو يشعر بخوار قواه، فوضع الرسالة على طاولة أمامه ووضع وجهه بين يديه وبدأ في التفكير. قدر أنه لا يجب أن يُطلع أحدًا على هاته الرسالة، ربما فقط بديعًا وموسى، ولكن أين هما؟ الأول أصبح مشغولًا بالبلدية وبدا غير مهتم بأي شيء آخر وكأن حياته يمكن أن تتوقف على مصيره في تلك البلدية، والثاني رحل مع منال إلى بلدة

مجاورة للعيش فيها إيثارًا لراحة البال، ودرأ أي مشاكل يمكن أن يسببها الماضي والناس.

أيقن مسعود أن ضيق صدره لن يفارقه ما دام في تلك الغرفة، فخرج من هناك ثم غادر المنزل، ولكنه لم يبتعد كثيرًا حتى رجع واتجه نحو الفناء الخلفي وجلس في الظلمة. واستحوذت عليه أفكاره من جديد، نظر إلى السماء أمامه وكانت سوداء وإن ملأتها النجوم وبدت جد بعيدة، بعدت هي واقتربت منه أفكاره والتي كان جلها حول صنيع زيد بنفسه. لم يستطع استيعاب سبب عدم قدرة ابنه على الإعراض عن مثل تلك الأفكار، كانت كلماته تحوي بافتخار –رغم سوداويتها– مقاومة على ما رآه هو جبروت هذا العالم واضطهاده له، ولكن ماذا فعل هو لكي يحس هكذا؟ كما أنه يقول إنه يعيش عيشة طيبة في بلاد الشمال، فلماذا إذًا كل هذه الأفكار المقيتة؟ هو من أولئك الذين كان يراهم كل يوم في تلك الفوضى وهم يهرعون من أجل سلب البنايات العامة، وحتى سلب الآخرين، ولكن حتى هؤلاء لم يظهروا بالنسبة له كمن تملكهم فقر مدقع أو لم يجدوا ما يأكلون، ‹من يتملكه الجوع القاتل يستسلم، وكذلك يستسلم للموت› فكر بصوت سمعه فؤاده فقط، ثم قدر أنهم لو كانوا تحت نير العبودية لما ثاروا، وتعجب من هذه الحالة، وكيف لهؤلاء الذين تجاوزوا مرحلة الفقر العملي (أي الفقر المختلف عن الفقر النسبي الذي يختلف بكثرة الترف واتساع الهوة بين من توفرت لهم القدرة على الزيادة وبين من كانت زيادتهم جد ضئيلة) أن يفعلوا مثل هذه الأشياء، وكيف لهم أن يزدروا الفقر إن كانوا هم أنفسهم لا يساعدون ولا يعرفون معنى الفقر حقًا؟ وانتهى بأن ظن بأن الثورات

مصدرها الفقر المترف وليس الجوع أو الإقتار، ومثل هذا لا يمكن أن يغير. ثم قارن هذه الحال بحال من كان مقترًا متعففًا، ولكنه عاش بمثل أعلى قوي استطاع به إخضاع حتى الدول المترفة التي نصبت له العداء، وتذكر بهذا الصحابة المَرْضيين. بيد أنه توقف عن التفكير في كل هذه الأمور بعد أن لفت انتباهه أضواء من الجنوب الغربي وكانت تتحرك، ثم أجال ببصره على طول الأفق أمامه، وفي الجهة المقابلة -أي الجنوب الشرقي- كانت هناك أضواء وكانت تتحرك أيضًا، وأدرك أن هذه الأخيرة كانت تتحرك باتجاه الأولى، فأثار هذا انتباهه ولا سيما أن كل تلك الأضواء أبانت عن جمع غفير من كلا الفريقين، وتوجس من ذلك خيفة وخمن أن الأمر لن يكون مآله حسنًا في ذلك الليل. ومضى يراقب الأضواء، وكان قد قام من مكانه ومشى نحو الأمام حتى خرج من سياج الشجيرات الذي كان يفصل ممتلكاته عن الخارج، وبينما هو مستغرق في تأمل ذلك المنظر ومترقب لما سيعقبه إذ مر عليه رجل لم يتعرف عليه وكان يجري باتجاه الأضواء يريد أن يمضي مباشرة في ما يمكن تقديره مكان التقائها. لم يقل أي شيء، ولم يَبدُ عليه وكأنه قد انتبه لوقوف مسعود هناك، ثم آخر فاثنين بعده، وكان أحد الاثنين ينظر حواليه، وهو ما جعله ينتبه لمسعود فحياه، وبعد أن كان مسرعًا باتجاه الأضواء اقترب من مسعود ثم انضم إليهما رفيقه. سلما عليه ونادياه: «**عمي مسعود**»، فعلم أنهما شابان ولكنه لم يتعرف عليهما، ومضى أحدهما يستفسر عن الأمر، ولكن بدا أنه يريد الاستزادة من المعلومات على عكس مسعود الذي كان يجهل ما كان يحدث كليًّا:

«إذا لم تسمع، فأولاد حجي وأولاد ابن طاهر يتشاجرون من أجل نفس القصة القديمة، وهي نزاعهم حول أرض في حدود بين أراضيهم. ويبدو أن أولاد ابن طاهر هم الذين أثاروا هذا الخلاف من جديد؛ لأنهم يرون أن القضاء ظلمهم وأن كل الأحكام التي صدرت في الفترة الأخيرة هي أحكام جائرة ولا يمكن الحكم بها؛ لأن الحكم -حسب ما يقولون- صدر شهرًا قبل الثورة؛ ولذلك أولم أولاد حجي، والآن أولاد ابن طاهر لا يرضون بهذا، وأرادوا اقتحام الأرض وضرب سياج بينهم وبين أولاد حجي. اجتمعت جماعة للصلح بينهم في أكثر من مرة، والأخيرة كانت البارحة، ويبدو أن الأمر ساء؛ لأنه يبدو أنهم على وشك عراك كبير».

«قلت صدر الحكم شهرًا قبل الفوضى؟ أنا أيضًا لديَّ قضية في المحكمة، ولكن الأمر عائلي، وهو حول أرض أيضًا».

«أي فوضى يا عمي مسعود؟ هذه ثورة، الجميع يسميها ثورة لأنها ثورة فعلًا، أسقطنا الدولة السابقة وهذا يجعل منا ثوارًا». تدخل الشاب الثاني وكان شابكًا ذراعيه عند صدره وبدا محدقًا في مسعود:

«أعتقد أن عمي مسعودًا محق في هذه التسمية، أنا أيضًا أرى أنها فوضى لأنها ليست منظمة، ولو كانت منظمة لما سميت ثورة، بل كان نظام آخر عادل قد بدأ في الحكم، الثورة هي فقط تلطيف وإضفاء أهمية على كلمة الفوضى إذا كانت مرتكَبة من طرف الجميع؛ وبذلك فإن الجميع يريد أن يكون الأمر إيجابيًّا مع أنه سلبي».

«هذا تعريف تافه للثورة، الثورة هي الثورة، والجميع في العالم يسمونها ثورة، ولا داعي للتفلسف».

«لأن كل ثوراتهم كانت فوضى أيضًا، ليسوا مرجعًا يمكن الأخذ به».

«أنت دائمًا هكذا يا عبد الكريم. فقط أن لديك شهادة لا يعني أنك تفهم في كل شيء».

«أعتقد أن الجمع يقترب من هنا، كلا الجمعين» صاح مسعود واضعًا حدًّا للمناقشة بين الشابين اللذين نظرا خلفهما وأخذا في التحديق أيضًا. ولم يُرِد مسعود البقاء في ذلك المكان، فأخذ يمشي باتجاه الجمعين اللذَين لم يكونا قد اجتمعا بعد، وكل منهما كان يمشي منفصلًا عن الآخر باتجاه أرض مسعود. وكان تدفق الناس مارين به لا يزال مستمرًّا. وبعد أن مشى مسافة معينة شعر فيها أنه قد مشى قدرًا كافيًا أرهقه، ألفى جماعة من أولئك الذين كانوا يمرون عليه قد تجمعوا وكانوا مترددين، ولما بلغ مكان تجمعهم عرف سبب ترددهم؛ كان جمعا أولاد حجي وأولاد طاهر قد توقفا بعيدًا عنهم في الأمام، ولم يعرف أحد ما الذي كانوا يخوضون فيه. وكان واضحًا أن كل واحد من جمع المتفرجين كان يخشى أن يقوم شجار كبير بين المتخاصمين –خصوصًا وأنه كان واضحًا أنهم يحملون سكاكين وعصيًّا وحتى سيوفًا وبعضهم بنادق–؛ ولذلك كانوا مستعدين للجري والهروب في أية لحظة يبدأ فيها القتال. أما نية مسعود في القدوم هناك فلم تكُن إلا من أجل السؤال عمَّا كان يحدث وليس للتفرج، ولمَّا لم يعرف أي شيءٍ لجهل أولئك المتفرجين لمَا كان يحدث قرر العودة، ولكنه لم يكَد أن يستدير حتى بدأ بسماع أشخاص وهم يتكلمون بصوت مرتفع، وكان واضحًا أن المتخاصمين كانوا يتحدثون في أمر ما، فعاد إلى مكانه وأصاخ

السمع. لم يفهم ما كانوا يقولونه، وكان هناك أخذ ورد في الكلام، ولكنه سمع «**أنتم الذين أردتم..**»، «**لن يمر هذا هكذا وسوف نستعيد حقنا..**». ثم سمع صوتًا ينطق باسمه، وهو الذي فاجأه، ومضى بعض مَن كان واقفًا في ذلك المكان القفر يهمسون: «**سوف يذهبون إلى مسعود بن نوح**»، وآخر: «**ماذا سيفعلون عنده؟ لا أظن أنهم يتكلمون عنه**»، «**ولكن ألم تسمع؟ عله بسبب الأرض التي بينهم وبينه**». وساور مسعودًا الشك في أن يُدخلوه في مشكلتهم، ولكنه استبعد الفكرة وحاول ألا ينساق لمثل ذلك التفكير المخوف. ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتوجس من الأمر خيفة، فقرر الرحيل عن ذلك المكان وهو ما فعله، ولما بلغ حمى أرضه وقف عند سياج الشجيرات وشعر بالهدوء رغم لمعان العصي المتقدة بالنار من بعيد. ولم يمر زمن طويل حتى سمع أصواتًا تقترب، وظن أن أصحابها سيعبرون أرضه باتجاه البلدة، ولكن الأصوات كانت تقترب أكثر باتجاهه؛ فخمن أن أصحابها يريدون القدوم إليه. وهو ما حصل، واستقبل جماعة من ثمانية رجال، انتبه إليه واحد فقط وكان أصغرهم، سأل عن هويته فأخبره مسعود عن نفسه، وهو ما حدا بالآخرين للتوقف والاتجاه نحو مسعود، وأعلموه أنهم جاؤوا من أجله. رافقهم إلى منزله، وهناك أدخلهم إلى غرفة الجلوس، وهناك أيضًا أدرك طبيعة تلك الجماعة؛ ذلك أنهم لم يجلسوا معًا، بل جلسوا منفصلين؛ أربعة في جهة، واثنان جلسا على كرسيين، واثنان على كنبة. وكانوا جميعهم متجهمين. تعرف مسعود على بعضهم، والبعض الآخر كان مألوفًا له وإن لم يستطع تحديد هويته أو يجد له في ذاكرته أيًّا ممَّا يمكن نسبه إليه من آل أو عمل. وجلس

مسعود بينهم، وتكلم رجل على يمينه كان كبير جماعته سنًّا وجسمًا، وكان شاربه الكبير أكثر ما يلفت النظر في وجهه: «**جئناك يا السي مسعود لا لنثقل عليك، ولكن عملنا جماعات كثيرة وجلسنا مع ناس كثر من أعيان البلدة والمنطقة، ولكن لم ينفعنا أحد منهم. ولكي نصدقك القول؛ لمسنا فيهم جرأة ووقاحة وتملقًا وحتى كذبًا، ولم نعد نثق فيهم، بمن فيهم رابح عطية ورجب وجمال الهلالي وعبد السميع الصافي وأمثالهم، كلهم كالوا بمكيالين واكتشفنا أنهم يلقوننا بوجه وكلام حلو ومحترم ويقذفون خصومنا بأشنع الكلام، ثم يذهبون إليهم ويفعلون نفس الشيء. ولكي لا أطيل؛ فالأمر كما تعلمه أنت قد بلغ مبلغًا عظيمًا، والآن كنا على وشك القتال لولا أن تدخل بعض العقلاء من هنا ومن هناك وأقنعوا الجميع ليس بالرحيل والرجوع إلى منازلهم -لأنهم أبوا هذا وكانوا سيضربون كل من يشير عليهم بهذا- ولكنهم أعطونا مهلة لا أدري كم زمنها لكي نخرج بحل يُرضي الفريقين. لم نعرف ماذا نفعل حتى أشرت إليهم أنا بأن نقصدك لكي تساعدنا**».

«**اسمع يا أخي إسماعيل، أنا لديَّ معلومات ضئيلة عن مشكلتكم، ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن تعودوا إلى الحدود التي تعارف عليها أجدادكم. هذا سهل وسيحل كل شيء**».

«**ربي يهديك يا السي مسعود**» تكلم شخص على يساره، وكان كهلًا وعلى رأسه عمامة أو مجرد قطعة قماش بيضاء شدها على رأسه يقصد بها أن تكون عمامة: «**لقد فكرنا في هذا، ولكن هناك منا من يقول إن جدنا اشتراها من جدهم، وآخرون يقولون إن الحدود كانت هكذا دومًا وإنهم هم الذين غزوها، والمحكمة قضت بناءً على قولهم الذي هو زور، ولكن ما نريده الآن هو التهدئة فقط**».

«**فهمت. نعم، الجميع يجب أن يهدأ، هذا فعلًا الشر وقد دخل بيوتكم، كما أنكم بنو عمومة ولا يجب أن يحدث هذا، خصوصًا في هذه الأوقات الجالبة للشؤم**» رد مسعود، ولكن وجوه محدثيه ملأتها تعبيرات الحيرة والارتباك ممزوجة بإصرار على عدم التفريط في ما رآه كل منهم حقه وأنه إن افلت من يده فكان فواته دائمًا وكان الخاسر دائمًا. وتكلم إسماعيل مرة أخرى، فاستدار إليه مسعود بوجهه واستمع:

«**هذه الأراضي يا أخي مسعود محل نزاع ليس بين شخصين والباقي هم هنا من أجل الحمية ومساعدة الآخر، لا، بل إن هذا النزاع هو على أراضٍ عديدة ويجمع متخاصمين كثرًا؛ على كل أرض عائلتان أو أكثرٍ إن كان الجد حيًّا، واشتمل هذا على الأبناء والبنات والأنساب والأحفاد. لذلك ترى أن الأمر قد ساء، وكل فريق قد اجتمعت كلمته على نيل كل حقوقه. ومثلما قلت، فإنه ليس الوقت الجيد للانخراط في مثل هذه الخصومات، ولكن ما يحدث يا السي مسعود أعتقد أنه أكبر من هذه الخصومات؛ لأن كل فرد منا يحس أن حقوقه مهضومة في هذه البلاد وقد جاءته الفرصة ليس فقط من أجل استرجاع حقوقه، بل البعض يذهب إلى أن حقوقًا أخرى قد ظهرت كانت مهضومة، وبذلك أصبحت فوضى مثلما قلت، فوضى بمعنى الكلمة**».

«**إذًا يا إسماعيل ما يمكن فعله هو حماية النفس وحماية الأبرياء؛ ذلك أنني أصبحت أخاف من هذه الحال، وليس ببعيد أن تنفجر فوضى أكبر من تلك التي حدثت منذ أيام**».

تكلموا بعدها لزمن طويل، لاحظ فيه مسعود أن أولئك الرجال كانوا من عقلاء الفريقين، وأنه لم يكُن بمقدورهم فعل أي شيء، وكانوا قد استسلموا لفكرتهم بأنه حتى هم كانوا في خطر تمامًا مثلما كان الجميع في خطر، حتى أولئك الذين يُفسدون، وبينما هم في حديثهم إذ سمع صياح جماعات فارتاعوا وقاموا من أماكنهم وخرجوا يتبعون مسعودًا راكضين بسرعة حتى عبروا سياج الشجيرات، وأخذوا يجرون وينظرون أمامهم إلى المنظر الذي اتحدت فيه الأنوار كعلامة على حدوث الفوضى. وتعجب مسعود من ذلك المنظر، وفكر في أن وحدة النور بالنسبة لأولئك الناس كانت فوضى، فالنور كان اعتقاد كل شخص منهم ومحاولة فرضه، وإن التحم بأنوار أخرى يحدث ما لم يكُن يحمد عقباه. وبعد أن جروا لمسافة صغيرة كان المتفرجون يجرون نحوهم؛ لأن جمع المتعاركين كان يتجه نحوهم وخمنوا أنهم كانوا ذاهبين نحو البلدة، فتعجبوا كيف يكون هذا وهم في عراك بينهم. بيد أنه لم يكُن هناك أي عراك، بل مجرد مناوشات وهم يمشون باتجاه البلدة، وعند إبصاره للفئتين وهما في حالة هرج ومرج قفل عائدًا مع جماعة العقلاء الذين أتوا معه نحو أرضه. وهناك وقفوا في مكان لا يستطيع أحد رؤيتهم فيه، وأخذوا يراقبون كل شيء ويترقبون ماذا سيحدث، ومضى حشد كبير نحو البلدة وكان كل من كان فيه يصرخ وكأنه يتوعد، ومشى الجمعان اللذان كانا يتحدان أكثر فأكثر كلما اقتربا من البلدة، وانضم إلى ذلك الجمع الجديد جموع أخرى من أهل البلدة الذين خمنوا أن وراءهم شيئًا ما وأنهم عازمون على التورط في أمر لم يدركوه بعد. أما مسعود ومن كان معه فلم يعُد تتبعهم

لأصوات وحركات الجمعين يجدي؛ ذلك أن تلك الأصوات هدأت بعض الشيء ولكنها لم تخمد، وقعدوا صامتين لم ينبس أحدهم بأية كلمة، وأدركوا أن ليلتهم تلك لم تكُن مثل سالفها من الليالي، وأخذ ينظر إلى السماء في الشمال التي علت المأرب، وكانوا واقفين خلف الضريح وهم يصيخون السمع نحو الشمال، وكانت الأصوات قد علت من جديد، وكانت تنم عن حركة كبيرة وحتى اصطدام بعناصر الشرط أو جمع آخر، ثم سُمع صوت لإطلاق النار، علت بعده الأصوات والصياح، ثم خفت كل شيء. واستمر الهدوء لدقائق عديدة لم يلفت خلالها اهتمام مسعود أي شيء إلا حركة وأصوات تتكلم من الجهة الأخرى من الضريح، فتراجع إلى الوراء لكي يرى مصدر الأصوات، فألفى أنها كانت قادمة من منِزل الأرملة فتيحة وكانت تُحدث أحد أبنائها، ولكن مسعودًا لم يكد يميز «**وقُل له: ‹ماما تحتاجك›، هيا اذهب**» حتى ركض الفتى نحو منزله وبدأ في طرق الباب، وكان واضحًا أن أحدًا لم ينتبه إليه، خصوصًا أن الجماعة التي كان معها لم يكُن يتكلم منها أحد. ثم ميز سهام وهي تفتح الباب، وسأل الفتى عن وحيد وبأن: «**ماما تحتاجه في أمر**»، أجابته سهام بعدم وجود وحيد في المنزل، فاستدار بحركة خجلة ثم ركض فجأة نحو والدته التي كانت تسمع حديث ابنها مع سهام دون أن تنتبه الأخيرة لوقوف الأرملة عند باب منزلها. وبعد أن دخلت فتيحة إلى داخل منزلها مع ابنها، رجع مسعود إلى الجماعة الذين كان أحدهم يهمس بكلام لم يفهمه مسعود، ثم تكلم إسماعيل مخاطبًا الجميع بصوت عازم:

«**يبدو أنه يجدر بنا الذهاب لتفقد ما يجري، ما قعودنا هنا؟ إن كان هناك أي سوء فجميع أهل البلدة وضواحيها هناك ولن يضيرنا ذلك**». وافقه مسعود، أما الآخرون فأبوا، وقال أحدهم إنه يجدر به الذهاب إلى منزله: «**لا أريد أن يحدث لي ما حدث لبوعمامة جاري ذلك العام عندما خرج في مظاهرة وانتهى به الأمر في السجن ولم يفعل هو أي شيء ولكن أعجبه التفرج. لا، سوف أذهب إلى منزلي ولتخطئ رأسي**». وافقه بقيتهم رغم اعتراض إسماعيل وتسفيهه لتلك المقارنة، وانتهى الأمر بأن وجد مسعود نفسه يمشي باتجاه البلدة مع إسماعيل وهو يترقب الأصوات أن تنفجر لدى دخولهم للبلدة مباشرة. ولكنها انفجرت قبل أن يدخلوا إلى المأرب، وكانت أصوات متحدة تهتف بشيء لم يفهمه مسعود، واستمرت تلك الأصوات، ودخل مسعود وإسماعيل إلى البلدة ووجدوا فروع الأشجار وعجلات السيارات والشاحنات مشتعلة علامة على سد جميع المداخل والطرق التي تؤدي إلى البلدة، وكان الدخول جد صعب، ولولا معرفة من كان وراء النار لهم لكانوا التهموهم، ولكنهم عدوهم منهم، وكان أن ساعد أحد الشبان مسعودًا بأن أزاح فرع شجرة مشتعلًا بشيء كان يحمله بيده لم يستطع مسعود تمييزه، وهو ما ساعده على ولوج البلدة ثم الابتعاد عن تلك النار. ولما مشى بضعة أمتار مبتعدًا عن ذلك السد المشتعل، اكتشف أن إسماعيل لم يعد يمشي معه، وفكر أن مثل تلك الفوضى لا تُبقي على أية صلات، وتفك كل شيء حتى صلة القرابة؛ فلا تبقى إلا صلة الفوضى.

وتمشى مسعود في شوارع البلدة، فلم يكُن أيٌّ منها يخلو من جموع الفوضويين، وكان أغلبهم من الشبان، ولكن كان هناك الكثير من الرجال والكهول وحتى الشيوخ الذين بدوا وكأنهم قادة وهم يحملون العصي المشتعلة ويلوحون بها في السماء بفخر جديد وهالة من الانتصار أو الشعور بالانتصار. وبعد أن مشى مسافة كافية أدرك أن عليه الاحتراس من كل شيء؛ ذلك أن من كان يراهم هناك لم يكونوا أنفسهم الأشخاص؛ التاجر، والموظف والجار والأب وبائع اللبن، بل كل شيء تغير، فأحزنه ذلك ولكن قدرته على التحمل أعطته الثقة بنفسه وبالاستمرار في مراقبة ما كان يحدث في تلك الشوارع. وخلاصة ما كان يحدث كانت فوضى تامة انعدم فيها كل أمن، ولكنه فرح لعدم إبصاره أية امرأة، كما أنه لاحظ تجنب الفوضويين إحداث أي ضرر بالمباني السكنية والمنازل، وهو ما جعله يطمئن على سلامة النساء والأطفال. وأرجع هذا إلى طبيعة الثقافة المحافظة التي أظهرت نفعها في أحلك الظروف التي يمكن أن تمر بها أية بلدة أو حتى أي بلاد. أما في ما عدا هذا فكان الظرف جد متأزم واختلط الحابل بالنابل، واتحد الجميع على الفوضى، حتى أولاد حجي وأولاد الطاهر لم يسمع لمشكلتهم أي خبر، وبدوا كلهم يدًا واحدة في ذلك التدمير. وكانت الفوضى قد تحولت إلى حالة تدمير بعد أن اجتمع فوج كبير من حاملي العصي المشتعلة حول منزل من الطوب، ولكن كان هناك محل مجاور له بالآجر، فتحولوا إليه بعد هدم حيطان منزل الطوب ولكنهم لم ينجحوا، فغاب البعض منهم ورجعوا بآلات هدم من مطارق وفؤوس، وحمل أحدهم منشارًا وأخذ يقطع في الخيوط ولكن دون أن يثير هذا ضحك أحد. وكان

هناك من كان يجري، ولاحظ مسعود أن كل من كان يجري كان يحمل شيئًا، وخمن أنها غنائم نهب منازل فارغة أو بنايات عمومية، ورأى الكثير غير هذا. ثم عند انعطافه عند أحد الشوارع وجد شابًّا جالسًا فوق رجل كان ملقًى على الأرض على ظهره، وبَدَوَا يتشاجران، اقترب مسعود عله يستطيع فك ذلك الشجار، ولدى اقترابه ألفى رجلًا آخر لم يظهر له لوقوفه أمام شجرة كان يحث الفتى على لكم الرجل الملقى أرضًا. وعند اقترابه أكثر ميز مسعود الرجل الذي كان على الأرض، فوجده شخصًا يعرفه ولكن معرفة سطحية، ثم سأل: «**ماذا يحدث هنا؟ لماذا تضربه يا ولدي؟**»، نظر الشاب إلى مسعود ثم قال له: «**لأنه يستحق هذا، هذا المضطهِد**». تعرف مسعود على الشاب رضا الذي كان دومًا ما يراه مع ابنه بديع وكان حتى يبيت الليالي في منزله: «**يا رضا، ليس هذا وقت الشجار هكذا، دعه؛ هو أكبر منك، كما أنك أدميت وجهه**».

«**دعه، دعه يا شيخ، مثل هؤلاء يستحقون هذا، لم يؤدبهم القانون بل كان معهم، والآن نؤدبه نحن**».

«**نعم، هذا صحيح؛ أمثالي فقط هم من باستطاعتهم معاقبة مثل هؤلاء**».

«**هيا قم عنه يا رضا**». انحنى مسعود نحو رضا وأمسكه من ذراعه. ورغم اعتراض الرازي وصراخه في وجه مسعود بأن يتركه، فإن رضا أذعن لمسعود وحمله معه، ثم طلب منه مسعود أن يأخذاه لمنزله.

«**ما هذا؟ لا تفعل هذا يا رضا، أنت شاب ثوري ومثقف، هذا هو الوقت الذي يمكن فيه أن تثبت ثوريتك بمعاقبة مثل هؤلاء، لا تثق بهذا الشيخ، أمثاله هم الذين يقفون ضد هذه الثورة التي أبى**

هذا الشعب إلا أن يشعلها». طلب مسعود من رضا: «**عدم الإصغاء إلى ذلك الجنون؛ ذلك أن الرجل ينزف ولا بد أن نأخذه للمستشفى ثم لمنزله**». ومشيا تحت ذراعي الرجل وفي وسط الهرج وسكرة الفوضى، وخلفهما صياح الرازي الذي كان يسب مسعودًا ثم رضا، إلى أن انعطفا نحو شارع جانبي متجهين نحو مصحة قريبة.

ولما بلغوا المصحة وجدوها مكتظة بالناس، والأدهى من ذلك أن ذلك الحشد احتوى على الكثير من الجرحى، وكان هناك من يصرخ في وجه العمال هناك من ممرضين وأطباء، ويطالب بأن يوجهوا الجريح الذي كان معه إلى غرفة للنظر في جراحه. بيد أن حالة الرجل الذي جلبه مسعود ورضا لفتت الانتباه، وبدا واضحًا أن حالته كانت من الحالات الخطيرة. وبعد أن توجه مسعود إلى أحد الممرضين طلب منه هذا الأخير الانتظار لبعض الوقت؛ وهو ما جعل مسعودًا يشعر بالخوف لا سيما وأن الرجل كان ليسقط لو لم يحملاه، ورجع الممرض وطلب منهما مرافقته نحو إحدى الغرف بعد أن جلب كرسيًّا متحركًا وضعوا فيه الرجل. وبينما هم يعبرون ردهة طويلة، أخذ مسعود في تأمل الغرف على يمينه وشماله، وكانت كلها غاصة بالناس وبالجرحى، وكان الكل في حالة هستيريا وصخب نم عن هلع دفين؛ فكان كل من يأتي إلى ذلك المشفى الصغير يقرن في رأسه بين المشاهد التي كان يشاهدها هناك وبين الفوضى في الخارج، وينتهي بأن يملأه الرعب ويحس أن ما كان فيه كان آلة دمار وحركة تنتهي بذلك الألم الذي عمَّ أروقة المصحات والمستشفيات. أما مسعود فبعد الشعور بالهلع شعر بأنه كان معه حق، وأنه يجدر بالكثيرين المجيء هناك لمشاهدة الأعضاء المنفصلة عن

الجسد والرؤوس الدامية، وأفجع من هذا مناظر تحرق القلب وتجعله في حالة ضيق وارتباك. حتى رضا بدا مفجوعًا وكان يرى الرجال يصرخون من إخوة وآباء لمنظر أبنائهم وهم يتلوون ألمًا وبعضهم يحتضر، حاول تفسير هذا من زاوية مأساة وشقاء الشعب، ولكن هذه الفكرة بدت له جد ضئيلة في تلك اللحظة؛ ذلك أن أولئك كانوا أشخاصًا وليسوا كائنات سياسية تعبأ ثم تُترك لكي تُحدث تغيرًا ماديًّا، دخلوا في دورة أخرى –أو ظهرت حقيقة تلك الدورة دون أي أوهام– خارج دائرة السائس والمسوس، ونقب في داخله فوجد ما كان يترامى إلى بصره في تلك اللحظات كإنسان وناس في الكون وليسوا في المجتمع الواحد، وأيقن أنه كان وحيدًا كما كان أولئك وحيدين، وشعر بالضعف وأن ما فعله وما كان يفكر وفقه كان مجرد عبث الوليد برمال يصنع بها ما يشاء دون أن تكون ما يشاء. وسأل الأطباء عن اسم الرجل فأخبرهم مسعود: «**إبراهيم عطار**»، ثم سألوا أسئلة أخرى وتلبد لون وجه رضا ومضى مسعود يجيبهم، ونفى علمه بأي شيء عن سبب تلك الجراح، وأخبرهم بأنه وجده مع «**هذا الشاب**» مشيرًا إلى رضا الذي وجهوا إليه أسئلة ولكنه بدا مرتبكًا جدًّا وخارجًا عن طوره. وبعد أكثر من نصف ساعة أو ساعة إلا ربع خرجا من هناك، وفي الخارج اقترح مسعود أن يذهبا إلى آله ليخبراهم عل أحدًا من إخوته يأتي إليه ويبقى معه، لم يُجِب رضا بأي شيء، ومشيا في وسط الصخب والرجال الراكضة، فكان المنظر ما علق عليه مسعود مخاطبًا رضا: «**غوغاء في حالة اهتياج**». وكان صعبًا المضي في تلك الشوارع التي كان بعضها قد غمه الدخان ولم يُرَ فيه أي شيء، بينما كانت شوارع أخرى قد تحولت إلى معسكرات

لرجال يستعدون للقتال دون أن يظهر أي أثر لأي من عناصر الشرط أو الدرك أو غيرهم، بيد أنهما بلغا المنزل بعد جهد جهيد ولم يُفتح لهما الباب، وأخذ مسعود يصرخ إن كان أحد من إخوة إبراهيم يسمعه فهو في المستشفى، ولدى صياحه بهذا تكلم صوت من وراء الباب لم يسمعه لا هو ولا رضا، ثم تكرر ذلك الصوت فأدركا أنه كان صوت امرأة، فأخبرها مسعود: «**أنا لا أسمعك يا أختي**»، ففُتح الباب وظهرت امرأة في جلباب ظهرت عيناها فقط وكانتا مترعتين بالخوف والإرجاف من كلام مسعود الذي قص عليها ما حدث مع زوجها من أخذه له مع رضا إلى المشفى وأنه هناك ولكن بخير، «**ولكن لا أنصح بأن تذهبي أنتِ، يجب أن يذهب أحد إخوته أو إخوتك**». شكرته ثم دخلت، وكان رضا دائم التحديق فيها، واستدارا راحلين ولكن كان رضا دائم الالتفات إلى الوراء حتى توقف في مرة فاستدار مسعود أيضًا ورأيا المرأة وهي تحث الخطى نحو المصحة، وتذكر رضا تلك المرأة وزوجها وهو يبرحها ضربًا منذ عام خلا، تذكر هذا ثم فكر في ما فعله، وتعجب من ذلك الحال واحتار في أمره وفي ما كان يحدث معه وما كان يحدث مع غيره.

وفي مشيه في تلك الشوارع، تذكر مسعود الخوف الذي انتابه في المستشفى وهو ينظر إلى غليان كل ما كان يحيط به في البلدة، وأن كل هذا كان سببًا لألم وتعاسة وحتى فناء لا مثيل له ولا فائدة منه؛ دون أي سبق تفكير أدى إليه سوى الغوغائية، ولا ينتهي إلى أي شيء سوى الفوضى؛ فشعر بخوف مماثل، ثم أدرك أن الجميع كان خائفًا وأن هرجهم ذلك لم يكن سوى الهروب منه. وكان رضا خائفًا أيضًا. ولدى ولوجهما شارعًا بدا فارغًا وهما يريدان الابتعاد عن كل تلك المناظر والخروج من البلدة، قال بنبرة أبدت ذلك الخوف:

«**ليتني لم أستمع لك يا عمي مسعود، لو أني هربت لكنت في مأمن الآن من خطر أن يكتشفوني فيما بعد ويستدعوني، والرجل لا يزال يذكرني، يعني سوف يشي بي، وكل الدلائل تشير إلى أني الفاعل؛ ذلك أني ذهبت معك به إلى المستشفى، سيشهدون ضدي**». قال هذا بنوبة من الهلع جعلت مسعودًا يظن أن الشاب كان يرتجف، فحاول تهدئته والتخفيف من روعه، وقال له:

«**ما فعلته كان الأمر الصائب يا ولدي رضا، لم يكُن هناك من خيار آخر، ثم هي كانت غلطتك، لماذا لم تتحكم في نفسك وتُعرض عن الرجل حتى وإن أساء إليك؟**». لم يُرد رضا أن يخبره سبب ضربه للرجل خوفًا من أن يظن به الجنون والخرق، وتركه في ظنه ذلك بأن الرجل تعرض له بسوء في الكلام وأنه ضربه بسبب ذلك. ثم أضاف مسعود: «**هذا ما نجنيه من أخطائنا، ثم إن الرجل قد يتجاوز عن فعلتك هذه ولا يقدم شكوى ضدك، لا تفكر في هذا، ما حدث قد حدث، ولقد تعلمت درسًا ولكن لا تهرب، إياك أن تهرب يا رضا، أنصحك بهذا؛ لأنه لن يفيدك الهرب، السلاح الوحيد لك هو المواجهة**». أومأ رضا موافقًا، ولكنه بدا مهمومًا حتى إنه أجهش بالبكاء، ولكنه توقف ثم شكر مسعودًا واستدار ورحل، تفاجأ مسعود وصاح خلف الشاب: «**ربي يحفظك يا رضا، تذكر أنك لست وحيدًا**». لم يفهم رضا أول الأمر، ولكنه فهم بعد ذلك أن تلك الكلمات لم تكُن لتُفهم على ما يمكن أن تُفهم به في أوضاع أخرى عادية غير تلك الأوضاع، واستكمل مشيه ولوح لمسعود بيده موافقة على كلامه ليُريه أنه سمعه فقط، واختفى في الدخان.

ومضى مسعود مباشرة إلى منزله والمأرب خلفه بعضها يحترق وبعضها يُنهب وبعضها يعيش في حالة هلع لا حدَّ لها، دخل منزله وقصد الغرفة التي شعر فيها بالضيق أول تلك الليلة، ألقى نظرة وكان الظلام الحالك طاغيًا عليها، فأشعل النور وجلس على كرسي أمام الطاولة وراح يتأمل في رسالة زيد، تأملها وفكر أنها لم تخلُ من أيٍّ من الفوضى وحالة الهروب الدائم التي كانت تسيطر على الجميع في المأرب أيضًا، وقارن بينهما ولكنه حاول نسيان ما رآه في البلدة، فرفع الورقة واستأنف قراءته:

«**أما أنا فأنظر إلى هؤلاء أيضًا، لا أستطيع حتى أن أتشاءم، ولكني أرى وسيلة عيش واحدة تُبقي على حياتي، لا أدري كيف أسميها، ولكنها تظهر لي كوسيلة لحركة الكون ككل وتغيير جزء منه، قد أستطيع أن أغير هذا المجتمع أو ذاك، نعم أستطيع حتى التدمير، كيف؟ بألا أفعل أي شيء، ألا أتحمس لأي شيء، الخمول والسكون يسكنان الآخر أيضًا، وماذا بعد هذا؟ لا أدري. زوجتي تعيش معي كما أنا هكذا، بكل هذا الشذوذ الفكري الذي يتغلغل في عقلي، لا يهمها أي شيء من هذا، قد تكون مجرد ثرثرة وسأتوقف عندما أشعر بالتعب، من يدري؟ ولكن هذا التعب هو من نوع آخر؛ ذلك أني أعرف نوعًا آخر من التعب، أعتقد أنني تعب منذ أن خُلقت؛ لذلك لا أستطيع التشاؤم أي الهذر حول الألم؛ ليس لأنني أرى أنه لا يوجد ألم، بل أرى أن كل حياتنا ألم، ولكن على عكس المتشائمين فأنا لا أرى أية وسيلة من أجل محاربة الألم مثلما يفعلون، أو التخفيف منه بالإعراض عن الرغبات؛ ذلك أني أريد تلك الرغبات، ولكن بكلل وللهروب**». وضع مسعود الرسالة

مرة أخرى على الطاولة؛ ذلك أنه لم يستطع استكمال قراءتها من جديد، قدر قبل هذا أنه بعد رؤيته لما جرى في البلدة قد يكون بإمكانه مواجهة مثل ذلك الكلام الغريب، ولكنه كان مخطئًا؛ وذلك بسبب أن صاحب ذلك الكلام كان ابنه. وحاول قراءة الرسالة سريعًا والتوقف عند الأحداث التي يرويها زيد في رسالته، ولكم أزعجته قلة هاته الأحداث في مقارنة بتلك الثرثرة التي تملأ الرسالة! فكان مجموع ما وجده من تلك الأحداث حدثين فقط. فالحدث الأول أعقب حديثًا عن انطباعات زيد عن البلد الذي كان يعيش فيه، ثم نظرة المجتمع هناك إلى أمثاله: «**ليس الأمر مثلما تظنون، لا توجد أية جنة هنا، قد يكون هناك نظام وقانون يعطي الحقوق ويعاقب على المخالفات والجرائم، ولكن خارج كل هذا فإن الحياة تظهر خاوية، لم أعلم كيف أعيش هنا ولا كيف يعيش من هنا، ولكني في الأشهر الأولى كنت أطوف جل أرجاء المدينة، ولما تعرفت على زوجتي كنا كثيرًا ما نتمشى، واعتدنا في مرحلة معينة أن نتوقف في حديقة ونتكلم، وكان أكثر ما كنت أتكلم فيه هو انطباعاتي عن ذلك البلد والتي غدت سلبية وأصبح الأمر انتقادًا؛ ذلك أني كنت أواجه مشاكل في البحث عن العمل، وكذلك التأقلم مع الناس هناك. أما زوجتي فكانت تستمع إليَّ بهدوء دون أن أعلم إن كانت مهتمة أم أن ذلك مجرد مجاراة لي. وفي إحدى المرات كان جالسًا في مقعد على يميننا ليس ببعيد عنا، رجل اتضح أنه يصغي إليَّ وأنا أحدثها عن نفاق الشعب هناك وكيف أنهم يتشدقون بحقوق الإنسان مع أنهم أكبر منتهك لها، فصاح ذلك الرجل وهو يناديني وأضاف بعد أن التفتُّ إليه: ‹اسمع يا رجل الصحراء، إن لم تعجبك**

هذه البلاد فما قعودك هنا؟ اذهب إلى القمامة التي أتيت منها، هذا أفضل لك'، فأجبته بأن أصحاب تلك القمامة هم الذين ساهموا في بناء بلادكم، فأجاب: ‹يا للكلام المضحك! منذ متى كانت البهائم تخطط؟! وهل حمل الحمير للآجر والإسمنت وتدويرها للمطاحن يجعل منها العقل المدبر وصانع الأبنية والمصانع والمنتوجات؟! اسمع، حقوق الإنسان هي لمن يستحقها، مثلك ترك بلاده من أجل بطنه فقط، لا خير فيك، ولا عجب أنك تنتقد هذه البلاد، لو وضعوك في الجنة لما أعجبتك ولانتقدتها؛ لذلك لا تصلح لك الجنة›. لم أرُد، وطلبت مني زوجتي الرحيل فقمت من هناك، ولم نكَد نمشي بعض الأمتار حتى سمعنا نفس الرجل يناديني، ثم تقدم إليَّ واعتذر، ولكني أردت أن ألكمه فأشحت بوجهي بعيدًا ومضيت، لامتني زوجتي على الفظاظة التي أبديتها للرجل، ولكني لم أعبأ، ولدى قفولي راجعًا إلى المنزل أُصبت بالحمى في تلك الليلة واستمرت لأيام. يبدو لي الأمر مزعجًا؛ ذلك الرجل كان يتحدث وكأنه أفضل مني، هو لا يدري أنه وحيد بأخلاقيته تلك، حتى في بلاده لا يكترثون له ويسخرون من أمثاله؛ ولذلك جئت إلى هنا».

عاد بعدها للثرثرة زيد، فأسرع مسعود في القراءة وقد شده التفكير في ذلك الحادث وترقب أمرًا آخر، فصدق ظنه وبلغ حادثًا آخر أسلفه نقد آخر لذلك الرجل الذي طلب من زيد أن يعود إلى وطنه:

«ولكن ليس الجميع هنا متشابهين، مثل أي مكان في العالم، فهنا يوجد من هو جيد ويوافق الطبع ومنه يمكن مخالطته، ويوجد من هو سيئ مثل ذلك الرجل المهووس بالمسؤولية، والذي أخبرتكم عنه سالفًا. فمن هؤلاء الجيدين الذين عرفت في هذه البلاد شقيق

زوجتي، شاب نشيط ويعرف فن العيش، دائم الترحال والتمتع بحياته، لا يعيش إلا لنفسه، وهي عيشة مميزة وجد مغرية، وكل من يراه أو يتكلم معه يشعر بتلك الرغبة في فعل نفس الشيء وبداية التجوال حول العالم، وهو يفعل كل ما هو ممتع في كل بلد يزوره، وحتى في بلاده لا ينفك يدعوني للسهر معه والسمر. وحدث أن كنت أنا وزوجتي معه في بيته بعد أن دعانا للعشاء عنده، جلست وحدي معه وكان يحب النبيذ، ومن جميع مسكرات تلك البلاد لم يُثِر اهتمامي سوى النبيذ المعتق؛ لعل هذا يسري في دمي من العرب الجاهليين، فلم أجد أي مانع يمنعني من أن أجرب، وهو ما شجعني عليه شقيق زوجتي أيضًا، وراح يقص عليَّ تاريخ تلك القارورة وأين عتقت، وقبل هذا كروم أي أرض أتت بتلك الحلاوة والجودة الرائعة، وانتهى بي الأمر بأن بدأت معه الشرب، وتوالت أيام كثيرة على هذا المنوال حتى أصبح طقسًا بيننا، وحتى زوجتي كانت تتناول الكأس والكأسين وهي مرحة، فأعجبني هذا جدًّا وذهب بي كل مذهب. ولكن لم أُرِد إخباركم عن هذه القصة فقط لأني أروي لكم تجربة جديدة لم أعِشها في بلادكم، لا؛ بل ما أردت قوله هو أن البلاد هنا هي ملجأ الهاربين فعلًا، ومن أطلق عليها جنة اللاجئين لم يخطئ، أما بلادكم فلا يستطيع العيش فيها إلا من مرن على الصبر، أما أنا فبمجرد وصولي إلى هذه البلاد قد ذهب كل أمل لي في اكتساب تلك الخاصية، بينما بلادكم فهي تبدو دومًا لشعب قوي لم يَحِن موعد قدومه، شعب إيمان -مثلكم- وشيء آخر لم أدركه بعد. قد أكون مخطئًا، ومهما بدت بلادكم جرداء ومثيرة بالنسبة إليكم فإنها بالنسبة لي سراب قد تجاوزته،

والآن لديَّ ملجئي ولا يمكن لي أن أفارقه؛ ذلك أني ما زلت متشبثًا بالحياة ما بقيت في الرغبات، وعلى رأسها حلم الهرب والنوم ذات ليلة دون أن أستيقظ فأصبح عدمًا معدومًا».

كان الفجر قد اقترب ومضى مسعود ليقف عند النافذة، تبادرت إليه أصوات قادمة من الشمال مرة أخرى، وسمع بعض الأصوات، إلا أنها كانت تخفت شيئًا فشيئًا إلى أن انعدمت، فتذكر حلم زيد وساءه ما قرأ في تلك الرسالة، وعدَّ هذه محنة، وأنه في بلوى أخرى حتى يعود ابنه أو يعود إليه رشده. ومضى يحدق في الأفق المظلم، بيد أن الرعد في تلك السماء أتى بأنوار محت انطباع الحلكة الأولى، وتعجب من سهولة تعرض الإنسان لكل المغريات والتي قد تصبح منغصات فتحول دون أن يعيش الإنسان الحياة الحقة، وفكر في نفسه ثم أعرض عنها، وبدا كل ما هو في الخارج موحشًا، إلا أن تلك الوحشة انقشعت فجأة بعد أن أذن مؤذن جامع العريبات؛ ملأت السكينة مسعودًا وأدرك أنه وقت فجر، فتحرك من مكانه وخرج من الغرفة. وعند الباب ألفى ابنه وحيدًا وهو يلبس حذاءه، فخرجا معًا وقد أعجبه تغير ابنه وعدَّ هذا علامة على خلاص ولو ولد واحد يصلح، خرجا معًا ومشى مسعود وقد ذهب عنه الضيق الأول وهو في طريقه إلى الجامع يريد أن يحيا الحياة الحقة.

اختلف دخول بديع للمصحة عن دخول الآخرين بأن جلب الانتباه إليه؛ فكان كل من يتعرف عليه يطول تأمله له، وكان هناك حتى من يوجه له الكلام بنبرة متملقة ومنقصة من قيمة الشخص المتكلم من أجل إعلاء شخص بديع. ذهب إلى تلك العيادة من أجل عيادة رءوف بن جامع الذي أبرحته مجموعة لم يتعرف عليها ضربًا كاد أن يموت منه، ورغم تعافيه بعض الشيء فإن الخوف كان قد ملأه واجتاحه نفور من العمل الذي يقوم به مع بديع، وهو ما أخبره به. وبعد ربع ساعة خرج بديع من غرفة رءوف وهو عرضة لنفس الأنظار المهتمة بشخصه والمتلهفة لتتبع كل حركة يقوم بها أو كل كلمة تخرج من فيه، وبسرعة راح كل واحد منهم يستفسر عن سبب قدوم بديع إلى تلك العيادة، ولدى معرفة ذلك السبب تساءلوا عمَّا دار بينه وبين رءوف من كلام. وخرج من هناك برفقة الزبير أحمدي، وكان ملازمًا له كثيرًا في الفترة الأخيرة، يسمع له الزبير فيأتمر ويرى كلام بديع مهمًّا ويبلغ من الحكمة ما يمكن أن يوصل كل من يسلم به ويعمل به مراتب جد جليلة. مشيا معًا يريدان الرجوع إلى البلدية أين أصبحا يقضيان جل وقتهما بعد أن كانا ينامان في بيت الزبير بعد

خروج بديع من منزل والده في العريبات، ولم يعتمد بديع على الزبير فقط، بل كان يعتمد على زهير أيضًا، فكانا يشكلان فريقًا لتنفيذ كل مخططات وأوامر بديع الذي أعطاهما الانطباع بأنه أكثر حذقًا وخبرة وحنكة منهما دون أن ينقص من قيمتهما، بل كان جد مهتم بحالهما، وهو ما أغبطهما جدًّا. كان يمشي وهو يفكر وقد استخلص من محادثته مع رءوف أن الأخير لن يعود أبدًا إلى أمانة المأرب وأنه سيظل بعيدًا، وهو ما يتيح الفسحة الفسيحة لبديع لتأمين تلك الأمانة لنفسه، ومنه يصبح سيد المأرب. كان الوحيد الذي يفكر على هذا الوجه، بيد أنه لم يرَ في هذا أي سؤدد، ولكنه كان يمني النفس أن تكون هذه الخطوة مسلكًا معبدًا يُسهل له الارتقاء واعتلاء مناصب تحقق له السؤدد المنشود. لم يبُح بمثل تلك الأفكار لأحد؛ مخافة أن تلقى بالسخرية أو حتى تعطي الانطباع بخطورة هذا الشخص -هو- وخطورة طموحاته، ومنه العمل على كشف مخططاته، ولكنه غلف هذا التفكير بعقلانية وأضفى عليه طابعًا أخلاقيًّا انتهى إليه في أن يظهر في مظهر من يعمل للغير متجاهلًا نفسه ورغباته، فكان دائمًا في ثياب جد متواضعة لم يبد منها أي تأنق أو حتى اعتناق للتقاليد التي أظهرها من تقربه من ولاة الأمر في المأرب، مع الكلام دائمًا عن محاسبة المخطئين، وفوق هذا إعطاء المنح والكلام دومًا عن إصلاحات يجب أن تتخلل كل قطاع من قطاعات الحكومة، وهو ما وعد أن ينقله لوزارة الداخلية، ومنه كان تمهيدًا للترشح في مجلس الشورى أو غيره. وقارن بين حاله في تلك اللحظة وبين مرحلة قبل توليه لتلك المسؤولية، فاستخلص أن ما يهم هو ما يحيط بالإنسان من ضرورات حياتية توافق طبعه ويدرك مغزاها، فيعمل على

تحقيقها من خلال عمل كل ما يُنجح هذه المخططات الضرورية، وعلى رأسها الاستعلاء في وسط جماعة إنسانية تختلف قدراتهم وخاصة العقلية كما تختلف مقاومتهم، فتكون الأعمال رهينة بتلك القدرات ودرجة المقاومة المتوفرة من أجل الاستعلاء نفسه. وتكلم بعد التفكير في هذا مع الزبير وأخبره أن رءوفًا لن يعود، فأثنى الزبير على رءوف وعلق بأنها: «**ستكون خسارة للمأرب؛ ذلك أنه ذكي ومخلص**». وافقه بديع في هذا، ولكنه رأى فيه الضعف مثلما رآه في كل من لم يستعلِ، حتى في الزبير وزهير، وحتى أيضًا في والده مسعود. وما إن بلغا مقر عملهما حتى وجدا حشدًا كبيرًا مثلما أضحت العادة في المدة الأخيرة، حاولوا استبقاءه من أجل الحديث معه فأشار عليهم بأن يختاروا أربعة من بينهم لكي يصعدوا معه للتحدث في كل ما يريدون الخوض فيه، أعجبهم الاقتراح واختاروا أربعة ومضوا معه إلى الداخل. كانت الظهيرة قد اقتربت ولكن بديعًا لم يعبأ بذلك وصعد إلى مكتبه، وهناك وجد زهيرًا، وطلب منه أن يجلس معهم، وبدأ في الحديث مع ممثلي الحشد في الخارج. أبدوا له تذمرهم حول أمور عديدة، منها الكهرباء المقطوعة والماء الذي لا يصل إلى المنازل. ورغم علم بديع بأن هؤلاء هم أنفسهم من أفسد الكهرباء ودمر أنابيب المياه التي تسببت في شبه الفيضانات في بعض الأحياء التي أتلفت فيها الأنابيب تحت الأرض، وبأنهم أتلفوا الكثير من المنشآت الأخرى مثل بنايات عمومية ومنازل غير مسكونة، وحتى نهبوا بعض مراكز البريد ومنها واحد في ذلك الصباح تدخل هو نفسه برفقة الشرطة لمنع الشغب والدخول إلى مركز البريد؛ قام من مكانه مباشرة وطلب منهم مرافقته، فخرجوا معه

وخرج معهم الزبير أيضًا. وفي الخارج مشى بديع نحو شركة المياه مباشرة، وكان هناك من أوصله والحشد من ورائه يتبع، وفي مقر الشركة أخذ في التحدث مع المدير وطلب منه إصلاح أنابيب المياه وإدخال الماء إلى جميع المنازل، وفعل نفس الشيء في مقر شركة الكهرباء، وهو ما أغبط الجميع. ووعدهم بأنه سيعمل على متابعة كل الذي أمر به، فلم يَبدُ عليه الكذب وصدقه الجميع؛ لأنه فعل ذلك فعلًا ولكن بنية أخرى. كان يعلم أن أكثرهم لم يكُن يهتم بنيته، وأنه ما دام عمله عملًا يرضي فإن الجميع سيرضى ويتجاوز، وقدر أن ما يهتم به أكثرهم لا يعدو الأمن والرزق والملاهي، وكان يظن أن احتكاكه بأهل البلدة كان يُثبت له كل يوم صحة أفكاره تلك.

بيد أنه بعد أيام قلائل ظهر له عكس ذلك، وذلك بعد أن التقى بابن عمته عبد الرحيم؛ قصده الأخير في بيت الزبير ولكنه لم يجده، ثم بحث عنه حتى ألفاه في زيارة إلى العريبات في منزل والده. وبدا على عبد الرحيم التصميم على أمر ما، ولكن بديعًا لم يُرِد معرفة هذا لا منه ولا من أي أحد مثله كمصطفى بن عدي، وهو ما زاد عبد الرحيم تصميمًا على الخوض في ما جاء يريد الخوض فيه مع بديع. طلب منه أن يحدثه في موضوع ما، فسمح له بديع في البدء فيه، فقال عبد الرحيم وكان معهما مسعود والزبير وكذلك منور حفصي أحد جيران مسعود وكان مربيًا للغنم:

«**بما أنك يا بديع قد أصبحت المسؤول الأول عن هذه البلدة وضواحيها من قرى، فإنه يجب عليَّ أن أخبرك بمسؤولية تجاهلتها، وأعرف طريقة تفكيرك رغم ما رباك عليه والدك من تربية شرعية أنت وإخوتك، لكن الله يهدي من يشاء، وهذه**

المسؤولية لا تتعدى أمرًا لا ينتبه له الكثير من الناس ويعدونه أمرًا عاديًّا مع أنه من الكبائر وبعض العلماء حكم بأنه كفر، أنا أتكلم عن ذلك القبر الذي يدعونه ضريح البياض، أنا لم أتكلم عن الضريح هذا»، أشار إلى يمينه، «لأني أعلم أن خالي سوف يهدمه ما إن تنتهي القضية ويُحكم له بملكية الأرض، ولكن لا أحد يملك أرض ضريح البياض، ومن أجل هذا يعود الأمر إليك فيه. لا يجب أن يبقى ذلك القبر يا بديع، يجب أن تعي هذا جيدًا، هذا شرك بالله وأنت تساعد على هذا الشرك. أفهمت يا بديع؟».

«أنت تكثر الحديث في هذا الموضوع يا عبد الرحيم، قد أصبح الأمر هوسًا فعلًا، متى ستغادر هذا الجنون؟ من الذي قال لك إنه شرك؟ لا أحد منهم يعبد القبر، كما أنه لا يحق لي أن أهدم أماكن عبادة الناس، حتى ولو كانت كنيسة فلن أهدمها، كلٌّ حر في ما يفعل، أنت حر في أن تلتحي وتلبس القميص القصير، ولكن غيرك يريد غير هذا، منهم من يحب السراويل الفضفاضة ومن يفكر على نحو مخالف لك؛ إذًا يجب أن تتقبل الاختلاف في كل شيء وتتعلم التسامح يا عبد الرحيم؛ لأن احتقانك هذا وتحاملك على كل من يخالفك في المعتقد هو علامة ضعف وليس علامة قوة».

«أرى أنك لا تزال تحمل نفس طريقة التفكير البهيمية، زد على هذا فإنك أصبحت تتحدث مثل رجال السياسة تمامًا؛ الحرية الشخصية والتسامح والتطرف، أصبحت هذه الكلمات تسيطر عليك، لن أطيل الكلام أكثر من هذا لأنه لا يهمني كيف تفكر وما تريد فعله، ما يهمني هو أنك المسؤول هنا، إن لم تفعل هذا فهناك من سيفعله».

«اسمع يا عبد الرحيم، هناك قانون في هذا البلد، وهي ليست غابة أين يمكنك القيام بما بدا لك، إن لم ترعوِ فهناك ما هو قادر على ردعك، وكن مطمئنًّا؛ لن نهينك ولن نفعلَ أي شيء ممّا تظن أنه سيؤدي إلى شهادتك ومنه بطولتك، هو فقط القانون الذي سيحكم هنا، لا غير».

«إذًا أصبح دين الله كلأً مباحًا، حسن، صدقني يا بديع فإنه لن تنفعك سياستك تلك، وما أخبرتك به هو الذي سيحدث، وأنا أعرف ما الذي يفعله أولئك المبتدعون في ذلك الضريح، أنت تعلم يا خالي، وسأفضحهم ولن تنال من هذا سوى الخيبة يا بديع». لم يستطع بديع إخفاء خوفه من كلام عبد الرحيم، ولكن هذا استمر للحظات فقط لم تنكشف فيها تعبيرات وجهه لأحد، استجمع قواه بعدها وأبدى تصميمًا هو الآخر في المضي على ما أبداه من رأي بخصوص الضريح، وراح يسفه رأي ونية عبد الرحيم. أما البقية فاكتفوا بالاستماع فقط، وكان وحيد قد انضم إليهم أيضًا، ولكنه استمع للجزء الأخير من كلام بديع ثم عبد الرحيم، والذي رحل بعدها مسرعًا ظنًّا منه أن وحيدًا سيدافع عن بديع ويتحول الأمر إلى شجار، وبعده بقليل رحل بديع أيضًا برفقة الزبير.

وشغله الأمر طوال اليوم، ولم ينتفع بيومه ذلك، وفي اليومين التاليين نازعته نفسه إلى الذهاب لزيارة ذلك الضريح وتفقده، ولكنه أحجم، ومضى يفكر في إن كان ذلك الأمر فعلًا مشكلة كبيرة أم إنه مجرد هذر ولن يؤثر على عمله أو سمعته، ومنه يبقى مستقبله سليمًا مليئًا بالطموحات قريبة التحقق. فكر في الأمر، وكلما أراد التوقف عن

التفكير فيه لجأ إلى طمأنة نفسه بأنه سيخرج من تلك المشكلة، وهو ما يجعله يدرس أبعاد هذا الخروج، ومنه الانغماس في هذا الأمر أكثر.

وفي ليلة أربعاء، بينما كان هو والزبير وزهير يخرجون من مكاتبهم، تلقاهم في الخارج الهاشمي وجماعة اقتربوا من بديع وطلبوا منه أن يكلموه في أمر هام. لم يتعرف بديع لا على الهاشمي ولا على الآخرين، ولما رأى الهاشمي يتقدمهم ازدراه وازدرى ذلك الجمع الذي قدم مثل ذلك الرجل في الثياب الرثة التي أظهرت ليس فقرًا بل تعمدًا واسترزاقًا من ذلك المظهر. تردد ولكن الزبير عرف الهاشمي لبديع، فلم يجد الأخير نفسه إلا وهو يمشي معهم إلى منزل الزبير بعد أن دعاهم للتحدث هناك، فلم يستغرقهم الأمر سوى عشر دقائق حتى بلغوا المنزل أين كان بديع والزبير وزهير يبيتون. وفي غرفة خلت من الأثاث سوى الكراسي وطاولة بجانب الباب، جلسوا جميعهم، وكان مع الهاشمي عبد الحميد وأحمد وبكر، وجلس كلٌّ من الهاشمي وعبد الحميد في جهة، وقابلهما كلٌّ من بديع وزهير في جهة أخرى بجانب الطاولة، بينما غاب الزبير لدقائق قليلة ثم عاد بخشبات وصندوق، أعطى اثنين لأحمد وبكر بينما أخذ الآخر ووضعه تحت النافذة وجلس عليه. بدأ الهاشمي بإطراء بديع، وهو ما لم يستطع الأخير الإحجام عن التأثر به، فمضى يبتسم والآخر يزيد ويقول:

«زد على منبتك الكريم الذي تكلمت عنه لتوي، فإن شخصك -ما شاء الله- لم يُخلق إلا للحكم، ولديك هيبة كبيرة، كنا نهابك حتى وأنت صغير، ولكن عندما كبرت لم أعُد أراك لمشاغلك، كان يأتيني شقيقك زيد ربي يحفظه، إن كلمته أو

راسلته فأبلغه سلامي، سيُسعده هذا لأنه يحبني. كلنا نتحدث عنك بالخير، وقد لاحظنا أن الجميع سعداء بك لأنك مخلص في عملك ولك نية صادقة في خدمة البلدة وقراها وخدمة أهلها، سيجزيك الله خيرًا عن كل هذا، ونحن ندعو لك بالتوفيق وبأن يثبتك الله لفعل ما هو خير للبلاد وللعباد، آمين. ومن أجل هذا جئنا إليك؛ لأنك أنت رأس البلدة وكلٌّ يأتمر بأوامرك، كما أنك الوحيد القادر على الفصل في الشكاوى وإنصاف المظلومين، ولكم فعلت هذا! وهو ما أعطانا الأمل للمجيء إليك نرجو عدلك وصواب حكمك، ولمدة طويلة ونحن عرضة لظلم وهوان كبيرين؛ كل يوم نتعرض للأذى من طرف بعض الناس هنا في البلدة، ويجهدون من أجل ألا تخطئنا شتائمهم، هل هذا هو الدين يا السي بديع؟ أنت تعرف عمَّن أتحدث لأننا سمعنا أنهم طلبوا منك تدمير الضريح. لقد جاء ابن عمتك مع جماعة كبيرة اليوم، في العادة يأتي وحده ولكنه اليوم دخل معهم وأخذوا يطوفون في الجامع ويفتشون، وعندما سألناهم عمَّ يفتشون أجابونا: ‹عن أدوات سحركم وشعوذتكم›. حاشا لله أن نكون هكذا، ولكننا نخدم سيدي بياضًا، هذا كل ما نفعله، ولم يُرضِهم هذا ولا ندري لماذا، يقولون إن هذه أوثان وإننا مشركون، ولكننا لا نعبد سيدي بياضًا بل نتبرك به مثلما قال الشيخ محمد مرارًا. واليوم هددونا علانية وأخبرونا أنهم سيدمرون الضريح، هل يُرضيك هذا يا السي بديع؟ إنه ظلم فعلًا، واللهِ هم ظلمة، وماذا فعل لهم سيدي بياض؟!». وانخرط بعدها في بكاء، ولكن منظر ذلك الرجل وهو يبكي أزعج بديعًا بعدما أسعده حسن ديباجة الرجل، وتعجب لماذا اقتصر على ذلك الدور البشع والممقت

من أجل كسب الرزق وهو الذي لديه بلاغة قد تُغنيه عن كل ذلك السؤال وتتيح له الترفع عنه إلى حياة أفضل. لكنه بدأ في مواساته والتخفيف عنه، وكذلك فعل الآخرون، فسكت الهاشمي ونظر إلى بديع مترقبًا رده على ما أخبره به. وحضرت بديهة بديع ورأى في الأمر كله منفعة له، وتبرك بالأمر هو الآخر ولكن على طريقته، وأجاب عيني الهاشمي:

«**اسمع يا عمي الهاشمي، لن ينال أحد ضريح سيدي بياض بأي سوء، وكونوا مطمئنين أن هذا أمر قد فصلت فيه وأخبرت عبد الرحيم بذلك، وهم لن يتجرؤوا على فعل ذلك، أنا سمعت عن قدومهم إلى هناك، ولكن إن فعلوا أي شيء فسأقوم بالإجراءات اللازمة**». قام الهاشمي من مكانه جذلًا، وراح يُقبل بديعًا ويدعو له بصوت مرتفع أسعد بديعًا أول الأمر، لكن استمراره كان يبعث على الامتعاض، فأشار بيده وأخبرهم أنه سيزورهم في الغد، فشكروه وخرجوا مُثنين عليه حتى بلغوا الشارع.

وافترش ثلاثتهم مطارح على الأرض وأطفؤوا النور، ولكن بديعًا لم ينَم وراح يفكر في ما حدث له ذلك اليوم، فكر في أن قصة الضريح تلك كانت فرصة لكي يقرر في نفوس الجميع أنه لديه من الحزم ما يدفع إلى التفكير أنه لا يوجد أفضل منه للحكم، وأنه بعدائه لعبد الرحيم وأمثاله يمكن له أن ينفرد بالسلطة هناك. ثم فكر في الأولين والملوك الغابرين، وخرج بنتيجة أن الدين هو أفضل أداة للحكم، وتعجب كيف غاب عنه هذا الخاطر قبل هذا، ولمَ انجر نحو احتقاره لإيمان الآخرين دون أن ينظر في هذا اللهث وراء الدين والطقوس منفعة له؛ ربما لأن مثله لا يمكن أن يغتر ولا أن ينخدع

بحيل لا تسدي إليه أية خدمة، ولكن ‹ضعف الآخرين هو دائمًا قوة للبعض›، فكر في هذا ورأى فيه قانونًا يجب ألا يحيد عنه، وتراءت له في مخيلته مشاهد السؤدد الذي يمكن أن يناله والتفاهم مع الدين وعلى أن هذا الدين يمثل جذورًا لهذه الأمة، وتخيل نفسه رجل دولة وهو يخطب في الناس وهم يسمعون له ويستشهد من القرءان ولكن بحزم دومًا، وذلك بألا يفعل ما لا يستطيع فعله كالذهاب إلى المساجد والصلاة، ‹هذا نفاق لا أجرؤ عليه، وأفضل السقوط والهوان على أن أفعل هذا›. فكر مرة أخرى بعزم، ورأى في المجتمع المثالي ذلك الذي يمكن له أن يعيش فيه مع غباء أفراده وخرافاتهم، ولكن دون أن يحول هذا بينه وبين عيش الحياة التي يريدها. ورأى كذلك أن شكه كان أفضل سلاح له، به كان يمكن له أن يتجاوز الكدورة العقلية وأن يبلغ الفهم الصافي والقدرة على رؤية ما لا يمكن للآخرين رؤيته، فبالشك يمكن له التقدم في حياته، وبالشك يُبقي على نفسه دون الوقوع في فخ المخاوف والهلع غير العقلاني الذي يشل الحركة فيقعد ذليلًا وخائبًا. ثم ندت منه وسوسة هزت جسمه كله، وحاول التفكير في الأمور العملية، أراد أن يجد حلًّا لكيفية جذب انتباه الجميع إلى هذه الفكرة والتغلغل إلى عقولهم وسبر غور معتقداتهم وكيف يمكن مجاراتها. ثم تذكر ما كان دومًا يتراءى له من شبه بين طريقة تفكيره وبين طريقة تفكير الآخرين، واستخلص من هذا أن العبرة بالعمل: ‹أنا عملت، وعملي أظهر أن أفكاري مختلفة عن أفكار الآخرين›، وشعر بالارتياح وبأنه كان دومًا على صواب في كل مرة كان يفكر فيها أنه أفضل من أمثال رضا وجمال الهلالي ورءوف؛ ذلك لأن هنالك خطبًا فيهم، وأن الأمر

يتعلق بالغاية قبل الأفكار، فهي مجرد وسائل: ‹قد تتشابه الوسائل ولكن الغايات تختلف، وغايتي هي أسمى من غايات الآخرين›؛ ولذلك لم يستسلم قط رغم لحظات وأوقات كان التردد يهجم فيها عليه، نسبها إلى الضعف المقوي وأنها مراحل توقف للتأمل ثم اتخاذ القرار إما بالمضي قدمًا وإما بالتقهقر والاستسلام، ومصيره انتهى بالمضي قدمًا: ‹سقطوا كلهم وبقيت أنا›، انتشى بهذه الفكرة ورأى في نفسه الزينة التي لا يمكن أن تعدلها زينة أخرى؛ ولذلك سمى العجب زينة الاعتراف بقيمة النفس، ومنه تراءت له قيمته أبعد شأوًا من قيم الآخرين مجتمعين، ولكنه لم يعجب من ذلك؛ ذلك أنه تعب من أجل هذا وذاق الويل، صبر على كل هذا فنال، فكان حقه في الاستعلاء على قدر معاناته وشقائه الأولين، وحتى الألم كانت له غاية، وهي إسقاط الضعفاء ومن استمتع بالهوان وإعلاء شأن من بعدت همته وصبر على ويلات الليالي فذاق منها وتجرع المرارة لكي يذوق الحلاوة بعد ذلك.

في الصباح كان زهير قد سبقهم إلى العمل، فترافق بديع والزبير كعادتهما، وأمام مقر البلدية ألفيا جمعًا مثلما هو الحال كل يوم، اقتربوا منهما وتلقاهم بديع بوجه باسم، فشكوا إليه من أمورهم ما يمكن أن ينصدع له الرأس إلا رأس بديع، وجاراهم وكلمهم ونصحهم، ثم رافقهم إلى البريد والشركات الحكومية، وتفقد معهم بعض الطرق وبعض المنازل التي تهرأت بسبب الأمطار، وكأن بإمكانه أن يضع حلًّا للأمطار وأن يتحكم في السماء، ولكنه أعطاهم هذا الانطباع؛ انطباع أن لديه الحلول لكل المشكلات. ثم رجع ولأول مرة لم يجد أي جمع أمام البلدية، ولكن ما إن اقترب من

المدخل حتى ظهر له مصطفى بن عدي وكان وجهه قاتمًا وتعبيرات وجهه عابسة كلها. وحدس أنه يريد أن يتكلم معه في ما كان قد أوصى به الزبير قبل أن يفترقا ويدخل الزبير إلى البلدية في أن يرسل دورية شرطة إلى ضريح بياض من أجل حراسته، وأكد له صحة ظنه ما ند من وجه مصطفى من تكدر وغضب حاول إطفاءه من أجل الحديث ومعرفة ما يجري، فقال متسائلًا:

«**ما قصة الأمن الذي بعثته قبل ساعتين إلى الضريح الوثني؟ كنت أظن أنك ترى في ذلك المكان مكان خرافة لأنك لست متدينًا، أما الآن فأظن أنك متواطئ معهم دون أن أدري السبب. ما فعلته هو أمر جد خطير يا بن مسعود، سوف تندم، صدقني**».

«**هل ستمارسون العنف معي مثلما مارستم ذلك مع رءوف؟**».

«**نحن لا صلة لنا برءوف ولم نهتم به قط، سوف ترى**».

حاول رسم ابتسامة، وبعد أن ظهرت تكشيرة على محياه استدار ورحل تاركًا بديعًا في حيرة من أمره.

في اليوم التالي ذهب بديع لزيارة الضريح، وكان الهاشمي قد علم بذلك مسبقًا فأعد ما يشبه الحفل والتكريم، ولما بلغ بديع هناك وجد صخبًا كبيرًا والكل حوله فشعر بالغبطة وابتسم للجميع، ولكنه أظهر وجهًا حازمًا أيضًا وحتى عابسًا في الكثير من الأحيان علامةً على قوة -حسبه-. وبدا له الحشد هناك كبيرًا ولكنه لم يكن مثل الحشود التي تأتي من أجل الشكاوى، إلا أنه رضي رغم هذا مقدرًا أن هذا أول احتكاك له بالناس كحاكم للبلدة، وأن ما سيناله من تبجيل وتكريم في المستقبل سيكون أعظم. وبعد نهاية كل حفل كان بعض الأعيان يجلبون له أظرفة فيها مال وشيكات بنكية

فيرُدها، ولكنهم كانوا في كل مرة يخوضون معه محادثات حول طبيعة هذه الأموال، وأنها ليست من المال العام، وأن ذلك أقل ما يمكن لهم فعله كشكر وتقدير لما كان يفعله من أجل بلدتهم التي لا تزال في حاجة إليه، فينتهي به الأمر إلى قبولها، وعندما يختلي بنفسه كان يفكر بأنها ‹غنيمة حرب› لا غير. وكانت طموحاته تزداد كلما اطمأن على منصبه في تلك البلدة، الذي كان يطول ويقرب من العام حتى ليلة الظلام العام. انقطعت الكهرباء عن كل منازل وبنايات المأرب وقراها، واستمر هذا الليل كله ثم اليوم الموالي، وفي مساء هذا اليوم خرج الأهالي إلى الخارج وكانوا يتذمرون ويسبون الشركات الحكومية، ثم لم يعلم أحد كيف ولكن حركة جماعية بدأت بقلة ثم تضاعفت وكانوا متجهين جميعهم إلى البلدية بعد أن شاع أن بديعًا لا يزال في البلدية، وهناك أخذوا يصرخون، ولما لم يتبادر إليهم أي جواب أخذوا في التذمر مرة أخرى ولومه، ثم تطور الأمر إلى سبه، سبوه وأسمعوه هذا السب، فأخرج وجهه من نافذة في الطابق الأول وكان الشارع في الخارج ضيقًا ويمكنه رؤيتهم، وهم كذلك كان بإمكانهم رؤيته، ولما رأوه هكذا يتأمل فيهم صاح فيه أحدهم: «**انزل إن كنت رجلًا، لا تقعد في الداخل مثل النساء، انزل فقط وسنُريك**». ثم صاح آخر: «**ظللت تكذب علينا وتخبرنا بأنك كلمت الشركات والمسؤولين، واليوم تُجلسنا في الظلام بينما تنعم أنت في النور، انزل يا كلب**». «**لن يخلصك منا أحد اليوم، لا الوزراء ولا سيدك بياض أيها القبوري**». وميز بديع وهو ينظر إليهم صوت ثم وجه مصطفى بن عدي وهو يهدده، فاختفى من النافذة ودخل إلى الداخل واتصل بالشرطة، وأمرهم أن يحرسوا ويطوقوا

البلدية، وهو ما فعلوه بعد دقائق قليلة. وزاد الصخب فجأة وقدر أن قدوم الشرطة وتجاهله لهم قد استفزهم جدًّا، وتذكر سليمان دلول الذي كان يفعل نفس الشيء وتذكر كيف انتهى به الأمر، ولكن لم يَخَف؛ ذلك أنه كان موقنًا بأن مصيره غير مصائر الآخرين وأن أمره سينتهي بالظفر لا محالة.

بيد أن الظلام استمر في الليل، كما أن الحشد الذي كان حول البلدية ازداد وتحول وجوده هناك إلى حصار من أجل القبض على بديع –حسبهم– ومعاقبته مثلما فعلوا مع الآخرين. تعجب بديع من هذا، وكان قد خرج إلى النافذة وهو يكلمهم عن مطالبهم. ولما أدرك إصرارهم على النيل منه ومعاقبته، أقنع نفسه بأنهم يحسدون أمثاله ولا يطيقون أن يبقى، لما يمثله وجوده بالنسبة لهم من احتقار لأنفسهم وإدراك ضآلة تلك النفوس. وكلمه مصطفى بن عدي وأصدقاؤه وبعض سكان البلدة والرازي أيضًا، كما كلمه وسبه جمال الهلالي، فأيقن بديع بأن مؤامرة قد حيكت ضده وأنه سيتجاوزها ولن يعطي هؤلاء الفوضويين أية فرصة. وسمع الرازي وهو يدعو الجميع إلى الذهاب إلى كل ما يرمز إلى «**ذلك الصرح، صرح الاضطهاد، وإن لم تُعطِنا الشركات لا الكهرباء ولا الغاز ولا الماء فلن ينال هذا أحد**»، وهتف معه الآخرون موافقة، ومضى جمع كبير إلى هناك، ولكن الحصار استمر على بديع. وانفجرت فوضى أخرى في البلدة أقوى من سابقاتها بكثير، وكان ذلك في اليوم الثالث، وجد بديع نفسه فيها وحيدًا بعد أن رحل عنه زهير ثم اتبعه الزبير الذي برر سلوكه ذلك: «**بأني كنت مع الثورة، وعندما كنت أعمل معك كانت لديك المصداقية الثورية، أما الآن فيجب نزع**

الثقة منك، وإن أنت رفضت التنحي فسينحيك الشعب وأنا منهم»، ورحل بعدها. وانتشر كل ما كان يقوم به رفقة زهير والزبير، واتهمه الجميع بالفساد والمحاباة، ولمفاجأته فإن تلك الجموع أظهرت حقدها ضد الهاشمي ومن معه وضد الضريح، ومضوا إلى هناك لكي يهدموه وعلى رأسهم مصطفى بن عدي. وكانت تلك الفوضى أكثر فاعلية؛ ذلك أن السكان بدوا وكأنهم قد اكتسبوا خبرة طيلة أكثر من عام، وبدا النظام غير قادر على احتواء تلك الفوضى في جميع أنحاء البلاد؛ وذلك لخطورة تدخل الجيش في أمور مثل هذه قد ينتج عنها حرب أهلية، فتصدت الشرطة لكل هذا ولكن بدت عاجزة كذلك. ومر على بديع أسبوع في البلدية لم يغادرها، يأكل وينام هناك، ومن حسن حظه أن وسائل الاتصال لم تُقطع، وبذلك كانت له القدرة على متابعة ما يجري وإعطاء الأوامر التي اقتصرت في الكثير من الأيام على تأمين حياته من خطر الموت أو القتل من طرف الدهماء. بيد أن الأمر تفاقم، وكان في تلك الفوضى ما أزعجه واستفزه، حتى وإن فكوا الحصار عنه ذات مساء سبت وأصبح حرًّا، فإنه أراد أن يضع حدًّا لكل ذلك التخريب، فتشاور مع أعضاء الشرطة وأرسل إلى مركزين للدرك ليُعلمهما ما كان يحدث في منطقتين مجاورتين للمأرب، وفي اليوم الثالث من حريته انقضت الشرطة على الجموع المتظاهرة والمخربة، وبدأت في اعتقال كل من عثرت عليه أمامها. ومضى بديع وخطب في جمع كبير مهددًا كل من تسول له نفسه المتابعة في ذلك التخريب: «**يد القانون ستطول كل من انتهك النظام العام، سيعلم كل واحد منهم أن هذه البلاد لها من يحرسها، النظام أولًا ومن بعده يأتي الكلام**». وكان واضحًا أن الجميع أصبح

يخاف منه، وخصوصًا أن مصطفى بن عدي كان قد هرب بعد أن ضرب الهاشمي ومن معه ضربًا مبرحًا أدخلهم المستشفى، أما الرازي فكان قد خرج من السجن ومن معه على وجه غامض جدًّا. إلا أن الفوضى لم تخمد، وأراد بديع أن يتصدى لها بيد من حديد، فرفع سقف العزيمة على النيل من المخربين والترصد لهم، فكان أن هجمت قوات الأمن عليهم لمدة يوم كامل، وتفرق أغلبهم ولكن كانت الأقلية جموعًا كبيرة أيضًا، وكان منها جمع واحد اجتمعوا في بناية كانت تابعة لمديرية التعليم وكانوا قد أحرقوها ولم يبقَ فيها إلا الحيطان. حاصروهم هناك، ولما كان الحشد كبيرًا ولم يريدوا أن يقعوا بين أيدي قوات الأمن، راح أغلبهم في التدافع إلى الوراء ليروا إن كان هناك أية وسيلة للنزول وتفادي الشرطة، إلا أن ذلك التدافع كان كارثيًّا لعدم وجود أي حائط يغطي ذلك الجزء من البناية، وانتهى بسقوط العشرات ممن كان هناك من الطابقين الأول والثاني، ولم تستطع الإسعاف نقل الجميع فتدخلت عربات قوات الأمن لنقل الجرحى ومن سقط، وانتهى ذلك اليوم بفاجعة كبيرة أشبه بالمجزرة. فجع بديع أيضًا ولم يَدرِ ماذا يعمل، إلا أنه كان لا يزال يفكر في أهمية استتباب الأمن، فأَطلق الأمن مرة أخرى، ومرة أخرى أخرست الهائجين ومن تلذذ بالفوضى، ورأى فيها متنفسًا لغضبه وانتقامه. وأخرست البلدة فعلًا ولم يسمع إلا صوت النظام مرة أخرى. ولما رأى بديع ذلك ورأى التغير الذي نسب سببه إليه، فرح وأعجب بنفسه وذهب عنه كل ما كدره من تدافع البناية، وراح يمشي في طرقات البلدة باختيال وفخر كبيرين، وأصبح يفكر في أن الأزمات مثل تلك التي كانت تعيشها البلاد هي التي تميز بين الغث

والسمين، وتبرز الحاكم الجيد من الحاكم السيئ، ولم يعُد يهمه الدين ودوره، بل رأى أن ذلك كله حديث المترفين، وبينما هو مع والده في الفناء الأمامي بين منزلهم وبين الضريح تكلم الابن وأبوه حول ما كان يجري في البلدة، وأبدى مسعود وجهة نظره في أن العنف لا يجب أن يسيطر، وأن الإنسان في تلك الظروف يجب أن يكون حازمًا ويبتعد عن تلك الفوضى، فرد عليه بديع بنبرة من هو أعلم:

«**بل هذا هو عين البلية وما يمكن أن يساهم في تأزيم الأمر؛ إن اعتزل كل من لديه رأي وانسحب الحاكم عندما تسيطر الدهماء لا لشيء سوى إشباع غرائزها المدمرة والبهيمية، فماذا يبقى من نظام أيضًا؟ ومن يُرجع النظام إن حلت بدله الفوضى؟ مثل هذا الكلام هو جد انهزامي ولا يليق في هذه الأوقات، وبصراحة هو للأشخاص الذين ليس لديهم طموح في هذه الحياة، لا يمكن لأحد أن يعيش في هذه الحياة من دون طموح وينجح، فقط الطموح هو الذي ينقذ الإنسان ويجعل لحياته معنى، وكل ما خلا هذا هو أباطيل وكلام فارغ لحشو الرأس به**».

«**الإيمان بالله ينقذ، هو المولى وهو المعين، لا تخطئ يا بديع، وما ينتج عن هذا الإيمان من مسؤولية أخلاقية من مروءة وواجب هو ما يمكن أن يُرجع النظام في أي مكان. ولو كان لدى أغلب هؤلاء الفوضويين ولو قليل من تلك المسؤولية الأخلاقية من مروءة وواجب، لكان يمكن تفادي الكثير من الكوارث**». انضم في تلك اللحظات موسى، وكان يرافقه رضا الذي تبدلت ملامحه جدًّا وبدا أكثر جدية واختفى من وجهه تعبير الاكتئاب المصمم على الانتقام،

وراح الأخير يعلق على كلام مسعود وإن بدا كلامه محاولة لاستدراج الأخير للتكلم أكثر، ومنه نيل صورة أوضح حول ما كان يجري:

«**ولكن هؤلاء يا عمي مسعود مقيدون بحتميات فوق طاقتهم، هم يرون أنفسهم يعيشون حيوات مريرة وضنكًا، وكل يوم هم تحت ضغوطات كبيرة، وفي نفس الوقت يرون آخرين ينعمون بالحياة الفخمة والمزدهية بكل زينات الحياة، طبعًا ما دفعهم لتلك الأعمال هي أمور لا يمكن الإلمام بها كلها**».

«**لا يا رضا، هم الذين رفعوا سقف رغباتهم، وهم الذين وضعوا أنفسهم تحت الضغوط؛ أن يخرجوا ليحاربوا الفساد فهذا أمر مفهوم، ولكن أن يفسدوا هم أنفسهم فسادًا عظيمًا فهذا أمر لا مبرر له**».

«**كل هذا كان أمرًا من أجل تغيير؛ لأن ما كان قبل هذا بدأ بالضعف وكان يستحق الأفول، أما الحديث عن الدين والأخلاق فلا يجوز الآن، لا يمكن أن تتعامل مع الحيوان بالأخلاق وهو هائج، كما أن الدين والأخلاق هما وسيلتان تُستعملان في السلام من أجل صيرورة النظام والحياة ككل، أما في هذه الأوقات فلا مكان لهما، وفقط المجنون والمنتحر هو الذي يثق بهما**» تكلم بديع مرة أخرى.

«**فقط الزمان هو الذي سيُريك يا بديع يا ابني، ربي يهديك، هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك**». لم يرُد بديع، وبدا أن كلام والده أخجله وأحس بالعار، ولم يَدرِ لماذا. وكان وحيد الذي انضم إليهما حديثًا يحدق في والده بعينين متأملتين، ثم نظر إلى اليمين وسأل والده عمَّا سيفعله بالضريح، فرد عليه: «**سنبقي على القبر فقط**».

«**ألم تقُل يا عمي مسعود إنه يجب عليك الانتظار حتى صدور الحكم؟**» سأل موسى، فأجابه مسعود بأن الحكم كان قد صدر لصالحه، وأنه سيشرع في تهديم الضريح غدًا.

«**ولكن لا يمكنك فعل هذا يا أبي**» رد بديع بذهول، «**ماذا يقول عني الناس؟ أنا منعت السلفيين من هدم ضريح بياض، والآن أنت تريد هدم ضريح ولي وهو من أجدادنا؟!**». لم يُجبه مسعود وطلب من وحيد أن يدعو بعض معارفهم لمساعدتهم، فأومأ وحيد برأسه؛ وهو ما أدهش بديعًا الذي ظن أن وحيدًا سيعترض، وبدا له الجو هناك وكأنه يكتنفه الكثير من الغموض، كما شعر بالضعف أيضًا وكأن النظام كان مستتبًا هناك؛ وهو ما أزعجه فاستأذنهم ورحل من هناك بسرعة، رحل ورياح تغيير وعاصفة بدت وكأنها تلوح في الأفق، ولأول مرة توجس من المستقبل خيفة، وأحس وكأنه على أرضية هشة ستنهار من تحته في أية لحظة.

12

حاول موسى حث الخطى أكثر والإسراع في مشيه؛ عله يصل إلى منزله مبكرًا، وكان الوقت متأخرًا بعض الشيء، كان العمل الذي يعمل فيه يأخذ جل وقته، ولكن كانت تلك الليلة استثنائية لبقائه وحيدًا مع زين العابدين فقط في المحل يُدخلان السلعة الجديدة. كان قد مضى أكثر من عام وهو يعمل مع زين العابدين، وشعر بالراحة في عمله ذلك، ومع زين العابدين نفسه؛ ذلك أن الأخير هو من بحث عنه بعد أن سمع عنه ما يغبطه من مسعود الذي أخبره عن سلامة طبعه وتوفره على خصال كان يحتاجها، منها الصدق والأمانة. كان عليه أن يركب في الحافلة التي تأخذه كل مساء إلى أولاد مهدي أين كان يسكن مع زوجته منال وابنته الرضيعة، وفي ذلك اليوم الشتوي لم يستطع الخروج من محل زين العابدين إلا مع صلاة العشاء التي صلاها في الجامع، ثم أخذ في المشي يريد أن يقطع الخمسة كيلومترات التي تفصل البلدتين بعد أن أدرك استحالة إيِجاده أي شخص يمكن أن يوصله إلى هناك. بلغ أولاد مهدي، ولم يكد يدخل السوق هناك حتى بدأ المطر بالهطول، فمضى نحو ممر محلات مغطى يريد الاحتماء من المطر. راح يراقب هطول المطر

والسماء المرعدة، وتذكر عائلته التي كانت تنتظره وما حضَّرته منال من عشاء لوالدها ولأشقائها، ثم انتبه إلى أكياسه التي وضعها على الأرض، وراقبها ثم رفع بصره نحو السماء مرة أخرى وتأمل ذاته، فشعر بالراحة والطمأنينة، ولكن هذا لم يدُم طويلًا بعد أن تبادر إلى مسمعه صوت مألوف كدَّر مزاجه مباشرة دون أن يعرف السبب، وما إن استدار ليرى المتكلم حتى ألفى الرازي يتقدم نحوه بابتسامته السمجة والمغرورة. حيَّاه فرد موسى التحية بنبرة باردة، ولما كان رافعًا رأسه ينظر إلى السماء فعل الرازي نفس الشيء، ولكن بدا عليه عدم الاكتراث فعلق مباشرة:

«**مطر غزير، أليس كذلك؟**»، ابتسم ثم انفجر ضاحكًا وأردف قائلًا: «**طبعًا هو مطر، يا له من كلام غبي! مطر غزير، هاها، في بعض الأحيان أتفوه بأحمق الكلمات والجمل، أعتقد أني في الكثير من الأوقات أتكلم دون سابق تفكير، ولكن لعل هذا ناتج من اقتناع داخلي بأن هذه الحياة مغامرة وهي أيضًا مقامرة، يعني يجب أن تتخذ القرارات سريعًا وإن كانت مضحكة، ثم انظر إليَّ، إني أبلي بلاءً حسنًا؛ ولذلك فإنه لا عيب في هذه الطريقة الحياتية وإن بدت مظاهرها في بعض الأحيان مضحكة**».

«**ماذا تريد يا الرازي؟**» سأل موسى دون أن ينظر إليه.

«**لا شيء، ولكن أمرك يحيرني فعلًا، جئت إلى هذه البلدة من أجلك، كنت أمني النفس بأن نعمل معًا وأن نصنع المعجزات، ولكنك خيبت أملي، لا أدري ماذا حصل لك. كنت أفضلك عندما كنت تعذب نفسك وتحتقر المجتمع. أنسيت ما فعلته في مدينتك؟ لقد أدركت في الآونة الأخيرة أن الكلام لا ينفع معك، وأن إقناعك

بالكلمات هو عبث، ولكن أريد تحذيرك من أن براءتك من تلك القضية التي حدثت في مدينتك ليست أبدية؛ يعني يمكن التنقيب عن الأشياء والقول إن الفتى الذي مات في الحريق الذي نشب في محلك، بينما كنت في الخارج وصديقك الذي كان يكلم جارًا له، كان عن عمد ومن تخطيطك. نعم، أستطيع فعل ذلك».

«**افعل ما بدا لك يا الرازي، لا يهمني أيٌّ من هذا**». لم يرُد الرازي، واستمر في التحديق في موسى الذي كان أطول منه وأقدر على تجاهله.

«**يا لها من مفاجأة! إذًا لم تعُد تلوم نفسك ولا تكره نفسك من أجل هذا، وهجرت الطواف في البلدات والقرى من أجل ذلك العجوز المسمى بمسعود؟ هو فعلًا ذكي، لا أدري ما الذي يفعله، ولماذا هو بعيد عن العمل الثوري، ولكنه كان ليكون زعيمًا فذًّا دون أي شك. لماذا لا تكلمه عني وعن عملي؟ لقد كنا جارين وصديقَي طفولة يا موسى، لماذا لا تساعد صديق طفولتك؟**»، لم يرُد موسى، فاقتحم الرازي الأمطار الغزيرة –حسبه– ووقف أمام موسى وخاطبه قائلًا: «**أعرف ما يمكن أن يجعل مسعودًا نفسه ينضم إليَّ، سر عظيم يتعلق بعائلته. أنا لست هكذا في العادة، لست لئيمًا ولا أبتز الناس، ولكن الضرورة الثورية تلزم هذا. أراك انتبهت فجأة وكأن الأمر أصبح يهمك، نعم، ما أعلمه يمكن أن يفضح مسعودًا وآله وقد يهجرون المنطقة برمتها، ولن يكون بوسعه فعل أي شيء، قد يدخل السجن أيضًا لأنه يتستر على جريمة كبيرة في بيته**».

«**يا لك من حقير يا الرازي! اسمع، ابتعد عنهم وإلا نالك مني ضر كبير، إني أحذرك**».

«ابنه بديع أيضًا يمكن أن يساعدنا، أثبت أنه جد حازم والجميع يخاف منه هنا، لقد فعل كل شيء من فساد وترهيب ولكن مع ذلك يبدو أنه سيفلت من العقاب، في الحقيقة لقد أفلت منه. يمكننا أن نحكم هنا فيكون الأمر بداية سطوع نجمنا، لا تخدع نفسك، نحن نعمل من أجل مسيرة طويلة لا تتعلق بالسنوات القليلة التي يمكن أن تأخذها هذه الثورة، ثم إننا لسنا ممن يدعو إلى الاشتراكية ولسنا فوضويين كذلك؛ نحن عباد دين الجسد، نريد للإنسان أن يكون إنسانًا وكفى، نريد قانونًا يكفل للجميع حرية المعتقد وما إلى ذلك، ولكني صادق جدًّا وسأخبرك ما يعني هذا؛ يعني ببساطة أن تكون هناك حرية جسدية، فلا تكون إرادة إلا إرادة الجسد، لا رادع أخلاقي ولا ديني ولا أي من هذا الكلام، تصبح الأخلاق محصورة في حماية الجنس البشري، ومنه نبذ العنف وإعطاء الحرية للجميع، لأن هذه هي النزاهة؛ أن تستمتع وأن أستمتع أنا بهذا الجسد، أما الدين فهو عبادة إله يمثل تقديسًا للجسد. وكل هذا لا يمكن أن يكون إلا من خلال مجتمع منتج، أي المادة هي التي ترفع من معايير الرغبات وتُبقي الإنسان في ركض دائم وراءها دون التفكير في مصير بعد الحياة أو من هذا الكلام. لذلك ترى أنني دائمًا في حرب معكم، وسأنتصر». لم يُجبه موسى وانطلق في المطر أيضًا بعد أن حمل أكياسه ومضى نحو بيته والرازي يصرخ وراءه: «**أخبره بما قلت لك يا موسى، سأنتظركم الأسبوع القادم، وإن غدًا لناظره قريب**».

وما إن بلغ منزله حتى ذهب عنه كل التكدر الذي سبَّبه له الرازي، واستقبلته زوجته وهي تسأله عن سبب ابتلاله شبه الكلي،

وهو يجيبها بأنه كان عليه أن يركض في المطر وإلا فلم يكُن بمقدوره القدوم أبدًا. ولما ولج الردهة الصغيرة تنامت إليه أصوات من غرفة الجلوس، ففتح الباب ودخل وألفى مسعودًا وبديعًا ووحيدًا جالسين على كنبتين متقابلتين. سلم عليهم وسأل عن سهام، فأخبروه أنها في المطبخ، فجلس معهم وهو يسأل عن حالهم ومنذ متى هم هناك.

«**أتينا بعد صلاة المغرب، انتظرناك طويلًا، ولكني لم أُرِد أن آكل حتى تأتي، وهم أيضًا لم يأكلوا ولكنهم تذمروا طوال الوقت، وخاصة بدُيع**» تكلم مسعود ثم ضحك ضحكة خفيفة، فأجابه بديع بأنه لم يكُن غداؤه جيدًا وأنه كان يتشوق إلى هذا العشاء. وبعد أن أقبلت منال وسهام بدؤوا في الأكل، وراحت سهام تفتح باب الحديث عن الزواج: «**وحيد لا يجب أن يبقى هكذا، لقد طال أمره، لماذا لا تُزوجه يا أبي؟**».

«**أنا أيضًا أريد أن أتزوج، ثم إن هذا سينظمني كثيرًا، أحب النظام. وأصدقائي ممن هم في سني تزوجوا جميعهم، يعني لم يبقَ إلا أنا ووحيد في المأرب**» علق بديع ووافقه مسعود، ولكن وحيدًا بقي صامتًا وإن أومأ برأسه وبدا منغمسًا في الأكل وهو يطلب الفلفل والملح وكل ما أراده ممَّا كان يلي الآخرين. ثم خاضوا بعده في حديث البلدة وما اكتنفها من فوضى، وما انطوت عليه تلك الفوضى من عراقيل في حيواتهم، فتكلم مسعود معلقًا على هذا الكلام:

«**الصبر هو المفتاح في جميع الأزمات، مفتاح الفرج والتنفيس عن الكرب. ثم إن الإنسان معرض لجميع ألوان البلاء، فيكون بين خيارين لا ثالث لهما؛ إما الصبر والتمسك بحبل الله، وإما الاستسلام والنواح والبكاء، فالصبر هو عمل على عكس ذلك**

الاستسلام الذي يمنع من الحركة، وهذا ينطبق على زمن الأزمات مثل هذا، فإن تصبروا تؤتَ لكم وسائل العمل، وبذلك تستطيعون العمل وكسب الرزق والزواج، وإن تستسلموا لا تفعلوا من هذا أي شيء، وإن فعلتم أي شيء فذلك لا يتجاوز الفوضى مثل ما يفعله أغلب أهل البلاد الآن».

«**ولكن الإنسان له طاقة معينة على مواجهة المصائب يا عمي مسعود**» تكلم موسى بصعوبة ولكن لم يَبدُ عليه أي توتر، «**وعند نقطة معينة يجد نفسه غير قادر على المواصلة، وتنوء به تلك المصائب، وقد يموت كمدًا بسببها**».

«**كل هذا بالنسبة لي ما هو إلا ضعف**» تدخل بديع وقد بدا أن ذلك الموضوع قد أزعجه، «**ثم ما الذي يمنع أي أحد من مواصلة المسير، وما هي الحياة إذا لم نعِشْها إلى آخر رمق؟ الحياة هي هبة فيجب أن نحسن استعمالها، وليس للإنسان في هذه الحياة سوى العمل والنجاح وبلوغ المعالي وشَغْل أبرز المراتب**».

«**ليس للإنسان إلا ما سعى في هذه الحياة، وسر الصبر هو القرب من القدوس، والاستسلام هو غلبة كفة الانغماس في معايير هذا العالم. حتى من تسميه أنت يا بديع القوي المستعلي، يسقط ويكون مصابه أفدح من ذلك الذي سميته الضعيف؛ لماذا؟ لا أستطيع شرح ذلك الآن، ولكن كفة الدنيوي تبوء بالخيبة دائمًا**».

«**لن يحدث أيٌّ من هذا معي، أنا أعرف كيف أمشي، ليس هذا لأنني خارق، ولكن لأن هناك قوانين يجب عدم الحياد عنها، وأمثلة في التاريخ البشري تبين أن الإنسان وحده دون أية أوهام قادر على تحقيق المستحيل، هذه القوانين هي لمن توفرت فيهم**

ملكة عقلية تحكمها إرادة قادرة على تمييز ما هو نافع ومقوٍّ، وما مآله الخيبة مثلما قلت».

«**ليس هذا وقت الحديث عن السياسة، وهذا الكلام غير المفهوم، المهم أن يتزوج وحيد في أقرب الأوقات**». أنهت منال المناقشة وتحول الحديث مرة أخرى عن قص قصص مَن تزوج حديثًا ومَن خطب ومَن لا يريد الزواج بالرمة، ونظروا إلى وحيد، ولكن الأخير أبدى عزمًا على دخول تلك الحياة، فكان ذلك مصدر ارتياح بالنسبة لهم.

وعند رحيلهم لم يرحل بديع معهم، وبقي في منزل أخته يُحدث موسى، وراح يقص عليه ما استجد في حياته من تقرب بعض الأحزاب منه والعروض التي تلقاها، والتي كان جميعها تعبيرًا عن مدى نجاحه وما أحرزه وحده -حسبه-. ونحا موسى نحو مسعود ولم يرُد على كلام بديع الذي ارتاح إلى حججه وإلى طريقة تفكيره، ولكنه تجاهل طبيعة وقع ذلك الكلام على مستمعيه، وبدا هذا علامة عن تعمد من طرفه لما يعده حسن تصرف، وأن الالتفات إلى أفئدة الآخرين والشعور بالشفقة لها يمكن أن يؤدي به إلى التهلكة. فكان كلامه على نسق واحد إلى أن شعر بالتعب، واستأذن موسى معللًا بأن لديه اجتماعًا في الصباح الباكر، ورحل تاركًا موسى وحده غائصًا في أفكاره ولجج الهواجس التي كانت تقذف به هنا وهناك. وراح يفكر في ما أخبره به الرازي، ثم قارن بين ذلك الكلام وبين ما رآه في تلك الليلة من بهجة وغبطة عمَّت أفراد العائلة، فبدوا كمن لا يمكن أن يصيبهم سخط الزمان ولا أن تدركهم أيدي النائبات، فبدا له كلام الرازي غريبًا وكأن الواقع يدحضه ويجعله مجرد كلام

يُدوَّن في صحيفة أخبار يختلط بها الكذب بالصدق وقد يصدقها الناس، ولكن ذلك لا يفتأ أن يزول عن الذاكرات ويصبح دعابة أو حتى محاولة تشهير لا غير. فكر في هذا حتى خامره النعاس، فأراد القيام من هناك والذهاب إلى غرفته، ولكنه لم يستطع واستسلم لذلك الخمول حتى تناوله النوم.

لم يرَ بعد ذلك اليوم الرازي لأيام، ولم يتعجب من ذلك؛ لأنه لم يكُن يلتقي به كل يوم ولا يمكن أن يجمع بينهما أي شيء سوى الصدف. شعر بالراحة من تلك المصادفة الجميلة والمتكررة التي أخفت عنه محيا الرازي وأصحابه، ولكن الخوف الذي أحدثه الرازي داخله لم يختفِ. وكان أن حدث ذات يوم أن تجمع حشد كبير في الرحبة قبالة السوق، وبعد أن استفسر موسى عرف أنها كانت مظاهرة، ولكن لم يتجرأ أحد على مغادرة الرحبة بعد أن قدمت قوات الأمن بسرعة، وعلم الجميع أن ذلك كان من صنع بديع. بدا ذلك التجمع غريبًا، وأغرب منه كان سبب التجمع، وكان قد أخبره به جار له صاحب محل للدهون شارحًا: «**ألم تسمع بما حدث البارحة؟ وجدوا طفلًا مقتولًا في حي الهلاليين، وهو ابن جمال الهلالي، وجدوا جثة المسكين في ساحة بالقرب من منزلهم يلعب فيها الأولاد. والآن كل هذا الحشد هو من أجل توفير الأمن ووقف سيل الفوضى الذي لم يتوقف منذ أشهر عديدة**».

«**ولكن أرى في كل يوم فوضى أن أغلب من يقوم بها هم غالبية من يتظاهر هناك، يعني عندما نفسوا عن غضبهم أدركوا أن هناك فوضى، ومن الذي أشعلها أول مرة وأعطاها ذلك الطابع المتطرف؟ أليس هؤلاء أنفسهم؟**».

«لا، ما فعله الشعب كان مجرد التجمع السلمي، أما من قام بكل تلك الفوضى فكانوا من الشباب المارق، وأغلبهم في السجن. ولكن البعض منهم عندما لم يستطيعوا فعل أي شيء، بعد أن ضيَّق عليهم الخناق بديع بن نوح، أصبحوا يقومون بهذه الأعمال القذرة بغية الإرهاب ولإحداث الفتنة أيضًا». لم يرُد موسى وراح يراقب ذلك الجمع الكبير، ولاحظ أن مجموعة كبيرة نسبيًّا كانت تقترب من أفراد الشرط، وبدا كل من كان في تلك المجموعة هائجًا، وكانوا يوجهون لهم كلامًا خمن موسى أنه لم يكُن سوى سب وشتم، ولم يندر من أفراد الشرط أي رد فعل إلا عندما يتقدم بعض أفراد تلك المجموعة الهائجة أكثر منهم، فيُرجعونهم إلى الوراء بالتقدم نحوهم، وهو ما يثير الهلع في المجموعة فتتراجع بانتظام ينظمها ذلك الهلع. أطلق بصره نحو تلك المجموعة فميز الرازي فيها، وبدا يكلم أفراد تلك المجموعة، وكان هناك رجال ونساء بدوا وكأنهم حفنة من المهرجين وعلى رأسهم الرازي. خطر بباله هذا التشبيه فابتسم، ولكن ابتسامته انمحت عن وجهه فجأة بعد أن خيل إليه أنه رأى شخصًا مألوفًا في تلك المجموعة كان في مؤخرتها ولكنه كان يقترب معها، وحدث أن المجموعة اقتربت أكثر، ولكن الشرط لم يحركوا ساكنًا، ولما كادوا أن يتلامسوا راح ذلك الرجل المألوف لموسى يجري نحو أحد أفراد الشرط بعد أن أخرج يده من جيبه، وبدا أنه ممسك بشيء ما، ثم انقض على أحد أفراد الشرط وتراجع إلى الوراء بسرعة. سقط الشرطي ومضى بعض رفاقه نحوه، ثم انهال شرطيون آخرون على من كان أمامهم من تلك المجموعة ضربًا، ثم أمسكوا ببعضهم وأخذوهم إلى عربتهم. ثم رجعوا وفعلوا نفس الشيء،

وكان الشرطي الذي سقط قد أُخذ في عربة إسعاف وبدا أنه مصاب، ولم يمسك أحد من الشرط بذلك الرجل القصير والمألوف والذي رجع نحو الجمع المتظاهر وبدا أنه رجل فوضى ومشاكل وحتى مخرب. وراح موسى يبحث في ذاكرته عن هوية ذلك الرجل ولكنه لم يهتدِ إليها، ثم توقف عن البحث ورجع إلى داخل المحل، وبعد ساعة انفض الجمع المحتشد وخلت الرحبة من الجميع. وفي ما عدا ذلك الحدث في الرحبة بدا اليوم عاديًا جدًّا حتى لحظة رحيل موسى من عمله؛ لم يكد يخرج ويغلق المحل حتى تفاجأ بأحدهم يدعوه باسمه فاستدار، ولمفاجأته وجد نفس الرجل المألوف والمخرب واقفًا أمامه، حدق فيه مليًّا ثم تذكر فأدرك فسرت رعشة خفية في كل جسده، وبدأت أمور كثيرة تحتشد في رأسه، حاول مجاراة سرعة تلك الخواطر وما كان يحدث أمامه، ثم تأمل الرجل مرة أخرى الذي كان عابسًا وهو ينظر إليه بعينين جاحظتين ومحتدتين. لم يجد ما يقول وبقي متصلبًا في مكانه لا ينوي الحركة ولا تند منه أية تعبيرات سوى ما يشبه الصدمة، وراح الآخر يبتدر الكلام، وألقى السلام على موسى الذي رد السلام بنبرة طبيعية ثم سأله عن هويته فأخبره الآخر من هو.

«**لماذا أنت هنا؟**» سأل موسى من جديد، ولم يكُن يريد أن يضيع المزيد من الوقت.

«**هذا ليس من شأنك، ثم إن الذي جلبني إلى هنا أمر يهمني أنا وحدي، حسنًا؟ ويهم من له علاقة بالأمر وإن على وجه مختلف**».

صمت واستمر في التحديق في موسى الذي آثر عدم التكلم مباشرة والانتظار إلى حين يفصح الآخر عمَّا جاء من أجله، ولكن الآخر لم يتكلم فراح موسى يستفسر من جديد:

«وكيف عرفت اسمي؟ ومن دلك على مكاني؟ أظن أنه الرازي، يبدو أنه تجمعكما علاقة صداقة متصلة الآن. يثير هذا الأمر استغرابي وفي نفس الوقت يبدو لي جد طبيعي».

«يبدو أنك أصبحت تعرف ما هو طبيعي الآن، أما الرازي فله شأن مختلف. أنا هنا لغرض شخصي يخصني أنا وحدي، وأعلم اسمك من الأظرفة التي كنت ترسلها إليَّ وإلى ابنتي، كان مدونًا فيها اسمك، أم نسيت هذا أيها الذكي؟ لعل الحياة الطبيعية التي أصبحت تعيشها الآن في هذه البلدة جعلتك بليدًا وتنسى كل ما كنت تفعله، لقد قص عليَّ الرازي قصتك بالتفصيل الممل». لم يُجب موسى، وكان وجود الرجل السمج مزعجًا له في تلك اللحظة، وكلامه أسمج وأكثر إزعاجًا، وبدا وكأنه يجهل كل ما يتعلق بالسلوك الحميد وكيفية التعامل مع الآخر، وبدا معتنقًا للَّا أخلاق، وهو ما جعل موسى يستعد لأيٍّ ممَّا يمكن أن يطرأ من ذلك الرجل. وتذكر كلام الرازي وتهديده حول سر مسعود بن نوح، فازداد حزمه ونظر إلى الرجل من عل، ثم خاطبه:

«اسمع، لا يهمني سبب مجيئك إلى هنا، ولكن صداقتك للرازي وكلامك المزعج يجعلانني أستبعد أية فكرة يمكن أن تجول في خلدي حولك أو حوله، ما جمعنا كان يتعلق بابنتك، والوعد الذي وعدتك به لا يزال ساريًا ولم أخلفه، يعني ليس لنا ما نتحدث فيه سوى إلقاء التحية أو الكلام الطيب».

«إذًا أصبحت مثل ما أخبرني به الرازي، رجل أسرة ومتدينًا وعاملًا كادحًا، هذا النفاق لا يمكن أن ينطلي عليَّ، لا نفاقك ولا نفاق من تخالطهم. أنا أذكى منكم جميعكم، ولن يصمد أحد

منكم معي، ولكن تظنون أنفسكم الأقوى والأذكى وأننا عبيد لديكم تفعلون بنا ما تشاءون. ولكن هذا انتهى؛ الآن وما يجري في البلاد، الجميع بإمكانه أخذ حقه، وسآخذ حقي وأكثر من حقي؛ ذلك أنه لا ينفع معكم سوى القوة». صمت وكان جسمه القصير يبدو وكأنه قد اختُزل في عينيه اللتين كانتا تحدقان في موسى وكأنهما تريدان التهامه.

«**كيف حال ابنتك؟**» سأله موسى الذي لم يستطع كبح نفسه بعد أن شعر بخوف حول مصير الرضيعة، وبدا وكأنه ينتظر خبرًا سيئًا من ذلك الرجل.

«**لقد ماتت**» قال هذا ثم صمت بعدها لبرهة، ثم استأنف بعد أن نظر إلى جانبه الأيسر نحو حانوت محاذٍ لحانوت زين العابدين: «**أصيبت بالحمى منذ أكثر من عام، فلم أجد طبيبًا، وحتى لو وجدت طبيبًا فلم يكُن لديَّ المال الكافي لشراء الدواء لها، وفي البلدة أين كنت أسكن أنا لم يكُن يثق بي أحد، كانت قد كبرت بعض الشيء فلم تعُد رضيعة، وذات صباح بعد أيام من مرضها اقتربت لأتفقدها وكنت قد بتُّ الليلة خارج الغرفة، وما إن رأيتها هادئة حتى أدركت الأمر، تفقدتها فوجدتها قد ماتت. كانت شفتاها ذابلتين وقد اختفى من وجهها كل تعبير إلا تعبير الموت الذي بقي، وكان الذباب يحلق فوق ذلك الوجه الباهت، فوقعت على الأرض واستغرقت في التفكير لساعات طوال. دفناها ولم يأتِ لجنازتها سوى قلة قليلة، طبعًا لو كانت ابنة رجل غني أو حتى من عائلة محترمة لكانت الجنازة مختلفة ولكانت جموع غفيرة قد قصدت الجبانة لتصلي عليها، ولكن ابنة من هي؟ ابنة متشرد كان قد تعلم في عمره الأول حتى قد نال أسمى المراتب العلمية، ولكن**

فقره حال دون أن يتقدم». توقف مرة أخرى عن الكلام، وكان إسهابه في الحديث قد أعطى موسى فكرة عمَّا كان ذلك الرجل يفعله في تلك اللحظة، ولماذا تكلم عن كل تلك الأمور وهو واقف في ذلك السوق حول كلام شخصي ولا يمكن الحديث عنه إلا في غرفة أوِ مكان هادئ، ولكن موسى حدس أن الرجل لم يعُد يستطيع، ولم يكد يراه ويلتقي به حتى مضى في الحديث على ذلك النحو. ولكن لماذا هو؟ لعل شعورًا بالأبوة –أبوة موسى نحوه– هو الذي جعله يختاره ويسرع في البوح بمكنونات صدره وأسرار حياته. ولذلك كان فظًّا معه فظاظة الابن مع والده؛ لأنه لم يجد أي شخص آخر يعاقبه ويلومه على ما كان يحدث معه من إخفاق:

«**إن كنت تتساءل عن المال الذي كنت ترسله خلال العام الأخير، فدعني أصارحك بأني كنت أنفقه على نفسي. ولمَ لا أفعل ذلك؟ أعني أنه حقي، نعم هو حقي. ومن أمرك أن تتدخل في حياتينا أنا وابنتي؟ ولكن هذا لا يهم الآن، ما يهم هو ما جئت من أجله، وموت ابنتي جاء في وقته؛ كنت لأفعل شيئًا أحمق، يبدو أن نساء عائلتنا لا حق لهن في الحياة لأنهن لا يعرفن كيف يعِشن، يعرفن جلب العار لنا فقط، يعني أن الله رأى هذا وأخذ ابنتي، يعني أن ما كنت سأفعله كان صوابًا حتى مجيئك، لم تفعل سوى إطالة معاناتها لا غير**».

«**أنت لا تفكر جيدًا، يجب عليك أن تعيد التفكير في كل شيء، لماذا تلومني أو تلوم غيري؟ رحم الله ابنتك، لا أدري ماذا أقول. أما عن سبب قدومك إلى هنا، فسبق أن قلت لك إن هذا ليس من شأني، لقد قلت لي هذا أنت بنفسك**». وتحرك مبتعدًا عن ذلك

المكان، وكان الرجل لا يزال واقفًا ينظر إليه ثم تحرك في مكانه مع حركة موسى، بدت نظرات الرجل التي كان يوجهها إلى موسى نظرات كره، هكذا فسرها موسى ولكنه لم يتوقف، وسمع الآخر يسبه ولكنه لم يلتفت إليه ومضى في طريقه.

أمضى المساء كله ضحية لقلق رهيب وتوجس من كل شيء، وكان عصبيًّا ولم يكلم أحدًا حتى زوجته، وخنقته أفكار عديدة أحاطت به؛ فكان كلما حاول التفكير في أمر ما، سيق ذلك التفكير بسببٍ ما نحو خيالات تتعلق بالرازي وذلك الرجل. ولكن بعد صلاة المغرب، شعر ببعض الراحة وتعشى وانتظر حتى أذان صلاة العشاء الذي قام بعده مباشرة واستعد للخروج إلى المسجد، وقبل أن يضع ملابسه سمع طرقًا على الباب، سألت منال عن الطارق ولكنه أجاب بأنه يريد موسى. مضى موسى نحو الباب ولما فتحه وجد الرازي هناك، تفاجأ ثم أعقب المفاجأة شعور بالغضب من تمادي الرجل وقدومه حتى منزله، خرج موسى مباشرة وتبعه الرازي، وأخذ الأخير في سؤال موسى:

«**هل التقيت بالطيب؟ هو شخص فريد من نوعه، أليس كذلك؟ قلت لك إن آل نوح ليسوا كما يبدون، أخبرني أيضًا بقصتك وقصته، يا لها من قصة فعلًا! ماذا رأيك في ما قاله لك؟**».

«**اغرب عن وجهي يا الرازي، لا أريد أن أراك بعد الآن**».

«**بل ستراني، وستكون أنت الذي يأتي للبحث عني، سترى هذا يا موسى، لستُ ذليلًا مثلما تتخيل، لديَّ كرامة ولكني أريد أن أصل إلى هدفي، وسأصل إليه، لا تقلق**». لم يُجبه موسى ودخل إلى المسجد وترك الرازي عند المدخل وهو يراقبه، ولم يرَه بعدها ولم يُرِد أن يراه ولا أن يرى الطيب، وبعد أن صلى نسيهما ونسي كل ما يتعلق بهما.

ولم يكَد يمضي يومان، وبينما هو يساعد مسعود بن نوح ووحيدًا في هدم الحائط المتبقي من الضريح، رأى الطيب من جديد وقد دخل حمى أرض آل ابن نوح. واستغرب رؤية الأطفال وقد جفلوا فجأة لمرأى الطيب، وراح يحدق فيهم الأخير، وبدا وجوده وتحديقه فيهم قد أرعبهم كثيرًا، وهو ما حدا بهم إلى أن ينظروا حولهم ثم الاحتماء بوجود مسعود بعد أن تفطن لما كان يجري. أخذ الطيب في النظر حوله، وتفحص كل ما وقعت عيناه عليه، وكان موسى قد امتعض كثيرًا من وجود الأخير وشعر بأنه أصبح – هو والرازي– إزعاجًا لا بد أن ينتهي، لم يقُل أي شيء، وفعل نفس الشيء بأن انتظر الطيب في أن يقول أي شيء ويعرفه عن نفسه. ولم يتوقف الأمر على الشعور بالانزعاج بالنسبة لموسى، بل تجاوزه إلى الشعور بالتوتر وحاجة حتمية إلى التكهن بما سيجري، فراح عقله يتكهن بالأسوأ؛ ذلك أن أمثال الرازي والطيب لا يأتي منهم سوى الشر وكل ما هو محبط ومنغص، ومثال ذلك ما كان يتوقعه في تلك اللحظات؛ تيقن من استعمال الرازي للطيب لابتزاز مسعود، ثم رُمي الأخير في هاوية مشكلة عويصة مثلما كان يفعل دائمًا. وبدا مسعود وكأنه فهم ما كان يحدث ولكن دون أن يبلغ فحوى الأمر فعلًا، فأرسل وحيدًا إلى أحد جيرانه في المأرب وطلب منه أن يدعوه الآن، استمع الطيب لكلام مسعود مع ابنه، ولما أخذ وحيد في مغادرة المكان رمقه الطيب بنظرات غريبة توقف لديها وحيد ثم سأله: «**ما قصتك يا سيد؟ لماذا تحدق هكذا؟**».

«**لا شيء، أعجبني المكان فقط، يبدو أنه مكان لا يطول المكوث فيه**». رد الطيب وهو يبتسم ابتسامة مَن دبر أمرًا وينتظر وقوعه.

«هو ليس للمتشردين، وفقط أصحابه يمكنهم المكوث فيه ما شاء الله».

«مرحى لهم إذًا، ولكن يبدو أن مشيئة الله لا تطول لبعضهم».

«ومن أنت لتتدخل في مشيئة الله؟».

«أرى الرؤى، وأقرأ الطالع، وأفك الطلاسم، ولي معارف أخرى». لم تفارقه الابتسامة الكائدة، كما أن وحيدًا لم يرُد عليه، وحدس أن بالرجل لوثة فأعرض عنه وتابع مسيره نحو المدخل حتى اختفى وراء الأشجار.

انتبه الطيب من جديد إلى مسعود الذي كان ينظر إليه، ولم يخفَ عن موسى أن تعبيرات وجه مسعود وملامحه المتباينة من بياض متلألئ وعينين بنيتين تحملان عمقًا مكينًا مع آثار المرض على جلده، والذي كاد أن يقتله، كانت تتراءى غريبة بالنسبة للطيب الذي لم يرَ في الأشياء سوى مظاهرها؛ ولذلك لم يعُد يخاف من موسى بعد أن أمن شره لِمَا رآه فيه من تغير. حدس نفس الشيء حول مسعود؛ ولذلك كانت معاملته له أجرأ من معاملته مع وحيد الذي بدا وكأنه أخاف الطيب، والذي بدا وكأنه شعر بالارتياح من رحيله.

«يبدو أنك تتعجب ممَّا يمكن أن يفعله رجل غريب في أرضك يا مسعود، ولكني سمعت أنك كنت كثيرًا ما ترفد قرى عابري السبيل وكل من قصدك كضيف، فعلت هذا مع أناس أعرفهم، ومنهم موسى هذا». صمت وكأنه ينتظر أن ينظر مسعود إلى موسى ولكنه لم يفعل ومضى الآخر في كلامه: «**ولكني لم آتِ كضيف يا مسعود، جئت من أجل استرجاع حق أو مسح العار الذي جلب عليَّ، وكان قد جلب على أحد أضيافك. ومضت شهور عديدة وأنا**

في هذه القرية، ولكن ما كان يحدث منعني من أن آتي إليك. وقد يقول البعض إنه يمكنني أن أسامح، ولكن ما فعله بي البشر طوال حياتي نزع مني تلك القدرة على الصفح، وأصبحت أغض عن هذه الفكرة وأتجاوزها؛ مثلي يجب أن ينتقم، لهذا خُلقت؛ ذلك أنني لا أحس بنفسي ولا يمكن للآخرين أن يكنوا لي الاحترام إلا عندما أعزم على الانتقام؛ ولذلك أنا هنا يا مسعود».

«**حسنًا يا ابني، وإن كنتُ من الذين يدعون إلى الصفح ولكن لا أدري ماذا تريده فعلًا، فإن تفضلت وشرحت الأمر لكان هذا أفضل**».

«**أريد حقي، هذا ما أريد، لقد سئمت من استغلال الجميع لي ولعرضي؛ ولذلك سأضع حدًّا لهذا، هؤلاء الأطفال الذين تراهم والذين تؤويهم عندك هم أقاربي، هم أبناء أخي**».

«**ماذا؟ أبناء أخيك؟ ولكن يا ابني هل تعني أن الحواس ابن عمك أو هو شقيقك؟**»، كان مسعود قد وضع ما كان في يده واقترب بخطوتين إلى الأمام: «**لقد بحثنا عن أقرباء الحواس خلال السنة والنصف الأخيرة، منذ موته، ولكن لم نجد لهم أي أثر، ولم يكُن لأرملته وأولاده أي مكان آخر يمكن أن يلجؤوا إليه**».

«**هذا كلام فارغ، كان بإمكانهم أن يذهبوا إلى المكان الذي جاءوا منه، ولكنكم أبقيتموهم من أجل العهر ولاستغلالهم**».

«**أستغفر الله، ليس هذا كلامًا يستطيع عاقل أن يتفوه به، اهدأ يا ابني لأنك متوتر جدًّا. إن كنتَ عم الأولاد، فبإمكانك التكفل بهم، هذا سيُسعدنا وسيُسعدهم أيضًا، ليس أفضل من أن يكبروا تحت رعاية عمهم الذي لن يختلف عن والدهم في معاملته معهم**».

«كفاك نفاقًا يا مسعود، قد أخبروني كل شيء عنك، ولقد رأيت كيف يتصرف ابنك بديع، هو أكثر شجاعة منك، على الأقل يعمل ما بدا له ودون نفاق، لقد فعلتم فعلًا شنيعًا، والآن تتحدث معي هكذا وكأنني لا أدري؟! أعرف كل شيء، ولن يهدأ لي بال حتى أنتقم، لن أقبل لا دية ولا أي شيء، أريد القصاص، هذا ما أريده، ولا أريد لا محكمة ولا أي شيء، حتى المحاكم قد أُغلقت منذ شهر وقد حالفك الحظ بأن كسبت حكم الأرض قبل إغلاقها، فعلًا أنتم محظوظون».

«عن ماذا تتكلم يا رجل؟ نفاق وفعل شنيع وقصاص، أتعي ماذا تقول؟ هذا أمر خطير فعلًا»، ثم استدار نحو موسى وسأله: «**هل تعرفه؟**»، حرك موسى رأسه بالإيجاب، فانفجر الطيب قائلًا:

«اسمع، لا تتهامسا عني وأنا حاضر، لست حيوانًا أو جمادًا لتفعلا هذا، لقد كنت محقًّا بشأنك، تتظاهرون بالطيبة وأنتم تكنون لي ولأمثالي الاحتقار وتودون لو نصبح لكم عبيدًا، ولكن ستعلمون ماذا سنفعل، سترى ماذا سأفعل، لن أرضى إلا بدم ابنك وحيد ذلك، سوف ترى». صعق الجميع من سماع ذلك الكلام، وكان الأولاد قد تراجعوا وأخرجت فتيحة رأسها من النافذة وبدأت في مناداتهم، فذهبوا إلى هناك وانفجر الطيب مرة أخرى قائلًا:

«الله يلعنكِ يا خبيثة، تريدين إخفاء أبناء أخي عني، سوف ترين ماذا سأفعل، سأفضحك وأفضح عشيقك، وسأقتص منه، دم أخي لن يذهب سدى».

«اسمع، لماذا تصرخ هكذا؟ وما الذي تتحدث عنه؟ هل جننت؟!» صاح موسى فيه وهو يتقدم إليه.

«**أنا لست مجنونًا، هذا حقي. هل تسمع؟ تقتلون أخي وتخفون عني أبناءه، والآن تريدون أن تُخرسوني أيضًا؟ هذا لن يكون أبدًا**». ولوح مسعود بيده نحو موسى ليُسكته، ثم تقدم نحو الطيب أكثر وكلمه بهدوء:

«**بالهدوء يا ابني نفهم كل شيء، من الذي قتل من؟**»، أراد الطيب الانفجار في وجه مسعود مرة أخرى، ولكنه تمعن في وجهه ثم قال بنبرة مجارية لما رآه في وجه مسعود: «**ابنك الأكبر وحيد قتل أخي الحواس، لم آتِ إلى هنا إلا بعد أن تأكدت من الأمر، أنا أيضًا رجل متعلم ولا أتسرع، ولا شيء يخيفني مثل الفضيحة والعار، ولقد تأكدت من علاقته بفتيحة، لقد استجوبت أبناء أخي وعلمت كل شيء، انتظرتهم مرات عديدة بينما هم يلعبون بعيدًا عن المنزل وكلمتهم، وقلت لهم إنني سأنتقم من قاتل والدهم. أما عن معرفتي بكيفية قتله للحواس، فهذا أمر علمته وحدي، ولم يبقَ إلا أن يقر بجرمه، وإن كان قد تاب مثلما يقولون فسيقر**». لم يرُد مسعود ومضى يحدق في الطيب على وجه غريب أرعب الطيب، فرأى موسى كل ذلك وبدا له مسعود جد مختلف كمن لبسه الغضب وأخذ منه كل مأخذ ولكنه بقي رابط الجأش متحكمًا في نفسه. ثم أطرق رأسه وبدا كمن قد انغمس في تفكير عميق، ولم يتجرأ الطيب على الكلام بعد ما شاهده من تغير قد طرأ على مسعود، فبدا هو الآخر خائفًا ولكن عازمًا أيضًا على المشاجرة إن كانت النتيجة مخالفة لرغبة معينة لديه. وكان سلوكه حتى وهو واقف قبالة مسعود ينظر تارة إليه وتارة حوله، سلوك مَن وطن نفسه على البقاء هناك لمدة طويلة، ولكن نبرة كلام مسعود وهو يخاطبه بعد أن رفع رأسه غيرت هذا:

«**اسمع، سوف أسأله بنفسي، لا أدري ماذا أقول لك، إن أقر مثل ما تدَّعي فسيكون هناك كلام آخر، أما إن أنكر وكان صادقًا فسوف ترى ماذا يمكننا القيام به معك. هل فهمت؟**». لم يرُد الطيب وبدا خائفًا وإن كان كلام مسعود لم يعجبه، وبدا مترددًا في الاستفسار عن بعض الأمور، فاستأنف مسعود كلامه بعد أن أدرك هذا: «**أخبر موسى عن مكان مكوثك وسيأتيك هذا المساء، أما غير هذا الاقتراح فليس لديَّ ما أقوله لك**». حسم كلام مسعود والنبرة التي استعملها المحادثة بينه وبين الطيب الذي استدار ومضى يمشي، ولكنه كان يتوقف ليلقي نظرات خلفه، ثم تذكر موسى كلام مسعود فلحقه عند المدخل وسأله عن مكان مكوثه، فأجابه الآخر: «**ستلقاني عند منزل سيف سعيدي**». ثم استدار ومشى بعيدًا، وترك موسى يفكر في ما كان قد سمعه لتوه، وفي ما يمكن أن يكون عليه حال مسعود، وتساءل إن كان يجدر به الرجوع إلى هناك والبقاء مع مسعود أو تركه وحده، واستقر رأيه على الرجوع إليه، وهو ما فعله. ولمفاجأته وجده قد استأنف العمل، فتأمل فيه للحظات ثم فعل نفس الشيء.

عاد وحيد بعد زمن ومعه مبروك البناء، تكلم الأخير مع مسعود لدقائق قليلة ثم رحل، فكان حديثه مع مسعود جد مقتضب؛ ذلك أن مسعودًا كان شارد الذهن في أغلب تلك المحادثة، ولما رأى مبروك ذلك طلب أن يرجع في وقت آخر، فاعتذر مسعود ومضى الآخر ونظر مسعود إلى وحيد وطلب منه أن يكلمه على انفراد، ومضيا معًا وراء المنزل خلف القبور وخلف السياج المشجر، وهناك طال حديثهما. كان على موسى الذهاب إلى هناك مرات عديدة لتفقدهما، وكانت

سهام قد خرجت للذهاب لزيارة منزل قريبة من أقاربهم، وعندما عادت كان مسعود ووحيد لا يزالان يتحدثان، فاستفسرت عن الأمر وارتابت منه، ولكن موسى هدأ من روعها وأخبرها أنهم يتحدثون عن أمور طبيعية تتعلق بشخص آخر. وفي آخر مرة تفقدهما كان قد تجاوز السياج من الجهة اليمنى، ورأى وحيدًا قد جلس على الأرض ووضع وجهه بين يديه وبدا وكأنه يبكي، وكان مسعود فوقه مائلًا نحوه وهو يحدثه ويحثه على أمر ما، انقبض صدر موسى لذلك المنظر وازداد توجسه وخمن أن الولد وابنه مقبلان على أمر جلل كانا قد عزما عليه، أراد معرفته ولكن كان عليه الانتظار، فرجع إلى الضريح المهدم والذي لم يبقَ منه سوى القبر والأحجار الكبيرة هنا وهناك، وجلس على أحدها ومضى يترقب ما الذي سيحدث في المستقبل. ظهر مسعود بعد حوالي الساعة وكان وحده، وخمن موسى أن وحيدًا بقي في جلسته تلك يفكر، قام موسى من مكانه وانتظر مسعودًا أن يتكلم، ولكن الأخير استغرق في صمت لعدة دقائق ثم تكلم وهو ينظر إلى موسى ثم يشيح بوجهه نحو القبر:

«**هذا فعلًا بلاء قد نزل علينا يا موسى؛ لقد أقر، قال إنهما تشاجرا وقتله دون عمد. أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، هو فعلًا بلاء عظيم، اذهب وقل لذلك الذي أتى إلى هنا سالفًا، وقل له ما جرى وأن يأتي إلى هنا، وأنا سأذهب إلى بديع**».

«**ولماذا تذهب إلى بديع؟**».

«**لأنه أخوه، وكذلك لأنه الحاكم هنا وولي الأمر. وسأحاول أن أجمع شيوخ البلدة والعريبات؛ علنا نستطيع أن نقنعه بأن يقبل الدية ويصفح**». لم يقُل موسى أي شيء وبدا وكأنه صُدم صدمة

شديدة، وشعر وكأن جسمه قد ثقل ولم يعُد يستطيع الحركة، ثم بدأ في التفكير في وحيد، وفكر في الحواس أيضًا، وبدا وكأن تسارع الأحداث والتغيرات التي طرأت على وحيد قد جعلت حاله أسوأ؛ ذلك أنه لم يكُن نفس الشخص النزق والمتهكم والذي لا يعبأ بأي شيء. «**وماذا سيفعله حيال كل هذا؟**» تساءل بصوت مرتفع، فاستفهم مسعود منه الكلام، فرد موسى: «**أنا أتكلم عن وحيد**».

«**له الله، وللحواس الله أيضًا، إن شاء الله يعفُ عنهما، ولكن الأسوأ هنا هو الوقوع في القنوط، لا يجب القنوط من روحِ الله**».

وغادر موسى المكان ولم يَدرِ إلى أين يذهب؛ ذلك أنه لم يكُن يريد أن يذهب رأسًا إلى منزل سيف والالتقاء بالطيب هناك.

ولكن لم يكُن له من بد سوى فعل ما أمره به مسعود، فذهب إلى هناك. وبعد أن طرق على الباب، فتح له سيف، فتذكر تلك الليلة التي ذهب فيها إلى هناك، ولكن هذه المرة لم يكُن الليل قد حل بعد، فدخل وراء سيف وذهبا إلى نفس الفناء الذي كان قد جلس فيه في تلك الليلة الأولى. انتبه لصوت أتاه من اليسار فاستدار، فرأى جمعًا هناك يضم الرازي والطيب الذي كان جالسًا بتجهم ومظهره مناقض لمظهر الآخرين مجتمعين، وكان هناك أيضًا قدور وفتحي ونسرين. خمن موسى أن الطيب قد انضم إليهم حديثًا، وبدوا غرباء عن البلدة وعن تلك المنطقة وإن كانت لديهم طموحات تجعل من كل كلمة تخرج من أفواههم وكأنها حلقة أو حلقات سلسلة أوهام لا تنتهي. وابتسم الرازي لرؤية موسى وقال: «**لقد أخبرتك أنك ستأتي إليَّ بنفسك**».

«**لم آتِ إليك، ولا أريد التحدث معك**».

«**تظن أن الطيب سيدعكم تخدعونه وتحشون رأسه بالكلام الفارغ، هذا لن يحدث. لقد أخبرناه بكل شيء، وهو الآن صديقنا، ولا يمكن أن نترك صديقًا لنا مع أشخاص مثلكم**». لم ينظر إليه موسى، وطلب من الطيب أن يكلمه على انفراد، فتدخل الرازي من جديد وقال: «**لماذا تريد أن تكلمه على انفراد؟ هو لا يُخفي أي شيء عنا**».

«**ظننتك يا الطيب لست من النوع الذي تثق بالناس ناهيك عن هذا النوع**»، وأشار بيده اليمنى باتجاه الرازي الذي ابتسم ثم حدق في موسى بعد أن اختفت تلك الابتسامة. شعر موسى أنه قد وُضع في موقف محرج؛ ذلك أنه كان عليه أن يخبر الطيب بما أمره به مسعود، فلم يكُن إلا أن أذعن لهذا وحاول تجاهل وجود الرازي وقال: «**لقد اعترف، وعمي مسعود يريد أن تزوره لنرى في هذا الأمر**».

«**لن يأتي إليكم، لا يمكن له أن يصفح عن أعداء الشعب**».

«**لم أكلمك يا الرازي؛ لذا أبقِ فمك مغلقًا**».

«**لن أقبل بأية دية، أريد القصاص**» رد الطيب، ثم تكلم موسى مخاطبًا الرازي:

«**ظننتك لا تؤمن بهذه الأمور، إذًا في حكمكم سيكون هناك الإعدام**».

«**لن يكون أي شيء من هذا، حتى الطيب لن يفعل هذا، بل نريد أن تذعنوا لإرادة الشعب**». لم يرُد موسى، وتأكد من أن الأمر كان ابتزازًا، ونظر إلى الطيب الذي لم يعلق على كلام الرازي. شعر موسى بالضيق لوجوده هناك، فاستأذن ورحل رغم اعتراض الرازي ودعوته له للبقاء هناك.

وساء الأمر، وراح الطيب يسكر في ليلتين متتاليتين ويخبر الجميع عمَّا فعله وحيد وأنهم يرفضون إعطاءه أولاد أخيه ويرفضون إعطاءه أي حق يتعلق بموت أخيه. واتصل الحديث في المجالس عمَّا كان يحدث وكيف أن بديعًا كان يحمي أخاه، وسمع موسى أحدهم وهو يقول في السوق: «**إذا كانوا يفعلون ما شاءوا، فنحن أيضًا لنا الحق في فعل ما نشاء؛ هذه البلاد هي لمن ينتهكها ويسلبها. هذا هو الحال، ولنعِش على هذا القانون**». فأدرك موسى أنهم كانوا يعيشون في فوضى تجاوزت التدمير والتخريب إلى السيطرة على العقول، وأضحت نمط عيش. وتناقل الخبر جميع أهل المنطقة، وراح البعض يضيف إليه تفاصيل أخرى مثل كون الحواس على دراية بأسرار آل نوح فأمر مسعود ابنه بقتله، وآخرون أضافوا أن مسعودًا هو من قتله وأن وحيدًا كان سكران، ولم يسدوا فراغات القصة التي أحدثوها، وكلهم أجمعوا على كن كره عميق لمسعود ولآله وراحوا يتعاطفون مع الطيب ويحثونه على مقاضاتهم سرعان ما تعود الأمور إلى مجراها، ولكنه كان دومًا يفاجئهم بإجابته: «**لا يوجد أي محاكم الآن، وما أريده هو القصاص**». كانوا يتعجبون من كلامه دون أن يفهموه، ولكن من كان ملمًّا بحيثيات المسألة كان يعرف ما يبغي على وجه التحديد.

ذهب إلى مسعود في مرتين وهو يتحدث معه حول الأمر، حاول فيهما مسعود معرفة نية الآخر الحقيقية، وانعقد جمع من أعيان البلدة والعريبات للفصل في هذا الأمر، وكان هذا الجمع يرى التوصل إلى حل ودي، وهو ما كان يلقى اعتراضًا من الطيب والرازي –الذي رافقه إلى ذلك الجمع– ويجيبهم: «**ومن سيُعيد لي دم أخي**

إن أنا وافقت على مال أو أيٍّ ممَّا تتحدثون عنه؟ هذا أخي وقد قُتل غدرًا، ولو كان والده ووالدته على قيد الحياة لأرادا أن يُقتص من قاتله أيضًا». وافقه الكثير ممن كان حاضرًا، ولكن الرازي كان يتدخل ويقول:

«**هذه جريمة تنم عن ظلم من طرف الطبقة الميسورة ضد الطبقة الكادحة، إذا لم يُعاقَب القاتل فإن الأمر سيصبح تحريضًا لأمثاله على قتل الفقراء والمعدومين واستغلالهم**».

«**نحن مستعدون لدفع الدية، نحن مستعدون لما يقتضيه الشرع**» أجاب مسعود وهو يتحدث إلى الجميع بنبرة هادئة ومتجاهلة لكل ما كان يتعرض له من إيحاءات تطعن فيه.

«**هو يريد القصاص، وهذا جزء من الشرع**» قال عبد السميع الصافي، فرد عليه مسعود: «**ولكن إن كان في المتاح درء شر آخر فلمَ لا نفعل ذلك؟**».

«**ولكن الرجل يريد القصاص. ومن طلب من ابنك أن يقتل نفسًا بريئة من أجل شهواته؟ تتحدثون عن الخير، والشر فيكم وفي أولادكم**». لم ينظر مسعود إلى رابح عطية وهو يوجه له هذا الكلام، وأجال ببصره عله يجد من يسانده من أجل باب ذلك الخير الذي أشار إليه، فوقعت عيناه على الشيخ محمد: «**يا شيخ محمد، الحواس -رحمه الله- لديه أولاد، يعني إن كان هناك قصاص يجب انتظارهم حتى يبلغوا سن الرشد، أليس كذلك؟**».

«**هذا تحايل على الشرع، لا يمكن هذا، شقيقه هنا وهو بالغ؛ فلمَ انتظار صبي حتى يبلغ من أجل تعطيل القانون؟ المحكمة ستفصل في هذا لأن شقيقه هنا**» صاح هذه المرة رابح عطية، ثم تلاه الشيخ محمد قائلًا:

«**أخوه هنا يا مسعود، وهو يطالب بالقصاص، ما يتبقى لك هو البحث عن محام ليتكفل بقضية ابنك**».

«**محام؟! أنا لا أريد أن يصل الأمر إلى المحاكم، أريد القصاص**». وقف الطيب بعد أن رأى أن الجمع كانوا يتحدثون في سياق آخر.

«**وهل تريد أن تنتهي منه هكذا بنفسك؟! طبعًا هذا أمر مستحيل، القضاء الحكومي هو من سيفعل هذا**» أجابه الرازي وهو يبتسم مع الصافي ورابح عطية.

«**إذًا لمَ أنتم هنا؟ أنا أتحدث عن القصاص الفعلي**». لم يُجبه أحد، وبدا لهم ساذجًا.

«**أنا مستعد لكل شيء**» تكلم مسعود ثم أضاف: «**وابني كذلك**». قال هذا وهو ينظر إلى الطيب، فتدخل رابح عطية من جديد قائلًا:

«**على العموم يا الطيب، الأمور لن تطول حتى تعود إلى مجاريها وتنال حقك، أنا ظُلمت أيضًا ولكن نلت حقي، والآن الناس أصبحت تعرف حقيقة الأشياء وحقيقة الأشخاص؛ البارحة التف حولي جمع كبير يريدون أن يسمعوا مني رأيي حول هذا الأمر وأمور أخرى، وأخبرتهم أن لا حديث إلا عن سلام تام ونبذ الفوضى والعنف، والجميع هنا رغم معاناتهم فإنهم يريدون دولة حق وقانون**».

«**حتى أنا، البارحة سألوني عن مستقبل البلاد فأجبتهم بأنه سيكون مضمونًا**» أضاف الرازي وقد تحول الحديث بينه وبين رابح عطية ومن معه. كانوا في منزل سيف سعيدي رغم عدم قبول مسعود

في بادئ الأمر، فقد أذعن في الأخير من أجل التوصل إلى حل، وكان الأمر جليًّا بالنسبة لمسعود ومن معه وحتى للطيب أن أولئك الآمنين في أموالهم وأنفسهم كانوا يستغلون قضيتهم من أجل ترويج منفعة شخصية، فقام مسعود وهو يخاطب الطيب بصوت مرتفع: «**يبدو أن هذه القضية أكبر من أن تقام لها جماعة يا الطيب، سنلقى حلًّا بأنفسنا**». ثم مشى باتجاه الباب عازمًا على الرحيل، وهو ما فعله موسى وزين العابدين اللذان أتيا معه، وفعل بعدهم الطيب نفس الشيء والرازي يناديه من ورائه وكان يجري وراءه في الشارع وهو يحثه على الرجوع.

وتصادف هذا مع وقوع فوضى أخرى عادت فيها أعمال التخريب، وبدا وكأن الجميع أعلن حربًا ضد الجميع، ولم يعُد أي وازع أخلاقي أو ديني يقف في طريقهم، بدوا وكأنه أصبح لديهم عذر الآن، ومنه أصبح تخريبهم مبررًا؛ فكثرت المناوشات بين الناس، واحتد الصراع، وتحولت أكثر المشاجرات إلى كوارث شاهدها بديع، والذي كان يتحكم في البلدة في الليل. عرف كيف يردعهم، فاستعمل القوة التي أذعنوا لها جميعهم، ولكن كان يدرك أنهم يتربصون وأن خوفهم من القوة لن يحول بينهم وبين مباغتة القانون وصاحب القوة.

أما مسعود وآله فكانوا لا يزالون تحت صدمة ما اكتشفوه حول جرم وحيد، ولم يعودوا يغادرون أرضهم إلا بديع الذي رجع للسكن معهم، فكان يرى الحزن باديًا على والده وشقيقتيه وحتى على موسى. وما زاد حالهم سوءًا هو معاملة كل من يعرفهم لهم على نحو سيئ جدًّا، فلم يعودوا يزورون الأقارب ولا الأقارب يزورونهم،

وأصبح حتى شراء ما يحتاجونه من غذاء وملابس عصيًّا عليهم جدًّا لما يلقونه من غلظة وفظاظة من طرف أهل المأرب، ومنه ما رد به أحد موظفي البريد على سهام لدى ذهابها إلى هناك لإخراج مال من حساب أبيها بأن نعتهم: «**خونة وقتلة ولصوص**». رجعت وهي تبكي، وهو ما حدا ببديع للتعارك مع الرجل الذي اعتذر بعد إدراكه لتهديدات بديع وما كان عازمًا على فعله ضده. نفوذ بديع أثبت له أنه لولا شخصيته وطريقة تفكيره لكانت عائلته قد ضاعت ولكان وحيد قد انتهى منذ زمن، ولكن شعورًا داخليًّا كان يُظهر له مستقبلًا متغيرًا، وأن ما يفعله هو الخطأ، وما يفعله والده هو الصواب وسيأتي بنتيجة، وعبثًا حاول تفنيد هذا الهاجس بكل الحجج المنطقية والحقائق الواقعية والتاريخية. فكان يشعر بذلك بتلاحم مع أسرته وتفاعل مع آلامهم، واعترف بتألمه معهم على عكس ما كان يخفيه في الماضي، فكانت محنة للعائلة، وانتظروا القدر، ولكن مسعودًا بدا على دراية بكيفية التصرف. كاد صبرهم أن ينفد، وكان مسعود دائمًا ما يقوي عزائمهم، ولكنه كان رغم هذا وكأنه ينتظر أمرًا ما، وحدث أن كانوا مجتمعين في غرفة الجلوس فتكلم وحيد:

«**لا أدري لماذا انقدنا لهذه الفوضى وهذا الهوان في السنين الأخيرة. هذا أمر محير فعلًا، والتفكير فيه مرهق جدًّا ويدفع إلى الشعور باليأس**».

«**كل ما هو غير شرع الله فهو فوضى وهو هوان يا ابني**» أجاب مسعود، ولكن بدا كلامه جد مختلف وعميق وملخص لكل أيامهم الماضية. لم يُجب وحيد ومضى يتأمل في كلام والده.

«**ولكن ماذا عن كل تلك المصائب التي وقعت عليك وعلينا؟**» تساءل بديع ثم أضاف: «**لقد تجاوزتها وبإمكاننا تجاوز هذه، ثم إن هذه الفترة يمكن أن يحدث فيها كل شيء، وسينسون أمر وحيد**».

«**أنا لن أنسى، وما يحدث لنا من مصائب هي مشيئة علوية**» تكلم بديع عن الفوضى، وبدا كلامه وكأنها كانت أساسية ويجب أن تتغلغل في تفكيرهم، وكان الكثيرون هناك يشاركونه الرأي؛ ففي تلك الفوضى لم يكن هناك أي قانون يردع، وأصبح الواقع غابة يفعل فيها كل شيء على شرط توفر القوة. وبدت كل قوة مصدرًا ومسببًا لفوضى جديدة، وفكر البعض في أن الأمن هو وهم ولم يكُن سوى امتداد لعادة جبل عليها البشر لا غير، ومنه لم تبدُ لأهل البلد قاطبة أية وسيلة للأمن وللنظام، وحتى إن قدم الأمن فسيكون راحة زمنية للبشر حتى اكتشاف قوة أخرى، ومنه كان الأمن بالنسبة لهم استهلاكًا للقوة وخورًا في الطبيعة لا غير، ولكن هذا الأمر من تفكير وعمل وفقه لم يكُن ليستمر طويلًا.

غاب مسعود ذات يوم في تلك الفترة ولم يعُد حتى الليل، وعند عودته اختلى بوحيد وذهبا للمسجد في الليل، ولم يفهم أحد ما الذي كان يحدث، وفي الصباح غادر الاثنان، وقبل أن يذهبا طلب مسعود من موسى –الذي بات الليلة هناك– وبديع –بعد أن كلمه طويلًا وبدا وكأنه قد نال موافقة بديع على ما كان مقبلًا عليه– أن يلحقاه بعد ساعة على بعد خمسة كيلومترات من منزلهم تحت رابية وراء سلسلة من الضياع في العريبات، فامتثلا لأمره وغادرا بعد نصف ساعة، وبلغا أول الرابية بعد ساعة وكان الفجر قد مضى

ولاح أول الصباح. وتحت الرابية وجدا مسعودًا جالسًا على الأرض، وأمامه كان وحيد على الأرض مضرجًا بالدماء، أدركا على الفور ما حدث، وصُدما وبقيا على تلك الحال لوقت طويل. ولما تحرك موسى يريد الهبوط إلى مسعود انتبه إلى شخص وراءه، فالتفت وإذا به رجل في الثلاثينيات من عمره طويل وضخم وبدا ذهلًا أيضًا، لمس كتف مسعود ثم ناداه، فانتبه له مسعود ثم قام وكان يبكي، قدم بعدها بديع والرجل وحملوا وحيدًا، وكان الرجل قد أشار إليهم بأن سيارته قريبة في الطريق الصغيرة بين الضياع، فحملوه والجميع صامت، وشكر مسعود الرجل مناديًا إياه بالضابط حسان.

وسمع من في تلك المنطقة بالخبر، وصعقوا وتوقفت الفوضى فجأة، وبدا الجميع وكأن مصابًا قد أصابهم، أو كأنهم أفاقوا بسبب لطمة أحدثها شخص، فانزاحت عنهم كل تلك الأوهام الماضية، وأخذهم الرعب وشعر كل واحد منهم بالمسؤولية من جديد، وتلا هذا ندم أبدى لهم كل ما يجب فعله من أجل تدارك ما مضى؛ فكان حالهم كمن أفاق عند حد الهاوية، فأبصر الهاوية وعمقها السحيق، فهاله ما كان مقبلًا عليه. وحدث لغط آخر ولكن كان مختلفًا؛ ذلك أن الجميع بدا يحمل آلات وأثاثًا، ولكن اتضح فيما بعد أن كل من استولى على شيء في الماضي راح يعيده إلى المكان الذي ألفاه فيه أو إلى صاحبه إن كان يعرفه، واختفى الطيب وفهم الجميع سبب ذلك، وقبل أن يختفي وجدوا الرازي مقتولًا في بيت سيف، ولم يُرَ بعدها الطيب أبدًا. ومضت جماعة كبيرة نحو مركز الشرطة للاعتراف وسلموا أنفسهم، وعلى رأسهم بديع؛ اعترف بما فعله أثناء توليه المسؤولية في البلدية. وبعد مرور أيام ثم أسابيع حُوكم، وكان حكمه بالسجن سنتين.

وفي السجن قبع بديع، وهناك ألفى نفسه في حياة جديدة، حاول التأقلم في الأيام الأولى ولكنه سرعان ما أدرك أن هذا مستحيل، وأن ذلك المكان ليس من الأمكنة التي يمكن الاعتياد عليها، فحاول مسايرة الظروف يومًا بيوم، أرق في ليالٍ كثيرة وبين تلك الجموع النائمة على الأسرة وعلى الأرض، شعر وكأن كيانه قد حُجب ولم يبقَ له إلا ما يمكن به إدراك الوضع الذي كان فيه والانغماس فيه. وعلى عكس كل الصعوبات التي كان يواجهها في حياته، ما كان يلاقيه في ذلك المكان كان يواجهه دون إرادة، ومنه كان عرضة لأهواء خارجية تتحكم فيه وتلقيه في متاعب كانت تنوء به. فلم يكُن باستطاعته التفكير، وكان يريد لو يجد وقتًا لفعل ذلك، ولم يكُن يتاح له ذلك إلا في الليل، ومنه كان أرقه، وعبثًا حاول الخلود إلى النوم بعدم التفكير في أي شيء، وتعليق كل الأحكام وكل الاهتمامات واستبعادها من ذهنه. لم يستطع فعل أيٍّ من ذلك، وكان في أغلب الأحيان صامتًا، وهو ما كان يزعج بقية السجناء الذين رأوا في وجوده هناك عقوبة له وسقوطًا فرحوا به، ولم يهتدِ إلى أي سبب يمكن أن يفسر به انزعاجهم من صمته وإيثاره للوحدة

سوى أنهم كانوا ربما يظنون في كل هذا بقايا من شخصيته التي علت والتي كانوا ولا يزالون يكنون لها كل الكره. فكان سقوطه سلوى لهم وتعزية عمَّا فعلوه؛ ذلك أن من كان أعلى شأنًا منهم سقط ووقع في ما وقعوا فيه، والآن هو يدفع ثمن ما فعله سالفًا من علو ونجاح. وبذلك أحس منذ الأيام الأولى بأنه لم يكُن على وفاق مع بعضهم، وكان هؤلاء البعض ممن يصرخ، وبذلك كان الإزعاج الذي يسببونه كبيرًا، بيد أن هذا لم يمنع من أن يشتبك لسانيًّا مع أحدهم، وراح الآخر يقذع له الكلام كما وصفه بديع بالغوغاء، وهو ما زاد من حدة غضب الآخر وراح يتفوه بأبذأ الكلام والجميع يتفرج، ولم يكُن هذا إلا من أجل أن بديعًا داس على قدم الآخر بينما هو يمشي، فاعتذر مرارًا ولكن الآخر بدا وكأنه كان ينتظر تلك الفرصة من أجل أن ينفجر، ولولا تهديد بديع له بأنه سينظر في أمره لاستمر الرجل. وكان التهديد موجهًا للجميع، تذكروا به ما يمكن له أن يفعله، فأرهبهم ذلك ولم يعُد الرجل لمضايقته من جديد. وكان أن سمع أن البعض يختار أن يعتزل، وسمع بأحد أعضاء الجماعات المسلحة قد فعل هذا تدينًا منه وتجنبًا للآخرين. أغرته الفكرة فقدم طلبًا من أجل ذلك، وبعد مدة من الزمن وجد نفسه في زنزانة صغيرة بمفرده. ولم يطُل الأمر حتى ندم على ذلك، ولكنه لم يخبر المسؤولين في السجن، وخمن أنه سيعتاد عليها وتكون له أفضل من مخالطة أولئك الغوغاء. بيد أن التفكير الذي كان يريده سقط عليه فجأة وكاد يحطمه؛ قارن بين حاله في الماضي وبين حاله في ذلك الوقت، وشعر بندم آخر، لم يَدرِ كيف يفسر سبب تسليم نفسه واعترافه على وجه لم يترك للقضاء أي فرصة لتبرئته: «**هل هذا**

تعذيب لنفسي؟» تساءل وهو يفكر في هذا: «**أم إنني أرى نفسي خارقًا وأريد امتحان قدراتي؟**». لم يكن الأمر يتعلق لا بهذا ولا بذاك، بل كان يتعلق بأمر آخر يجعله وكأنه يبحث عن أمر لم يجده بعد. وحاول تدارك ذلك الندم بأن فكر بأن السجن سيكون تجربة جديدة بالنسبة له، فلن يسقط من جديد، وسيتعلم كيف يواجه حتى أحلك الظروف وما هو أصعب منها، كتلك الظروف الغامضة التي لا يمكن تفسيرها مثل أعمال والده التي كانت سببًا في قبوعه في ذلك السجن. أراد لوم والده ولكنه لم يستطع، ثم أخذ في البحث عن آخرين يمكن أن ينسب إليهم ملامة إخفاقه، ولكنه لم يجد أيضًا. وحتى إن وجد أو أراد أن يلوم شخصًا ما فلن يستطيع؛ ذلك أنه كان يدرك أن لا أحد مسؤُول عن إخفاقه، كان هو الوحيد المسؤول عن ذلك الإخفاق، لم يكُن هناك عدو له أشد من نفسه، كان أكبر عدو لنفسه. هدأته تلك الحقيقة، ولكن لم يكُن هدوءًا يجلب الطمأنينة، بل كان بابًا لأمر آخر، فكان هذا تفكيره طوال الأشهر الأولى، وبعد مرور ذلك القدر من الزمن أخذ في استعادة كل ذكرياته، فأخذت كل واحدة منها بعدًا معينًا تلون بلون واحد كان المسؤول عن ذلك البعد، أضحت كلها باهتة وكأن مآلها الخيبة التي كان فيها، وراح يتأمل في نجاحات الملوك والأمراء في سالف العصور، فلم تبدُ له سوى تمهيد لفشل والانتهاء من أوهام كان لزامًا عليها أن تضمحل وتزول. وتساءل إن كان كل شيء ينتهي إلى مآل يشابه مآله، وبدت له كل حياته السابقة مجرد انحدار نحو تلك الهاوية، فلم تبقَ له أية ذكرى يسلي بها نفسه ولا ممَّا يمكن أن يقوي بها عزيمته. ولكنه تذكر والدته وتذكر شقيقيه أسامة ووحيدًا، وبدا له وكأن الجميع

سيمضي إلى ذلك المصير، وخطرت له فكرته القديمة حول قدرته على فعل ما لا يستطيع الآخرون فعله، وأن الظروف غير الغايات لأن غايته بعيدة الشأو. فكر في هذا ولكن الفكرة كانت حطامًا، فلم تنفعه وعبثًا حاول بعث روح فيها، كان كل شيء واهيًا، وبدا عزمه مهيضًا، وأفكار مثل الهمة الطموحة والاستعلاء سقطت كلها سقوط ميت، وانتشرت بقاياها حوله يريد الاحتماء بها فلا يفلح؛ ذلك أنها لم تعُد شيئًا يُذكر، وحتى وجوده أصبح أقوى منها وهي التي كانت تطوقه بطاقات وخواطر، فمضى عمره الأول دون أن يعرف ما تبقى له على وجه التحديد. وكان قد مرض عدة مرات من زكام والتهابات، وخلال تلك الفترات كان يفكر في الموت، لم تُخِفه تلك الفكرة قبل هذا، لكنها أرعبته في تلك الظروف وحاول إقناع نفسه بأن الموت سيكون أفضل بالنسبة له، ولكن مرور الأيام كان يلقيه في عذاب مرير، تيقن فيها من عدم وجود أيٍّ ممَّا يحتمي به، وأنه عرضة لتلك الآلام الناهشة من نفسيته، ثم أدرك أنه لا يملك أيًّا من تلك الأسلحة، وشعر وكأنه في سقوط دائم؛ ذلك أن الأرضية التي كان عليها قد سقطت من تحته وسقط هو كذلك. وتحولت لياليه إلى جحيم، وشعر وكأنه آيل للزوال، فأرعبه ذلك. وكان كل هذا نتيجة حيرته من حياته كلها، لم يعرف ماذا يفعل، وقدر أن هذا كان بسبب السجن، ولكن لم يكُن الأمر هكذا؛ فحتى ولو كان في الخارج لكانت حياته لتكون سجنًا آخر، ثم أخذت رغبة البكاء تجتاحه كل ليلة، فكان يمتنع ويتحكم في نفسه؛ ذلك أنه كان يعلم أنه سيغرق أكثر. فكر في أنه وحيد ولم يكُن له أحد يكنُّ له الود ولا الحب سوى عائلته، ومن أجلهم كان يريد البقاء وعدم نكبهم بموت

آخر، فكان من هذا ظهور العالم له كمجرد ساحة للهلاك لا يولد فيه الحيوان ولا الإنسان حتى يفنى من جديد في دورة لا تنتهي، أرهقته هذه الفكرة أيضًا، وحاول التوقف عن التفكير في كل تلك الأفكار. وفي مرة، وبينما هو يقاوم ويحاول دفع تلك الأفكار السوداوية، شعر بشعور جميل وكأن شيئًا يكتنفه ويزيح عنه كل ذلك الألم، ولوهلة تراءت له في مخيلته صورة الحرم المكي والكعبة، وشعر بالرغبة في الذهاب إلى هناك والطواف حولها، شعر بسعادة عظيمة ثم أعقب هذا امتنان كبير، ولم يختفِ ذلك الشعور مثلما خشي أن ينتهي به الأمر، بل بقي. ثم فكر في ذلك الشعور بالحب وبأن شيئًا عظيمًا يكتنفه كان له سندًا وفكرًا في الحياة، فكان هذا السند معناها، وبينما هو كذلك يفكر في مصدر ذلك الحب ولكن دون أن يكون له حبيب ولا امرأة تحوز على ذلك الحب، ففرح من أجل ذلك وتذكر الله وبكى غبطة. وفي تلك الزنزانة سالت دموعه وهو ينظر إلى السماء من خارج المشكاة ولم يعُد يشعر بالوحدة، وقام من مكانه وانتظر حتى يحين موعد خروجه بعد أن أعلم الحراس برغبته في ذلك، وأبدى إلحاحًا من أجل ذلك، ولما خرج توضأ الوضوء الأكبر وصلى صلاة الصبح وهو لا يزال يفكر في الكعبة المشرفة.

وتغيرت حياته برمتها، وعاد مع بقية السجناء ولاحظوا تغيره، وبدت الأشهر التي قضاها في العزلة قد أثرت فيه، ولكن بدا التغير نحو الأحسن، استمر في صمته ولكن صمته ذلك لم يكن مزعجًا؛ ذلك أنه لم يصبح في مظهر المتكبر بالنسبة لهم؛ فكان رده على أسئلتهم ومحادثته معهم ودية وبنبرة صادقة ومتفهمة وأخوية، أعجبهم صدق معاملته معهم ودماثة الخلق التي بدت طبيعية وغير

مصطنعة. وكان يرى في وجود رضا والصالح انعكاسًا لفشله لدى دخوله إلى هناك، ولكن الأمر كان قد تغير أيضًا، وبدوا قد تغيروا وقد تجاوزوا مرحلة فائتة إلى أخرى أقدر على مواجهة كل ما يعترض طريقهم من منغصات، ولكن دون تلك الغاية الضئيلة في الاستعلاء. ولم يكُن في معزل عمَّا يجري في الخارج، وكانت الأخبار تتنامى إليه ومنها تحسن حال آله، ومنها ما سمعه من بعض السجناء وهم يتهامسون بفرحة بأن مسعودًا أصبح عزيز المأرب. بيد أن بديعًا لم يرَ في هذا استعلاءً وظُفرًا باستعمال أي وسيلة كانت؛ ذلك أنه كان يعلم أن والده لم يكُن يريد ذلك، وأن ما حدث وبلوغه تلك المكانة بعد سقوط المتنافسين والمتصارعين السالفين كان حتمية كونية ناتجة عن إرادة إلهية. لم يشك في ذلك، ورأى أن كل الأوهام تزال في الأخير ليحل محلها ما يتلاءم مع الأمور كافة من طبيعة ومجتمع بشري. كل هذا التغير كان جيدًا بالنسبة له، ولكن لم يمحُ أيًّا من المصاعب التي كان يواجهها في حياته اليومية، كانت حياته صعبة، والشعور بالواجب كان يحتم عليه التنبه لكل فعل يفعله، والاجتهاد في تحري كل ما هو صواب، ومنه فعل ما هو صالح. كل هذا كان مقابل حاجة إلى الحزم، فلم يعدم هذا، ولكن ضرورات خارجية كانت دائمة الإلحاح على تقويض طمأنينته، ومنه كان دائم الحذر متجاهلًا كل ما لا يمت بصلة إلى حاله وما أصبح ينشده. ومنه كان يلفت انتباهه بعض المناظر والأشخاص معه هناك، مثل بعض من كان يتعلم التجويد وأحكام القراءة، وكذلك رجل كان من جنوب البلاد ينشد في الليل القصائد الطوال، كان ينام قريبًا منه وكانت القصائد عقائدية عن عقيدة الرجل التي بدت قديمة من

مثيلات قصائد عمران بن حطان، وبدا أن الرجل كان يجد تعزية في إنشاد تلك القصائد بصوت كان يظن أنه يسمعه هو فقط، ولكن كان يتنامى إلى من هو بقربه مثل بديع وثلاثة آخرين. وأيضًا رجل كان يأنس ببديع ويحب الحديث معه دون الآخرين بحيث يركن إلى الصمت لمدة طويلة إن لم يكُن يتحدث مع بديع، فلاحظ فيه بديع سلوكًا غريبًا، وهو رقعة صغيرة كان دومًا ما يُخرجها ويُطيل النظر فيها، وكان يفعل هذا حتى مع بديع، عندما يكون الأخير يقص عليه قصة أو يخبره بأمر كان الآخر يشرد ثم يُدخل يده إلى جيب في داخل قميصه ويُخرج الرقعة وينظر إليها، فكان بديع يتجاهل ذلك، ولم يبدُ وكأنه على دراية بالأمر، ومنه حدس سبب تودد الرجل إليه.

واتصلت زيارات آله به وموسى كذلك، والذي كان يطيل الجلوس معه في حدود زمن الزيارة، وكانا يتحدثان في كل شيء إلا أمرًا واحدًا، ولكن حدث خرق لتلك القاعدة غير الرسمية عندما أبدى موسى ذات مرة ندمًا حول تدخله في شأن الطيب في الصحراء. لم يفهم بديع، ولكن موسى بدا وكأنه أدرك أن الأمر كان محتومًا بعد أن ذكر رضيعة، ثم ختم الحديث بأن كل شيء قضاء وقدر. كما كانت كلٌّ من منال وسهام تزورانه كل أسبوع، تجلسان معه لتحدثاه في كل شيء، ثم تقومان لتتركاه مع والدهم. ولكم سعد مسعود بالتغير الذي طرأ على بديع! وكان في كل مرة يغادر فيها تلك القاعة الكبيرة يشعر بامتنان ممزوج بترقب شديد لموعد خروج بديع من هناك.

وفي المأرب كان العزيز مسعود يحكم على وجه غير معقد ومألوف ولكن خاص به، ركنت إليه القلوب واستتب الأمن في البلد كله، ولكن تغير الزمان لم يخفَ على أحد ومنه كانت الأفئدة

-أغلبها- عاضة على كل ما يذكر بالحذر، وكان هذا ليتحول عند البعض لخوف وهلع شديدين لا يمكن التخلص منهما. كان الجميع يشعر بهذا في دخائل أنفسهم، ولكن منظر مسعود كان يطرد تلك الهواجس، ولم يدُم في حكمه طويلًا وتنحى معللًا بأنه فعل ما بوسعه فعله وأتم القيام بواجبه، وبه يكون مكوثه في ذلك المنصب تحايلًا وخيانة للأمانة. بزت كلمته إرادات الآخرين، وألفى نفسه في حديقته الصغيرة، وفي مسجد العريبات تارة وفي المساجد الأخرى في المنطقة تارة أخرى، كما كان كثير التردد على الجبانة أين نقل إليها قبور زوجته وولديه والقبر الآخر، زارهم هناك كل يوم، وفي كل يوم كانت الجبانة تتسع وتعمر بالموتى. وغير بعيد من القبور التي كان يقصدها، جلست عجوز ذات صباح بجانب قبر، وكان صبيان يجريان حول القبر وهي مطرقة رأسها، وبعد أن قرأ مسعود الفاتحة على القبور التي أتى من أجلها، لفت نظره منظر الصبيين فراح يراقبهما إلى أن انتبه على صوت العجوز وهي تخاطبه قائلة: «**هما هكذا دائمًا حتى هنا، دائما اللعب**». سدد إليها بصره وابتسم نحوها، فقالت مشيرة إلى القبر: «**ترك صبيًا آخر وصبية**». نظر مسعود إلى القبر الذي أشارت إليه العجوز، ثم رفعه باتجاهها وسألها إن كان ولدها فأجابت بالإيجاب. لم تشك ولم تتذمر العجوز، وبدا مصابها بابنها أكبر من أي شاغل قد يشغلها في حياتها، ثم قرأ مسعود ما كان مكتوبًا على القبر وتذكر الاسم، راقب الأولاد من جديد لكنه لم يتألم كثيرًا؛ ذلك أنه كان يعلم أنهما سيكونان بخير، أخبر العجوز بذلك ولكنها لم ترُد بأي شيء، فقام بعدها ورحل.

وكانت فتيحة قد اختفت بعد حادثة وحيد، وبقي أولادها مع سهام ومسعود، وبدوا أكثر سعادة مع مربييهما الجديدين، ولكن كان على أحدهما أن يذهب أيضًا بعد أن تزوجت سهام، خطبها ابن زين العابدين من والدها مسعود، فوافق الأخير بعد أن تأكد من طبيعة شخص ذلك الشاب وتأكد من رغبة سهام التي كانت قبل هذا تردد أنها لا تريد الزواج. لم تكُن فرحة كاملة بغياب بديع الذي سمع بالخبر وفرح من أجل شقيقته. لم يشعر مسعود بالوحدة رغم حزنه على فراق أولاده له، ولكن بقي له أمل مع بديع، وحتى ذلك الوقت كان مسعود مشغولًا بكل ما يملأ فؤاده إيمانًا وقوة وحسن ظن بالخلق وخالقه، وحتى عند قدوم أحد الغرباء يستضيفه أضافه مسعود، بيد أن الوافد الجديد سرعان ما رحل، وفي لقاءاته مع زين العابدين كان يحكي عن كل شيء، ولكن ذلك الكل كان خاصًّا ولا يشمل الرث والسقيم. وفي إحدى تلك الجلسات وراء الشجيرات، كانا يراقبان فيها غروب الشمس، تكلما عن أمور كثيرة، وتساءل زين العابدين بصوت مرتفع، فكان تساؤله معممًا ويشير إلى حاله وإلى حال مسعود:

«كيف لنا أن نعرف أننا نُحسن الصبر وأن ما يصيبنا هو على حسب قدرتنا على تحمله؟ في بعض الأحيان تأتي النوائب فلا تُبقي ولا تذر».

«هذا علمه عند الله يا زين العابدين، ثم إننا لا نكلف ما لا طاقة لنا به، وإن كان هذا أمرنا فالأحسن أن نمضي في سبيلنا؛ ذلك أن السبيل فيه كل شيء، ومن الحكمة أن تستمر، ومن الخيبة أن تنكص وتسكن من أجل التأمل في أسئلة لا تفيد. وفي السبيل

نرى ولا نرى يا زين العابدين، ولكن حالنا هو أفضل من أحوال الكثيرين؛ أن تعمل ما هو صالح هو أكبر دليل على حسن السعي وعلى الجادة الصحيحة».

هكذا كان يتكلم مسعود، ومن أجل ذلك كانت حياته أبعد ما تكون عن النواح، وبفضل عدم استعجاله كان ينسل من كوارث كبيرة، وعندما تنامت ضوضاء فوضى أخرى إليه لم يهلع على عكس الكثيرين ممن ذعروا من هذه الأخبار، وآخرين فرحوا لما يمكن أن يحرزوه من منفعة من الفوضى والحرب حسبهم. بيد أن الخبر كان حقيقة واندلعت فوضى أخرى، فكان يمضي جل وقته فيها في منزله أو في المسجد، ثم عند حلول الظلام كان يخرج ولم يعرف إلى أين كان يذهب، جهل الأكثرون وعلم بما يفعل القلة مثل زين العابدين الذي رافقه في إحدى جولاته، وكان ينقل فيها أكياس طعام إلى منازل يدخل إليها ويودع كيسًا صغيرًا عند رب البيت أو ربة البيت، وفي أحد المنازل أين كانت تسكن عجوز وامرأتان وأربعة أولاد – ثلاثة صبيان وصبية–، أخذت العجوز تتفرس في ملامحه وقد بدت وكأنها تذكرته من مكان ما. ابتسم مسعود لها وراح يكلمها عن أحفادها، فراحت تقص عليه كل ما خطر ببالها، ولدى خروجهما سمع مسعود وزين العابدين العجوز وهي تخاطب المرأتين الشابتين: «**هي معجزة فعلًا، الله لا يضيع عباده، كنت قد دعوت دعوة معينة ويبدو أن الله استجاب لي**». ولم يطُل الأمر حتى عاد الأمن من جديد، بيد أن صراع الاستعلاء لم يتوقف، ومضى كثيرون فيه فأوردهم موارد الهلاك، وصاح أغلبهم لاعنين الكون ومن فيه، كان آخرهم زهير، وشوهدت نسرين وهي تجول الطرقات وقد فقدت

عقلها، وعندما كانوا يغلقون عليها في أحد المنازل لكي لا تؤذي نفسها في الخارج كانت تقف عند النافذة وتصيح باسم الرازي.

ومضى العامان وخرج بديع من السجن، بدا خائفًا من الخارج وشعر بالارتباك والضيق في الأشهر الأولى، لم يعرف إلى أين يذهب أو ماذا يعمل. وبما أن الزمان دائم التغير فقد تغير بالنسبة له، ولكن لم يكُن هذه المرة للأسوأ بل لأحسن نسبيًّا؛ على قدر محدود يسمح له بالتأقلم وبالسعي الحسن. كان بلا أصدقاء وبلا عمل، ولم يعجب من ذلك بما أن كل ما كان يفعله في الماضي كان ضد كل هذا، ومنه وجد أنه يبدأ من جديد، ولكم أحزنه حاله عند مقارنة نفسه بآخرين ممن لم يخاطروا مثله وكانت حياتهم –رغم رتابتها– منظمة وانطوت على راحة وحتى على نجاح اجتماعي! بيد أنه كان يرعوي ويطرد أفكار المقارنة تلك ويتوقف عن الرثاء لنفسه، وحتى فكرة النجاح الاجتماعي تلك كانت تفقد بريقها لديه، لم يكُن يريد أن يستبدل بما اهتدى إليه من طمأنينة وسكينة، تلك الحركة الساكنة التي يكون مآلها غامضًا وأقصى ما يمكن بلوغه بها هو فرحة لا تدوم حتى تضمحل ليس بوجودها بل بتسببها في وجود رغبات أقوى، ومنه دائرة لا تنتهي من الركض وراء الرغبات المتوسعة والمنغصة لحياة صاحبها. ولغرابة الأقدار كان يشعر بقوة أكبر من ذي قبل؛ ذلك أنه أصبح لديه سند، ومنه مضى في الحياة من جديد رغم فقره المدقع وتأخر زمن بدايته تلك، فلم يخفَ عنه ذلك، وتوقف في مرات عديدة عند السنوات التي ضيعها، فكان يرعوي من جديد ويحس بأنه ما زال لديه ما يفعله، وكأن أمرًا كبيرًا يمكن له فعله؛ الدفاع عن فكرته. ولكنه لم يرُد أن يتهور، فآثر الهدوء بذلك وبدأ

بالبحث عن عمل، ولكم كان هذا صعبًا ومريرًا! ولكنه اشتغل في أعمال كثيرة، وانتهى بالعمل مع زين العابدين ومع موسى. لم يكن العمل مربحًا بالنسبة له، وكان الأجر زهيدًا، وهو الذي أخبره به زين العابدين مضيفًا: «**يمكنك أن تعمل هنا بينما تبحث عن عمل آخر، هذا أفضل من البطالة**». وافق بديع على كلام زين العابدين الذي كان يعامله جيدًا، ومنه كان يصبر على كل شيء؛ على ضنك العيش وعلى اختلاف حاله ونظرة الناس إليه وتعجبهم من تقلب الأحوال ورؤية عزيز الأمس أجير اليوم، ولكنه كان يتجاوز كل هذا بما سكن في قلبه حديثًا. وكان قد اعتاد على مجالسة والده وزين العابدين وموسى وراء الشجيرات، وكانوا يخوضون في كل شيء. وبينما كانوا يتحدثون ذات مرة عن عدم بقاء شيء على حاله، قص عليهم بديع بعض الشذرات من ملوك ورؤساء عبث بهم الزمان، أردفها بسؤال موجه لهم: «**أتعرفون ما الذي يلخص كل هذه التجارب الإنسانية وعن الحياة نفسها؟**»، فأجابوا بالنفي، ثم سألوه عمَّا يلخص كل ذلك وقد أيقنوا مسبقًا أنهم سيوافقون على كلامه بعد كل التواريخ التي قصها عليهم، والتي كانت تحمل ما يشاكل الحياة نفسها، أجاب وهو ينظر إلى الأفق الذي طالما نظر إليه سالفًا: «**ولا غالب إلا الله**».

كاريزما
للنشر والتوزيع